
البيت
وقصص أخرى
د. يوسف عز الدين عيسى

البيـــت

وقصص أخرى

دكتور يوسف عز الدين عيسى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الأخراج الفنى : عمر حماد على

البيــت

منذ أجيال عديدة موغلة فى القِدَم عندما بنيت هذه الڤيلاّ ، كانت أجملَ ما رأته العين فى هذا المكان بطرازها المعمارى المتميز الذى لم يكن له نظير وموقعها الفريد المطل على البحر إلى ما وراء الأفق ، ولقد ظلت صامدة تتحدى مرور الزمن فتبدو وكأنها تزداد حسنا مع مرور الأيام .

فيما مضى ، كانت الحركة فيها لاتهدأ ، تقام فيها الحفلات الساهرة والمآدب الفاخرة وتتلألأ بالأنوار المبهرة . ولطالما استقبلت شخصيات عالمية مرموقة من عظماء التاريخ ، ففى الصالون لوحة رائعة تمثل نابليون بونابارت جالسا فى إحدى غرف البيت مرتديا عباءة وواضعا على رأسه عمامة ضخمة تشبه تلك التى على رأس مضيفه الجالس بجواره فى الصورة .

أما الآن ، فلم تعد الڤيلاّ تضم سوى الدكتور عبد الرحيم الذى انتقل اليها منذ بضع سنوات بعد أن كان يعيش فى شقة بمنطقة سيدى بشر هو وزوجته وابنته الوحيدة عندما اكتشف أنه قد أصبح الوارث الوحيد لعائلة البردويلى . كانت هذه الڤيلاّ هى كل ماتبقى من أملاك تلك العائلة ، وتحتوى على عشر غرف عدا ثلاث أخرى للخدم الذين لم يعد لهم الآن

وجود فى الفيلّا ، تلتف حولها حديقة واسعة بها نخيل وأعناب وبرتقال ويوسفى ورمان وموز وجوافة ومانجو وورد وفل وياسمين وغيرها .

كان يحلو له الجلوس تحت شجرة برتقال يحتسى قهوة الصباح التى يصنعها بنفسه ، ويأكل بعض الثمار التى تمتلىء بها الحديقة . وبعد تناول القهوة والفاكهة وبيضتين مقليتين ، اعتاد أن يصعد السلم الرخامى الخارجى ، ثم السلم الخشبى الداخلى المؤدى إلى الدور العلوى ويدخل غرفة فسيحة يسميها «الصومعة» جميع جدرانها متوارية خلف صفوف من الكتب ، وبها مكتب أنيق ذو طراز فريد لامثيل له .

منذ إحالته إلى التقاعد ، بعد أن كان رئيسا لقسم التاريخ بالجامعة ، لم يكن يمر يوم دون أن يجلس فى هذه الغرفة يقرأ كتب التاريخ ويؤلف كتبا جديدة ويدوّن ذكرياته متضمنة جميع الأحداث التى مرت به .

كان شديد الحنين لبيته ، اذا خرج منه لأمر من الأمور فسرعان مايعود إليه وفى أعماقه شوق كشوق السمكة إلى الماء ، معتزا بحديقته يتولى بنفسه أمر فلاحتها والعناية بها ، ولذا فلقد شعر بالألم عندما لاحظ ذبول إحدى أشجار الموز . هُرِعَ إلى صديق يلتمس منه المشورة ، فقال له صديقه إنه سيرسل إليه بستانياً خبيراً بزراعة الموز لمعرفة سبب هذه الكارثة . قال البستانى بعد أن فحص الشجرة والتربة :

ـ يبدو أن لعنةً حلّت على هذه الحديقة !

قال عبد الرحيم بدهشة وفزع :

ـ لعنة ؟ ! أنا لم أرتكب ذنبا فلماذا تحل اللعنة على حديقتى ؟

ـ لست أدرى .

ـ وما العمل ؟

ـ عندما يصيبنا ما لا يدَ لنا فيه ولاقدرة لنا على منعه فإننا نسلم أمرنا لله .

ــ هل معنى هذا أن جميع أشجار الحديقة سوف تذبل ؟

ــ يخيل إليّ ذلك .

فى خلال أقل من شهر تحولت الحديقة إلى خرابة وأصبحت الأشجار كأوتاد جرداء لاتحمل أية ورقة خضراء . بعد فترة قصيرة تكيف الرجل مع هذا الوضع الجديد ورضى بالأمر الواقع وأصبح يجلس فى هذه الخرابة بالقرب من جذع شجرة البرتقال الميتة يحتسى فنجان قهوة الصباح ثم يلوذ بغرفة المكتبة حيث ينغمس فى القراءة والكتابة ليذيب فيها أحزانه ، ومن آن لآخر كانت تطفر من عينه دمعة .

كان من عادته عندما ينتهى من الكتابة والقراءة فى المساء ، الجلوس فى الشرفة الملحقة بغرفة المكتب ناظرا إلى المنار القائم بالقرب من شاطىء البحر ملاحظا ومضات الضوء التى تنطلق منه ولايمل النظر إلى هذه الأشعة التى تلمع فى الظلام وكثيرا ما كان يكتشف أنه ظل ناظرا اليها أكثر من ثلاث ساعات متوالية دون أن يدرك مرور الزمن . ذات مساء ، بعد أن انتهى من القراءة والكتابة جلس فى الشرفة ناظرا إلى المنار منتظرا ومضات الضوء ولكنها لم تومض .

ماذا حدث ؟ هذه أول مرة ألاحظ فيها انطفاء هذا الضوء . كيف تهتدى السفن إلى الميناء بدونه ؟ هل ستظل تائهة تجوب البحار السبعة منتظرة تلك الإشارة الضوئية ؟

فى صباح اليوم التالى تناول فنجان القهوة فى الخرابة التى كانت حديقة .

شعر باكتئاب ففكر فى الخروج من البيت والجولان فى الشوارع فى محاولة لتخفيف حدة ذلك الاكتئاب ، ولكنه ازداد حزنا عندما رأى البيوت تحيط بها حدائق جميلة .

لماذا تختفى حديقتى وتزدهر حدائق الآخرين ؟ لقد عهدت الخصوبة فى تربة حديقتى فماذا جرى لها ؟ لماذا اختفت منها الثمار والأشجار التى ظلت مزدهرة على مدى أجيال عديدة ؟

عاد إلى البيت على غير اشتياق فلقد خبا حنينه القديم اليه . فتح باب الحديقة واجتاز الخرابة بخطى بطيئة وكأنه يحمل على كتفيه هرما من الأحزان واتجه نحو غرفة نومه . خلع ملابسه واستلقى على الفراش ، لم يشعر بالراحة ولكنه شعر بالجوع ، ففكر فى أن يقلى بيضتين ، ولكنه لم يجد بيضا فى الثلاجة فهبط السلم وذهب إلى الجهة الخلفية ليحضر بيضتين من حظيرة الدجاج . وقف مشدوها لايصدق عينيه عندما لم يجد للحظيرة أثرا !

لقد استوردتُ أجودَ أنواع الدجاج واعتنيت بتربيته فى هذه الحظيرة الفاخرة وكان حجم البيضة ضعف حجم أية بيضة من المطروح فى الأسواق ، هل من المعقول أن تُسرق الحظيرة بما فيها من بيض ودجاج ؟ شىء لم أر له مثيلا . لابد من ابلاغ البوليس .

ــ اللصوص سرقوا حظيرة دجاجى .

قال رجل البوليس بدهشة .

ــ سرقوا الحظيرة ؟ كيف ؟

ــ لست أدرى . ذهبت الآن لأحضر بيضتين فلم أجد شيئا ، لا الدجاج ولا البيض ولا الحظيرة .

قهقه رجل البوليس وقال بعد أن هدأت موجة الضحك التى اجتاحته :

ـ لم تجد لا الحظيرة ولا الدجاج ولا البيض ؟ واذا استطاع اللصوص سرقة الدجاج والبيض فكيف تمكن أولاد الأبالسة من سرقة الحظيرة ؟

وعاد يقهقه من جديد . قال عبد الرحيم :

ـ لست أدرى ، ولكن هذا هو الذى حدث .

تلاشت ثنيات الضحك من وجه رجل البوليس وقطّب حاجبيه ونظر إلى عبد الرحيم نظرة قاسية وقال بسخرية مريرة :

ـ وماذا تريد منى ؟ هل أطلق العساكر للبحث عن لصوص سرقوا حظيرة دجاج ؟

ـ أليست هذه مهمة رجال البوليس ؟

ـ لا ياسيدى ، ليس هذا اختصاص رجال البوليس ولا شأن لنا به ، إنه من احتصاص وزير التموين .

ذهب إلى وزارة التموين وبحث عن الموظف المختص بتلقى مثل هذه الشكاوى . قال للموظف :

ـ اكتشفت سرقة حظيرة دجاجى بكل مافيها من دجاج وبيض .

ضحك الموظف وقال :

ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ البحث عن السارق واحضار المسروقات .

ـ أنا أبحث لك عن مسروقاتك ؟ ولماذا لاتبحث عنها بنفسك ؟ هل هى مسروقاتى أو مسروقاتك ؟

ـ عندما شكوت للبوليس قيل لى إن الأمر من اختصاص وزارة التموين .

ـ ليس هذا من اختصاصنا .

ـ ومن المختص بمثل هذه الأشياء ؟

ـ لست أدرى .

ـ يبدو أنها ليست من اختصاص أحد ، ومادام الأمر كذلك فسأعود إلى بيتى .

استلقى على ظهره فى الفراش وحاصرته الأفكار .

ترى أين أنتِ الآن ياحظيرتى وأين أنت يادجاجى يامليح الصفات ياعريق السلالة ، يامن كنت تغنينى عن شراء اللحم وتقدم لى البيض الممتاز كل صباح ومساء ؟ ولكن لا داعىَ للحزن ، إذ ليس من المعقول أن أُنكد على نفسى بسبب حظيرة دجاج . من الممكن الاستغناء عن الدجاج والبيض كما استغنيت عن الحديقة . ملايين الناس يعيشون سعداء بلا دجاج أو بيض . يقولون إن البيض يَزيد نسبة الكولسترول فى الدم ، والكولسترول يسبب تصلب الشرايين . قد يكون اختفاء البيض مفيدا لصحتى ، من يدرى ؟ كنت أُحبه مسلوقا ومقليا . البيض المقلى ألذ طعام فى الدنيا ، سوف يستمتع به سارق الحظيرة ، ولكنه سيزيد الكولسترول فى دمه ، من الأفضل عدم تناول البيض بعد سن الستين . رب ضارة نافعة . لكننى كنت أُحبه .

فى هذه الاثناء كان ناظرا نحو سقف الغرفة متأملا النقوش الجميلة التى لم نعد نرى مثلها الآن فى أسقف المنازل الحديثة . شعر ببعض الانتعاش وهو يتأمل هذه الزخارف البارزة وكاد ينسى أحزانه ، ولكنه فزع عندما رأى بقعة كبيرة فى أعلى الجدار بالقرب من السقف تدل على وجود ماء متسرب إلى هذا المكان .

من أين نفذ هذا الماء ؟ إننى لم أره من قبل .

انتفض واقفا وهرول نحو الحمام الملاصق لغرفة النوم فوجد بقعة مماثلة فى الجدار الفاصل بين الاثنين .

لابد أن الماء نفذ من ثقب فى الماسورة التى فى الجدار ، وهذا يعنى ضرورة تركيب ماسورة جديدة ، وسوف يقتضى ذلك هدم هذا الجزء من الجدار وإعادة بنائه . مشكلة لم تكن فى الحسبان . ولكن لا داعىَ للحزن ، فهذه أشياء تحدث فى جميع البيوت . من الممكن نقل غرفة نومى إلى غرفة أخرى .

أخذ يجول فى أنحاء البيت باحثا عن غرفة أخرى تصلح للنوم . وقع اختياره على غرفة أنيقة مبطنة بالخشب الثمين لايوجد بها من الأثاث سوى منضده مستديرة مطعمة بالصدف عليها صندوق خشبى مطعم بالصدف بداخله شطرنج ، وعلى جانبى المنضدة كرسيان من الطراز نفسه .

غداً أضع هذه الأشياء فى غرفة أخرى وأنقل غرفة نومى هنا ، إنها أجمل من الغرفة التى أنام فيها . كانت تحبها زوجتى وتفضلها على جميع غرف البيت . طالما جلسنا فيها ولعبنا معا الشطرنج .

فى المساء جلس فى غرفة المكتبة وظل يقرأ نحو ساعتين ، ثم كتب نحو عشر صفحات من كتاب التاريخ الذى يواصل كتابته منذ نحو ثلاثة أعوام . بعد ذلك خرج إلى الشرفة وجلس على الكرسى الذى اعتاد الجلوس عليه فى ركن الشرفة ونظر نحو البحر وتعجب عندما رأى المنار مازال متوقفا عن العمل ، فقام وآوى إلى فراشه متجنبا النظر إلى بقعة الماء التى لاحظ عند دخوله الغرفة أنها اتسعت فأصبحت تشغل نحو ربع

مساحة الجدار . انتزع نفسه من التفكير فى بقعة الماء وحظيرة الدجاج وأطفأ النور ونام .

فى الصباح لاحظ أن بقعة الماء ازدادت مساحتها حتى أصبحت تشغل أكثر من نصف الجدار .

ينبغى الاسراع بنقل الأثاث إلى غرفة النوم الجديدة ، أبدأ بنقل السرير فهو أهم مافى الغرفة .

انتهى من فك أجزاء السرير ، فأخذ ما أمكنه حمله منها واتجه بها نحو الغرفة الجديدة ، ولكنه لم يجدها ، لقد اختفت الغرفة بأكملها من البيت . وقف مذهولا لايصدق عينيه . أخذ يعد غرف المترل فوجدها تنقص غرفة .

هذا شيء غيرمعقول . إذا كان من الممكن أن تسرق حظيرة دجاجى فكيف تختفى غرفة من غرف منزلى وتصبح وكأن لم تكن ؟ !

كانت الغرفة تقع فى ركن من أركان البيت فوق غرفة الصالون ، فوجد مكانها خاليا ولم يبق من جدرانها سوى الجدار الذى كان يفصلها عن الغرفة المجاوره وبدت غرفة الصالون ولاشيء فوقها . فكر فى الذهاب إلى البوليس للإبلاغ عن اختفاء تلك الغرفة .

ماذا أقول للبوليس ؟ هل أقول إن اللصوص سرقوا غرفتى بأثاثها وجدرانها وأصبح مكانها خاليا ؟ لن يصدقنى أحد سيعتقدون أننى فقدت عقلى . هل أطلب منهم الحضور لمعاينة البيت للتأكد من صدق ما أقول ؟ ولكن هل أنجح فى إقناعهم بأن البيت لم يكن بهذا الشكل منذ البداية ؟ من الأفضل الصمت إذ لافائدة من الشكوى .

شعر بحزن يملأ صدره كبخار مضغوط لايخرجه سوى البكاء ، فوجد نفسه يبكى ، وأرجأ التفكير فى غرفة النوم إلى الغد .

عندما انتهى من القراءة والكتابة فى هذا المساء الحزين ، جلس كعادته فى شرفة غرفة المكتبة ، وعلى الرغم من عدم وجود أى أثر لضوء المنار فلقد ظل ناظرا اليه متوقعا استئناف إشعاعه فى أية لحظة ، ولكنه ظل بلا ضوء . قام وأحضر منظارا تلسكوبيا وأخذ يفحص المنار فاكتشف وجود ضوء خافت لايكاد يُرى لأنه محجوب بطلاء أصفر .

ما الحكمة فى ذلك ؟ لماذا يحجبون الضوء ؟ واذا كانوا يحجبون الضوء فلماذا لم يطفئوا المصباح ؟ ماهذه الأشياء التى تحيرنى ؟

بعد نوم ملىء بالكوابيس المفزعة صحا فى اليوم التالى مرعوبا عندما شعر بالماء يسقط فوق رأسه مندفعا من جدار غرفة نومه ، فأسرع إلى مخزن بالبدروم وأحضر بعض الأسمنت وأقفل الثقب المتدفّق منه الماء وقرر نقل

أثاث الغرفة على الفور إلى أى مكان آخر . فى أثناء بحثه عن غرفة مناسبة ينتقل إليها لاحظ اختفاء غرفة الصالون الواقعة تحت الغرفة التى اختفت بالأمس ، فأصبح مكانها خاليا . شعر بضغط الدم داخل رأسه .

كيف اختفت تلك الغرفة هى الأخرى ؟ من غير المعقول أن تكون عمليتا الهدم والإزالة قد تمتا فى أثناء نومى . سأفتقد الصور الثمينة التى كانت تزيّن جدرانها ، وعلى الأخص صورتىْ المرحومتين العزيزتين زوجتى وابنتى . كنت أحب رؤية صورتيهما كل يوم فأشعر وكأنهما معى فى البيت . سيزداد شعورى بالوحدة والحزن .

حان موعد تناول قهوته ، فذهب إلى المطبخ لعمل فنجان الصباح ،

ولكنه لم يستطع عمل فنجان القهوة لأنه لم يجد المطبخ ووجد فى مكانه عددا هائلا من الفئران الضخمة ، ماكاد يقترب منها حتى أسرعت بالاختفاء فى جحر مظلم وتوارت فى الظلام .

كله الآ هذا ، إذا أمكننى الاستغناء عن الغرفتين المختفيتين فكيف استغنى عن المطبخ ؟ أين أطهو طعامى واعمل فنجان قهوتى ؟ ماهذه الفئران التى غزت البيت ولم يكن لى عهد بها من قبل ؟ إن خوفى من الفئران أشد من خوفى من الشيطان . لو رأيت فأرا منها فى غرفة نومى فلن يغمض لى جفن ، وعلاوة على ذلك فهى جيوانات خطيرة ، انها تنقل الطاعون . لم أعد أشعر بمزيد من الحزن فلقد فاض به قلبى ولم يعد به مكان لحزن جديد .

تذكر قصة كانت قد حكتها له زوجته :

«ذهب رجل إلى أحد المنجمين ليقرأ الطالع ، وبعد أن فحص كفه قال : سيكون النصف الأول من حياتك محزنا للغاية ، فقال الرجل بلهفة : والنصف الثانى ؟ قالم المنجم : ستكون قد ألفت الحزن وتكيفت معه» .

وقع اختياره على غرفة أخرى للنوم . أتم نقل الأثاث وفرش السرير . شعر بتعب فى العمود الفقرى بسبب المجهود العنيف الذى بذله فى نقل أثاث الغرفة بمفرده فاستلقى على السرير ليريح ظهره . تذكر أنه نسى صورة على جدار غرفة النوم التى تركها ، فنهض وذهب لاحضارها لتعليقها على جدار الغرفة التى انتقل اليها ، ولكنه عندما وصل إلى مكان الغرفة التى انتقل منها لم يجد لها اثرا ، لقد اختفت هى والحمام المجاور لها . عاد إلى غرفة النوم الجديدة وقد بدت خافتة الضوء وهى مقفولة

النافذة ومسدلة الستائر . جلس على الكرسى الوحيد الذى بالغرفة يفكر فى هذه الأحداث العجيبة . قطع سلسلة أفكاره شىء لفت نظره . على جدار الغرفة . رأى سرباً من الحشرات متجها من خلف السرير نحو سقف الغرفة . اقترب منها يفحصها بعينيه ، وعندما عرفها أسرعت دقات قلبه هلعا .

إننى أعرفها . إنها تلك الحشرات المدمّرة التى يسمونها «النمل الأبيض» قرأت عنها فى إحدى المجلات . إنها تتغذى على الأخشاب وفى مقدورها أن تلتهم فى ليلة واحدة أثاث غرفة بأكملها ، فهل تكون هى المسئولة عن اختفاء الحجرات ؟ لا ، هذا مستحيل إذ إنها لو التهمت الأخشاب فلن تستطيع التهام الجدران فهى لاتتغذى على الأحجار من أين جاءت هذه الحشرات اللعينة ؟

زحف تحت السرير ليرى مصدرها فوجد ثقبا فى خشب الغرفة جنب الجدار تنساب منه هذه الحشرات وكأنها نافورة ، ثم رأى منظرا عجيبا . وجدها تطير وتملأ الغرفة ، وبعد فترة وجيزة أخذت تفقد أجنحتها وتتساقط حتى ماتت عن آخرها ولم يعد لها اثر فى الغرفة .

أحمد الله على زوال تلك الحشرات الكريهه . ولكن من يدرينى ؟ ربما يكون هناك الآف غيرها مازالت قابعة فى السرداب الذى خرجت منه . اعتقد أن موتها هذا خدعة لكى أتهاون فى القضاء عليها فى أوكارها لتعود للظهور فى أى وقت تشاء وتعيث فسادا فى البيت . تكون كارثة لايمكننى احتمالها لو وصلت إلى غرفة المكتبة فهى أهم وأعز غرفة لدىَّ . لايمكننى الاستغناء عنها أو تعويضها .

كانت أكبر صدمة تلقاها منذ بدأت هذه الأحداث ، عندما ذهب فى صباح اليوم التالى كالمعتاد للقراءة والكتابة فلم يجد غرفة المكتب . شعر بدوار فأسرع إلى غرفة النوم واستلقى على الفراش ، أحس بضيق فى التنفس فقام وفتح نافذة الغرفة لتجديد الهواء وعاد إلى الفراش . بعد فترة بدأ تنفسه يعود إلى حالته الطبيعية . حانت منه التفاتة نحو النافذة فرأى شيئا لم يره من قبل . على بعد بضعة أمتار من البيت كان يوجد كوخ يعيش فيه رجل غامض مجهول الهُوِيَّة . منذ أيام قلائل كان الكوخ فى هذا المكان كما اعتاد أن يراه منذ أعوام ، جدرانه من الصفيح وأمامه معزة عجفاء مربوطة بحبل فى وتد . ولكنه عندما نظر الآن وجد الكوخ قد اختفى وحل محله مبنى من طابقين.

قام وأحضر المنظار التلسكوبى ونظر من خلاله إلى ذلك المبنى الجديد فوجد أحجار البناء والنوافذ صورة طبق الأصل من أحجار ونوافذ منزله . كانت جميع النوافذ مفتوحة ، صوَّب نحوها منظاره . من خلال إحداها رأى غرفة مكتبه التى اختفت . المكتب الذى فيها هو مكتبه والمصباح الذى فوقه مصباحه ، فهما من طراز فريد لايتكرر كما رأى خزائن الكتب تبطن جدران الغرفة ، ولكن الكتب اختفت وحل محلها علب من الصفيح كبيرة الحجم وأكياس صغيرة لايدرى ما بداخلها ، وعدد كبير من الأحذية مرصوصة بجوار بعضها ، وأشياء أخرى لايعرف كنهها إذ لم يستطع كشف ملامحها ، ثم رأى عملاقا طويلا عريضا دخل تلك الغرفة وأخذ حذاءً من خزانة الكتب . إنه الرجل نفسه الذى طالما رآه منذ أيام يدخل الكوخ ويخرج منه ويقدم الطعام لمعزته .

أخيرا وجدته ، ها هو ذا اللص الذى سرق غرف منزلى وسرق مكتبتى

التى حولها إلى مخزن للأحذية والعلب الصفيح . ولكن ماذا أفعل ؟ كيف استرد حجرات منزلى ؟ أنا لم يعد يهمنى سوى كتبى وغرفة المكتبة . اين ذهبت الكتب التى لا أرى لها اثرا ؟

صمم على الذهاب إلى ذلك الرجل والتفاهم معه . لاحظ وهو يضغط على زر جرس الباب وجود حظيرة دجاج بالقرب من المنزل تشبه حظيرته المختفيه تمام الشبه.فتح الباب خادم يرتدى زيا مزينا بزخارف ذهبية اللون . قال له الدكتور عبد الرحيم :

ـ أريد مقابلة ساكن هذا البيت .
ـ وماذا تريد منه ؟
ـ مسألة خاصة أود الاستفسار عنها .
ـ تفضل .

دخل وكأنه يدخل منزله بجميع تفاصيله المعمارية . قاده الخادم إلى غرفة فاخرة اكتشف عبد الرحيم أنها غرفة صالونه التى اختفت . لاحظ وجود صورتى زوجته وابنته معلقتين على الحائط . قام وأخذ الصورتين ووضعهما تحت إبطه وجلس . طال انتظاره لساكن المنزل فقام وأطل من باب غرفة الجلوس فرأى بابا مفتوحا . مد بصره داخل هذه الغرفة فوجدها غرفة مكتبته كما رآها من خلال المنظار رأى صاحب البيت قادما فأسرع بالجلوس فى المكان الذى كان جالساً فيه . دخل ساكن البيت بقامته الفارهه وعضلاته الشبيهة بعضلات أبطال كمال الأجسام مرتديا قميصا ابيض بدون رباط عنق وسروالا ذا حزام عريض منخفض يكاد يكون فوق العانة . وقف عبد الرحيم ومد يده ليصافحه ولكن ساكن المنزل لم يمد له يده وجلس على كرسى مقابل ، فجلس عبد الرحيم وسادت فترة صمت .

إنه هو الشخص نفسه الذى كان يسكن الكوخ ويطعم معزته . كنت أراه دائما ممزق الثياب قذر الوجه شَعِثَ الشعر نحيل الجسم مصفر اللون ، ما الذى غيّره هكذا ؟

أخيرا نظر ساكن البيت إلى الأستاذ عبد الرحيم وقال :

ــ خيرا ، علمت أنك حضرت للاستفسار عن مسألة خاصة ، ماهى ياترى هذه المسألة الخاصة ؟

أطرق الدكتور عبد الرحيم فترة قصيرة مفكرا فيما ينبغى أن يبدأ به حديثه ثم قال :

ــ من أين حصلت على هذه الغرفة التى نحن جالسون فيها ؟

نظر اليه ساكن البيت نظرة استنكار واحتقار ثم قال :

ــ تتهجم علىَّ فى بيتى وتزعجنى وتقلق راحتى لتسألنى من أين حصلتُ على هذه الغرفة ؟ وما شأنك أنت بذلك ؟ هل حضرت للتحقيق معى ؟ وماهذا الذى تحت إبطك ؟

ــ إنهما صورتا زوجتى وابنتى ، وهذا يثبت أن الغرفة غرفتى .

ــ بل يثبت أنك لص فاجر . سمحتُ لك بدخول بيتى ، وفى دقائق قليلة استوليتَ على بعض الصور التى أزيّن بها جدران الصالون ووضعتها تحت إبطك .

ــ هل من المعقول أن تزين غرفة صالونك بصورتىْ زوجتى وابنتى ؟ إن هذه الغرفة بكل مافيها غرفتى ، والإنسان يعلق فى منزله صورة زوجته وابنته هو لا صورة زوجات وبنات الآخرين .

ــ ألم يخطر ببالك أننى ربما أكون قد اشتريت الصورتين من مزاد علنى ؟

ـ هاتان الصورتان كانتا فى بيتى منذ يومين ولم يعرضا فى أى مزاد علنى أو غير علنى . هل اشتريت هذا الأثاث أيضا من مزاد علنى ؟ .

ـ لا بل اشتريته جديدا من أحد متاجر الأثاث الكبرى .

ـ إنه أثاث غرفتى ، وها هى ذى بقعة حبر كانت على هذا الكرسى . كما لاحظت وجود غرفة مكتبى التى اختفت . إن باقى الغرف والحمام والمطبخ التى اختفت من بيتى قد انتقلت هى أيضا إلى بيتك ، فهل تسمح لى برؤية هذه الأشياء ؟ لا أطلب منك سوى مجرد رؤيتها .

نظر إليه ساكن البيت نظره فيها قسوة وتحد وقال :

ـ هل تريد ان تراها ؟

ـ أجل .

هيا معى .

قاده ساكن البيت إلى غرفة المكتبة ، ثم إلى باقى الغرف التى اختفت ثم إلى المطبخ والحمام ، فتأكد عبد الرحيم من أنها غرف ومرافق منزله .

قال لساكن البيت :

إنها غرف منزلى ، ولقد رأيت أيضا حظيرة دجاجى بجوار منزلك .

ـ قال ساكن البيت بسخرية :

ـ ألا تريد رؤية حظيرة الدجاج أيضا ؟

ـ أريد أن أراها فلقد اشتقت إليها .

ـ هيا معى .

خرجا من البيت ، وفى مثل لمح البصر اختطف ساكن البيت الصورتين من تحت إبط عبد الرحيم ، ونفخ فى صفارة كانت فى يده فتجمع فجأة من

أماكن مختلفة عددٌ من الكلاب الضخمة الشرسة ، واتجهت تعدو نحو عبد الرحيم نابحة نباحا مرعبا فجرى بأقصى سرعته عائدا إلى بيته وسمع ساكن البيت يقهقه بصوت يشبه صوت المارد الذى ينطلق من القمقم فى بعض قصص «الف ليلة وليلة» .

عندما دخل من باب الخرابة التى كانت حديقة وجد فى انتظاره مفاجأة أخرى مروعة كادت تطيح بعقله . لقد اختفى بيته ولم يبق منه سوى غرفة نومه التى أصبحت فوق ارض الخرابة بعد أن كانت فى الدور العلوى .

استلقى على السرير فى تلك الغرفة التى لم يبق له سواها ونظر من نافذتها فرأى المبنى الذى حلِ محل الكوخ قد أصبح وكأنه نسخة من بيته الذى كان ! انتفض واقفا وفكّر فى الذهاب إلى ذلك البيت عسى أن يسمح له صاحبه أن يمنحه غرفة فيه . سار بضع خطوات متجها إليه فرأى الكلاب تنطلق نحوه نابحة ، فهرول مسرعا عائدا إلى غرفة نومه وهو يلهث من فرط الاعياء .

هاله أن رأى تلك الغرفة انكمش حجمها إلى نحو نصف الحجم الأصلى.فتح بابها فوجد جميع محتوياتها قد اختفت فيها عدا سرير ضيق . شعر بضغط شديد على جسده من جميع الجهات ، وظل الضغط يزداد باطراد .

فى الصباح صحا من نومه فلم يجد السرير ووجد نفسه واقفا فى ظلام تام بين أربعة جدران فى حيز لايتسع الا لجسده والسقف يلمس رأسه . لم

يشعر بأية دهشة أو أى حزن ، ولم يدرك ما إذا كان بالليل أم بالنهار وحدَّث نفسه قائلا :

ــ شيء عجيب ، هل أصبحوا يدفنون الموتى وهم واقفون ؟ !

عام ١٩٨٤

Galalgalal

جراحة عاجلة

كانت الأضواء القوية مسلّطة على المريضة الموضوعة فوق الطاولة وبجوارها الجراح ومساعدان وطبيب التخدير وممرضة وقد ارتدى الجميع المعاطف ناصعة البياض ولايبدو من وجوههم سوى عيونهم التى يطل منها القلق .

انتهى طبيب التخدير من حقن المريضة بالمخدر ، وبعد أن تأكد الجراح من أن المخدر تأثر به المخ وغابت المريضة عن وعيها تناول المشرط من الممرضه استعداداً لفتح البطن ولكنه توقف ، إذ تذكر أنه حتى هذه اللحظة لايعرف سبب إجراء العملية . ظل يعصر ذهنه .

هذا غير معقول . كيف أبدأ اجراء عملية لمريضة لا أعرف مرضها ؟ شىء لم يحدث لى طوال حياتى وأعتقد أنه لم يحدث لأى طبيب آخر فى جميع أنحاء العالم . ماذا أفعل الآن ؟

شاعرا بشىء من الخجل ، همس لطبيب التخدير قائلا :

ـ ألديك فكرة عن المرض الذى تعانى منه المريضة ؟

بدت عينا طبيب التخدير مبتسمتين وقال :

ــ ليست مهمتى معرفة المرض ، من المفروض أنها مهمتك أنت ومساعديك . إن دورى لايتعدى التخدير .

قال الجراح وعيناه تتأرجحان بين المساعدين :

ــ هل يعرف أحد منكما سبب اجراء هذه العملية ؟

لم يسمع إجابة ، ولكنه سمع ضحكات خافتة تخترق اللثام المثبت باحكام أمام أنف وفم كل منهما . سلم المشرط للممرضة واتجه مسرعاً نحو التليفون الموضوع فى أحد أركان الغرفة وأدار رقما وانتظر برهة ثم سمعه من فى الحجرة يقول :

ــ لم يخبرنى أحد عن المرض الذى تشكو منه المريضة . . لا أحد منهم يعلم . . الممرضة ؟ لم يخطر على بالى أن أسأل الممرضة فليست هذه مهمتها . . حسن ، أنا منتظر .

فى هذه الأثناء حانت منه التفاتة إلى طاولة العمليات فوجد الممرضة والأطباء الثلاثة يتبادلون الحديث والضحكات الخافتة .

لماذا يضحكون ؟ ! أهذا موقف يدعو للضحك أم الألم ؟ لماذا لايتحركون ؟ لماذا لايهتمون ؟ .

طال انتظار الجراح وهو ممسك بسماعة التليفون . خيل إليه أن رأس المريضة تحرك فشعر برعب شديد .

تكون كارثة لو تلاشى تأثير المخدر قبل إجراء العملية . ماذا أفعل لو حدث ذلك ؟ فى هذه الحالة ينبغى أن يسرع طبيب التخدير بحقن المريضة بالمخدر مرة أخرى . ولكن هل يقبل الطبيب تخدير المريضة مرتين قبل اجراء العملية ؟ ربما .

وضع سماعة التليفون فى مكانها وأسرع نحو طبيب التخدير وسأله :

ــ خيل إلى أن رأس المريضة تحرك .

قال طبيب التخدير بفزع :

ــ رأس المريضة تحرك ؟ لم ألاحظ ذلك .

ــ زيادة فى التأكيد ، ألا ينبغى تخدير المريضة مرة أخرى .

ــ ولكنها مازالت تحت تأثير المخدر .

ــ قد ينتهى ذلك التأثير فى أية لحظة .

ــ عندما ينتهى نفكر فى اعادة التخدير .

بغتة ، وجدوا المريضة تجلس فوق المنضدة مادة ساقيها وتنفجر باكية . أذهلت المفاجأة كل من بالغرفة ، وصاح الجراح وقد فقد السيطرة على أعصابه موجها حديثه لطبيب التخدير :

ــ ماذا تنتظر ؟ أسرع بتخدير المريضة .

ربتت الممرضة على ظهر المريضة قائلة :

ــ لماذا تبكين يا أماه ؟

قالت المريضة وهى تمسح دموعها بيدها :

ــ رأيت حلما روّعنى .

استبد حب الاستطلاع بالممرضة فقالت :

ــ ماذا رأيت ؟

أرهف الجميع السمع للمريضة وهى تقول :

ــ رأيت الكلاب .

صاح الجراح قائلا للممرضة :

ــ ماذا تنتظرين ؟
قالت الممرضة بفزع :
ــ أنتظر ماذا ؟
ــ أسرعى باحضار كتاب تفسير الأحلام .
قالت الممرضة بدهشة :
ــ كتاب تفسير الأحلام ؟ أين أجده ؟
ــ أسألى عنه فى المكتبات .
قال أحد المساعدين بصبر نافد :
ــ ألا يستحسن إرجاء ذلك إلى مابعد إجراء العملية ؟
قال الجراح بهدوء :
ــ أريد الاطمئنان على نتيجة العملية . هذا الحلم قد يلقى ضوءا على ذلك .

انطلقت الممرضة تعدو لتنفيذ ما طلبه الجراح ، وظل طبيب التخدير يربت على ظهر المريضة حتى هدأ نحيبها ، ثم أمسك بها برفق وأعادها إلى الوضع الذى كانت عليه وبدت محملقة إلى الضوء المنبعث من المصباح المثبت فى سقف الغرفة قائلة بصوت ضعيف :

ــ أيها المصباح ، أنقذنى من الكلاب .

أعاد الطبيب تحضير حقنة المخدر وغرسها فى وريد المريضة التى لم يصدر منها مايدل على شعورها بوخزتها ، ومالبثت أن اغمضت عينيها وغابت عن الوعى . تذكر الجراح أنه لم يتلق ردا على تساؤله فى التليفون فأسرع وطلب الشخص الذى كان يتحدث معه . سمع همهمة خافتة فقال :
ــ آلو .

لم يسمع ردا بل تحولت الهمهمة إلى ضحكات خافتة فصرخ قائلا :

ـ آلو . لقد انتظرت طويلا ولم يخبرنى أحد عن المرض الذى تعانى منه المريضة التى سأجرى لها العملية . . إنها معى هنا فى غرفة العمليات . . وأفاقت واضطررنا لاعطائها حقنة مخدر أخرى .

ارتفع صوت الضحكات ولم يسمع أية اجابة فوضع السماعة بعنف فى مكانها فوق آلة التليفون وأسرع نحو المريضة . اندفعت الممرضة داخل الغرفة وهى تلهث وفى يدها كتاب تفسير الأحلام الذى ناولته للطبيب قائلة بصوت متقطع :

ـ وجدته . . بعد عناء . . شديد .

اختطف الطبيب الكتاب وأخذ يتصفحه بعصبية وقد فقد القدرة على التركيز ثم القى الكتاب على الأرض قائلا بغضب :

ـ لم يذكر الكتاب شيئا عن الكلاب .

وقف شارد الذهن وقد بدا عليه التفكير العميق وقال :

ـ لست أدرى كيف أجرى جراحة دون معرفة المرض .

قال أحد المساعدين :

ـ الطريقة الحديثة فى الجراحة هى البحث عن المرض فى أثناء اجراء العملية ، نفتح ونرى .

تناول الجراح المشرط من الممرضة وفتح بطن المريضة فتحة تمتد من أسفل الصدر حتى العانة وأخذ يبحث عن المرض . قال :

ـ جميع الأعضاء تبدو سليمة ، أين المرض اذن ؟

قال أحد المساعدين :

ـ قد يكون فى الصدر .

أخذ الجراح يشق الصدر ويكسر الضلوع وبدأ يفحص الرئتين .

صاح أحد المساعدين قائلا للجراح :

ـ أنت لم تحسن فحص الأمعاء . ألم تلاحظ الأورام العديدة التى فى القولون الصاعد ؟

ارتبك الجراح . ترك الصدر وأعاد فحص الأمعاء فرأى الأورام واضحة فسيطر على أعصابه وأخذ يستأصل تلك الأورام واحدا بعد الآخر حتى أزالها ولم يبق أىُّ ورم . قال مخاطبا أحد المساعدين :

ـ ألم تلاحظ تضخم إحدى الكُليتين ؟

ـ الكليتان متضخمتان ، ولكن تضخم احداهما أكبر من تضخم الأخرى .

ـ ربما يكون التضخم بسبب وجود حصى . شقها لنرى سبب التضخم .

شق الجراح إحدى الكليتين فوجد بداخلها حصاة كبيرة ، أزالها ، ثم شق الكلية الأخرى فوجدها مليئة بالحصى . أتم تنظيفها ، وعندما تأكد من إزالة جميع الحصى أعاد الكليتين إلى ما كانتا عليه وشعر بارتياح ، ولكنه ما لبث أن إكتشف التهابا فى الزائدة الدودية فاستأصلها ، وكان على وشك خياطة الجرح وإنهاء العملية ، ولكنه لاحظ أن الحوصلة المرارية متضخمة ، فتحها فوجدها مليئة بالحصى فاستأصلها .

قال لمساعديه :

ـ اعتقد أننى أزلت أسباب جميع الأمراض التى تشكو منها هذه المريضة .

رد أحد المساعدين قائلا :

ـ يخيل إلىَّ ذلك .

بدأ الجراح فى اعداد الإبرة والخيط اللازم لخياطة الجرح ، قال :
ـ جراحة متعبة ولكنها نظيفة وسوف تستعيد المريضة كامل صحتها .

بدا الارتياح على جميع الوجوه وظل أحد المساعدين ناظرا إلى الإناء المليء بالدم الذى يمد المريضة بما يعوضها عن الكمية التى نزفت بسبب الجرح متابعا فى الوقت ذاته حركات الكيس المطاط الذى ينبض مع الشهيق والزفير . وبينما يغرس الجراح الإبرة استعدادا لعمل أول غرزة لخياطة الغشاء البريتونى انتفض كل من بالغرفة عندما فوجئوا بثلاثة كلاب عتاة يقتحمون الغرفة . صرخت الممرضة واهتزت يد الجراح وصاح قائلا : وماذا أفعل الآن لايمكننى استئصال الكليتين .

ـ ماهذا ؟ هل وصل الاستهتار وسادت الفوضى إلى هذا الحد ؟ من أين أتت هذه الكلاب ؟ وكيف يتركونها تقتحم غرفة العمليات ؟

اتجهت نظرات الفزع نحو الكلاب الضخمة التى وقفت متجاورة تلهث متحفزة بأنيابها الحادة وأفواهها الفاغرة وألسنتها المدلاة التى يسيل منها لعاب لزج فى حين أن عيون الكلاب كانت مصوبة نحو جسد المريضة التى لاتدرك شيئا مما يدور حولها .

بيدين مرتعشتين حاول الجراح الإسراع بخياطة الجرح . صدر من المريضة أنين خافت جعل طبيب التخدير يسرع بتحضير حقنة جديدة لاحتمال انتهاء مفعول المخدر . ما كاد الجراح يعمل ثلاث غرزات حتى فوجىء بأحد الكلاب ينقض على جسد المريضة وينتزع قلبها ويلوذ بركن الغرفة .

بحركة تكاد تكون لا إرادية ، أسرع الجراح محاولا اختطاف القلب من

بين فكى الكلب ولكن الكلب أخذ يزوم ويطلق أصواتا مرعبة فتراجع الجراح وقد تصبب وجهه عرقا . أغمى على الممرضة فانشغل أحد المساعدين بإفاقتها .

ما كاد الجراح يعود إلى جسد المريضة حتى صرخ الجميع عندما انقض كلب آخر على ذلك الجسد وانتزع إحدى الرئتين وأخذ يلتهمها .

أفاقت الممرضة من اغمائها عندما سمعت الصراخ . أسرع أحد المساعدين إلى الكلب الذى يلتهم الرئة وهُرع المساعد الثانى إلى الكلب الذى يلتهم القلب فى محاولة لانقاذ مايمكن انقاذه من هذه الأعضاء ، ولكن الكلب الثالث هجم على أحد المساعدين وطرحه أرضا وأنشب أظافره فى فخذه ، فصرخ الجميع وانشغل المساعد الثانى بتضميد جرح المساعد الاول .

هجم الكلب الثالث على جسد المريضة وانتزع احدى الكُليتين فأسرع الجراح إلى التليفون ليستنجد بالبوليس وأخذ يصيح صيحات هستيرية قائلا :

ـ آلو . . آلو . . يابوليس النجدة أسعفنا . . هجمت علينا الكلاب فى غرفة عمليات مستشفى الإسعاف .

لم يسمع الجراح أية استجابة لندائه ، ولكنه سمع همهمة تحولت إلى ضحكات وضوضاء غير واضحة الكلمات .

خُيّل لطبيب التخدير أنه سمع أنينا حزينا ينبعث من الجثة المسجاة فوق طاولة العمليات . وضع الجراح سماعة التليفون غاضبا واتجه نحو الجثة لايدرى ماذا يفعل .

كانت الكلاب قد انتهت من إلتهام الأجزاء التى انتزعوها من الجسد فاستداروا نحو الجثة . طفرت من عين الجراح دمعة جففتها الممرضة . هجم الكلاب الثلاثة على المريضة . انتزع أحدهم ذراعها اليمنى والتهمها فى مثل لمح البصر ، وانتزع الثانى أمعاءها وابتلعها فى حين أن الثالث قضم أحد ثدييها وازدرده ثم قضم الثدى الثانى والتهمه .

باس الجراح وجه المريضة وجلس جنب طاولة العمليات يبكى فبكت الممرضة وأخذت تجفف دموعها ودموع الجراح ، ثم بكى المساعدان وطبيب التخدير ، فأخذت الممرضة تجفف دموع الجميع .

من أماكن مجهولة انبعث فى الغرفة موسيقى حزينة . ذهل الجراح عندما رأى الدموع تسيل من عينى الجثة فأسرع أحد الكلاب وأخذ يلعق تلك الدموع ليروى ظمأه ، ثم قضم أنف الجثةوازدرده والتهم شفتيها فبدت أسنانها وكأنها أسنان جمجمة . تناول الجراح المقص وقص خصلة من شعرها ووضعها فى جيب معطفه ليحتفظ بها على سبيل التذكار .

دق جرس التليفون فاسرع الجراح للرد عليه . سمع صوتا يقول :

ـ ماذا حدث ؟ لماذا كل هذا التأخير ؟

اختنق الجراح بالبكاء فلم تخرج الكلمات من فمه ووضع السماعة وعاد إلى ماتبقى من المريضة فوجد الكلاب قد التهمت الكبد والساقين .

قال الجراح :

ـ لم تعد هناك فائدة من وجودنا هنا مع هذه الكلاب .

التف الجميع حول الجثة يبكون فيما عدا الطبيب الذى فتح باب الغرفة استعدادا لمغادرتها . فوجىء بوجود عدد هائل من البشر ، نساء ورجال

وشبان وصبية وأطفال أمام غرفة العمليات ناظرين إلى الجراح فى قلق وترقب .

لم يكن الجراح ينتظر وجود كل هذا العدد ولم يحدث من قبل أن رأت عيناه مثل هذا المشهد . سمع أصواتا تقول :

ـ طمئنا يادكتور ، هل نجحت العملية ؟ هل يوجد أمل ؟

تذكر الطبيب أنه مازال يرتدى اللثام ومازال يلبس القفاز . خلع اللثام وألقى به على الأرض ، ثم خلع القفاز والقى به جنب اللثام ونظر إلى الجماهير بعينين مبتلتين فرآهم من خلال دموعه وكأنهم أشباح ، ودون أن ينطق بأية كلمة سار مطأطىء الرأس يشق طريقه والعيون المتوسلة تحملق فيه من كل اتجاه .

عام ١٩٨٥

البحث عن حلم

على الجدران صور ملائكة وشياطين ونساء ورجال يطيرون فى الهواء ويسبحون فى الماء . تتناثر فى أنحاء الغرفة عدد من الحشايا يجلس عليها رجال ونساء وفتيات ينتظرون دورهم لدخول الغرفة المجاورة للقاء «شملاط» الذى اشتهر بقدرته على جعل أى شخص يرى فى منامه الحلم الذى يتمنى رؤيته . كان الجالسون خمسة : فتاة فى نحو العشرين ورجل فى نحو الخمسين وآخر فى نحو الستين وشاب فى الخامسة والثلاثين وآخر فى نحو الثلاثين ، هو سمير بسيونى .

دخل الجميع غرفة شملاط ، واحدا بعد الآخر ولم يبق سوى سمير الذى طال انتظاره ، وبعد خروج من كان مع شِمْلاط سمع سمير صوتا منبعثا من الغرفة المجاورة ، وكأنه قادم من أعماق الفضاء ، يستدعيه للدخول فدخل . طلب منه شملاط أن يغلق الباب فأغلقه .

كان شملاط متربعا على دكة مرتفعة مرتديا عباءة حمراء من الصوف وعلى رأسه عمامة خضراء ضخمة وتتدلى من عنقه مسبحة طويلة .

الغرفة تكاد تكون جرداء ، لايوجد بها سوى دكة شملاط أمامها حشية

بالقرب منها منضدة صغيرة منخفضة ، وفى وسط الحجرة موقد من الفخار يتصاعد منه بخور ذو رائحة غريبة نفاذة ولكنها زكية يرتاح لها الأنف . قال شملاط :

ـ ضع عشرة قروش على المنضدة .

وضع سمير المبلغ المطلوب . قال شملاط :

ـ ماهو الحلم الذى تود رؤيته فى منامك الليلة ؟

ـ أريد أن أرى والدى .

قال شملاط بدهشة :

ـ تريد رؤية أبيك فى المنام ؟ شيء عجيب .

ـ وماوجه العجب فى ذلك ؟

ـ أنت أول شخص يطلب منى هذا الطلب . فمعظم الذين أراهم هنا يطلبون احلاما أخرى ، منهم من يطلب أن يرى نفسه فى المنام يأكل بضع تفاحات أو قطعة لحم ، ومنهم من يتمنى أن يضاجع زوجته فى المنام .

قال سمير متعجبا :

ـ يتمنى مضاجعة زوجته فى المنام ؟

ـ اجل ، زوجته التى عقد قرانه عليها منذ أكثر من عشرة أعوام .

ـ ولماذا لايضاجعها فى اليقظة ؟

ـ لاتتاح له فرصة مضاجعتها فى اليقظة لعدم تمكنه من الحصول على شقة تؤويهما ، وفتيات يردن أن يحلمن أنهن بين أحضان شاب وسيم ، وغيرها من الطلبات . ولكن لماذا تريد رؤية والدك فى الحلم ؟

ـ كنت فى الخارج فى بعثة دراسية ، وبعد ثلاثة أعوام من الغربة والحصول على الدرجة العلمية ، وصلتنى برقية تفيد بأنه مريض وحالته

خطره ، فأسرعتُ بالعودة لرؤيته ، ولكن لسوء حظى علمت أنه توفى قبل مجيئى بيوم واحد فلم أستطع رؤيته ، ولذا أود أن أراه فى المنام .

أطرق شملاط إلى الأرض فترة من الزمن يغمغم بكلام غير مفهوم ثم نظر إلى سمير وقال :

ــ هل معك صورة لوالدك ؟

ــ أجل .

ــ أخرج الصورة .

أخرج سمير الصورة من محفظته وهمَّ باعطائها لشملاط ولكنه لم يمد يده ليأخذها وقال :

ــ اجلس صامتا ناظرا إلى صورة أبيك وركز التفكير فيه محاولا تذكر آخر مرة رأيته فيها وآخر كلمات سمعتها منه .

حافظ على نفسك ياسمير . لاتنس شراء ملابس كافية للوقاية من البرد يجب أن تتغذى جيدا فالبرد مع الجوع فى منتهى الخطورة .

ماتت اميلى برونتى وجميع أخواتها بالسل . كيتس الشاعر الرقيق مات بالسل . سمرست موم مرض بالسل وقضى فترة فى احدى المصحات . فى الولايات المتحدة يمرض شخص بالسل كل سبع دقائق . البرد موجود أيضا فى مصر . كانت أسنانى تصطك من البرد وأنا ذاهب إلى المدرسة فى الطريق الزراعى فى الشتاء . انهم يموتون هنا أيضا بالسل .

لاتنس لبس الملابس الصوف ولاتستهن بالبرد . احترس من الفتيات واهتم بدراستك .

أخرجه من الاسترسال فى أفكاره صوت شملاط يقول :

ـ هل انتهيت من التركيز والتذكّر؟
ـ أجل .
قام شملاط ووضع يده على رأس سمير متمتما بكلمات غامضة ثم قال :
ـ قم وسترى والدك الليلة فى الحلم . حاول أن تكون نائما قبل منتصف الليل ولاتستخدم الحبوب المنومة .

الليلة الأولى

شعر سمير برغبة فى النوم عقب الغداء ولكنه قاومه حتى لايتأخر فى النوم عن الموعد المحدد . فى نحو الحادية عشرة بحث عن كتاب تساعد قراءته على النوم ووقع اختياره على كتاب تفسير الأحلام لفرويد .

أضاء الأباجورة التى على الكُمُدينو جنب السرير وأخذ يقرأ بعض صفحات الكتاب الضخم متهيئا للنوم . بعد فترة وجيزة رأى نفسه فى حفل بمنزل لم تسبق له رؤيته . الحفل فى بهو واسع به فرقة موسيقية تعزف موسيقى روميو وجوليت لتشايكوفسكى ، يموج المكان بالرجال والنساء والشبان والفتيات ، لايدرى مناسبة الحفل ولايعرف وجها واحدا من الوجوه التى حوله . سار بينهم غريبا لايعرفه أحد أو يعيره أىَّ اهتمام . رأى رجلا نحيلا طويلا يحمل صينية عليها أكواب لايعرف مافيها . أخذ الرجل يوزع الأكواب على جميع الموجودين بالمكان . تألم عندما وجد نفسه الشخص الوحيد الذى لم يقدم له الرجل أحد الأكواب . شعر بظمأ فقال للرجل :

ـ أنا عطشان ، أريد أن أشرب .

نظر إليه الرجل نظرة فيها قسوة وأسرع بالابتعاد عنه . رأى فتاة رائعة الجمال قادمة نحوه مبتسمة تتدلى من عنقها حلية ذهبية على شكل ثعبان وفى يدها صينية عليها كوب به سائل يشبه الماء .

قال للفتاة :

ـ هل هذا الماء لى ؟

ـ أجل ، سمعت أنك عطشان .

ناولته الكوب فشرب ما فيه من ماء على الفور وشكرها على إرواء ظمئه . شعر بتعب ، رأى أريكة لايجلس عليها أحد نجلس على طرفها ، فذهبت الفتاة وجلست جنبه ونظرت إليه مبتسمة ولكنه لم ير ابتسامتها لانشغاله بالبحث عن أبيه فى هذا المكان ولكنه لم يعثرعليه . التفت فوجد الفتاة مازالت جالسة بجوارة مبتسمة فأخذ يتأمل وجهها الجميل وأمسك يدها فتركتها فى يده . بغتة خلا المكان من كل من فيه ولم يبق سواهما ويدها مازالت فى يده . مالت عليه وهمست فى أذنه قائلة :

ـ غدا نتقابل فى الأوتوبيس .

فى هذه اللحظة صحا من النوم . نظر إلى ساعته التى لايخلعها من يده فى أثناء النوم فوجدها الخامسة وتسع دقائق . حاول استئناف النوم ليرى أباه فى المنام ولكن النوم استعصى عليه ، فقام وعمل لنفسه فنجانا من القهوة وجلس يحتسيه . صحت والدته من نومها وتعجبت عندما رأته مستيقظا ، قالت :

ـ لماذا صحوت مبكرا على غير عاد تك ؟

ـ لست أدرى ، كنت أحلم وفى أثناء الحلم صحوت .

جلست والدته بالقرب منه وقالت :
ـ وماذا حلمت ياترى ؟
لم يشأ أن يقص عليها الحلم فقال :
ـ لست أدرى ، نسيته .
ـ ولكن الإنسان عادة لاينسى مارآه فى المنام إذا صحا فى أثناء الحلم .
ـ ولكننى نسيته .

شعر بحزن عميق لعدم رؤية أبيه فى المنام وأسف على القروش العشرة التى استولى عليها شملاط بلا مقابل . ذهب لمقابلته وقال له :

ـ لم أر والدى فى الحلم .
ـ متى نمت أمس ؟
ـ قبل منتصف الليل كما طلبتَ منىّ .
ـ وكيف عرفت ذلك ؟
ـ آويت إلى فراشى فى نحو الحادية عشرة وما لبثت أن نمت .
ـ لايمكن لأى انسان أن يتأكد من موعد نومه .
ـ وما العمل الآن ؟ أريد أن أرى أبى فى المنام .
ـ ادفع عشرة قروش أخرى .
ـ أخشى أن تضيع سدى فى هذه المرة أيضا .
قال شملاط وقد علا صوته وبدا كوحش مفترس :
ـ ادفع عشرة قروش أخرى اذا كنت ترغب فى رؤية أبيك فى الحلم فلا وقت لدى .
وضع سمير النقود فوق المنضدة وقام شملاط ببطء ووضع فى الموقد مزيدا من البخور وأخذ يغمغم بكلماته الغامضة غير المفهومة وقال :

ـ قم ، سترى والدك الليلة فى المنام ، ولكن عليك أن تكون فى نوم عميق قبل منتصف الليل ، دقيقة واحدة بعد هذا الموعد تفسد كل شيء .

الليلة الثانية

قال لوالدته وهو ذاهب إلى سريره الساعة العشرة مساء :

ـ ارجو أن تتأكدى من أننى نمت قبل الثانية عشرة .

تعجبت والدته وقالت :

ـ أتأكد من أنك نمت قبل الثانية عشرة ؟ ولماذا ؟

قال بصبر نافد :

ـ لاشيء . أريد التيقن من ذلك .

ـ وكيف اعرف أنك نمت قبل الثانية عشرة أو بعدها ؟

ـ احضرى إلى غرفتى قبل الثانية عشرة بنحو ربع ساعة وتأكدى من أننى نائم نوما عميقا .

تأكدت الأم من أنه فى الحادية عشرة والنصف كان نائما نوما عميقا . رأى فى هذه الليلة أنه مسافر إلى مدينة القاهرة فى أوتوبيس الطريق الصحراوى وجميع المقاعد مشغولة بالمسافرين ماعدا المقعد المجاور له . كان ناظرا من النافذة يتأمل منظر الصحراء التى تبدو وكأنها بلا نهاية ، ثم تناول إحدى المجلات وأخذ يتصفحها وبعد فترة طوى المجلة ووضعها بجواره . لاحظ أن الفتاة الجميلة التى رآها فى الحلم بالأمس قد شغلت الكرسى الذى كان شاغرا جنبه . نظرت إليه مبتسمة فأخذ يدها وضغط عليها . اختفى جميع ركاب الأوتوبيس ولم يعد فيه سواهما وانبعث من مكبر

صوت غير مرئى صوت أم كلثوم تغنى أغنية «الأطلال» شِعْر ابراهيم ناجى وتعجب عندما لاحظ أن الأتوبيس يسير بدون سائق . أحاط خصر الفتاة بيده فنظرت اليه مبتسمة .

ضغط على خصرها وجذبها نحوه وقبلها قبلة خاطفة ، فقبلته وهمست فى أذنه قائلة :

ــ غدا نتقابل عند النافورة .

ذهب إلى شملاط غاضبا وقال :

ــ دفعت حتى الآن عشرين قرشا ولم أر والدى فى الحلم ، ولقد تأكدت فى هذه المرة أننى نمت فى الموعد الذى حددته لى .

ــ كيف تأكدت ؟

ــ والدتى رأتنى أغط فى نومى وسمعت شخيرى فى نحو الحادية عشرة والنصف .

ــ توجد روح شريرة تحول بينك وبين رؤية أبيك .

ــ وكيف أتخلص من هذه الروح الشريرة ؟

قام شملاط يلملم عباءته وفتح درجا صغيرا فى المنضدة وأخرج لفافة أعطاها لسمير قائلا :

ــ احرق هذا البخور فى غرفتك قبل النوم .

عاد شملاط إلى مكانه وهم سمير بالخروج فاستوقفه شملاط قائلا :

ــ لاتخرج قبل أن تضع عشرة قروش فوق المنضدة .

وضع العشرة قروش وخرج .

الليلة الثالثة

وجد نفسه فى قصر يشبه قصر الحمراء بغرناطة فى الأندلس ذى حديقة واسعة فى وسطها نافورة حولها مساحة من الفسيفساء متباينة الألوان ، تمتد منها طرقات مرصوفة بالبلاط الأزرق . خرج من أحد أبواب القصر سرب من الحسان يرتدين سروايل صفر وزرق وخضر وصدارى موشاة بخيوط من الذهب والفضة .أخذت لفتيات ينشدن موشحات شبيهة بالموشحات الأندلسية ويرقصن حول النافورة ، ثم ارتصصن فى صفين عند أحد أبواب القصر المؤدية إلى الحديقة ، وخرجت من الباب فتاة ترتدى رداء قرمزيا طويلا وعلى رأسها تاج . عزفت لها موسيقى وانحنت الفتيات فى أثناء مرورها . نظر إليها مبهورا بجمالها وما لبث أن اكتشف أنها الفتاة التى التقى بها فى الحلمين السابقين . أقبلت نحوه مبتسمة وطوقته بذراعيها ، فاحتضنها وقبلها فى فمها . سحبته من يده وجلسا على حافة النافورة والفتيات يرقصن حولهما وينشدن الموشحات الأندلسية . بغتة ، امتلأت الحديقة بعدد كبير من الفتيات والشبان والرجال والنساء ، فوقف مذعورا وترك الفتاة وجرى محاولا الخروج من القصر . جرت خلفه وأمسكت به واحتضنته ووقف الجميع ينظرون إليهما مبتسمين ، فعادا وجلسا على حافة النافورة وأخذ رأسها بين يديه وقبلها فى فمها قبلة طويلة فصفق لهما جميع من فى الحديقة ، وبغتة اختفى الجميع ولم يبق فى حديقة القصر سواهما . مالت عليه وهمست فى أذنه قائلة :

ـ غدا نتقابل فى البيت المهجور .

فكر فى الذهاب إلى شملاط ليخبره بأنه لم ير أباه فى المنام فى هذه المرة أيضا على الرغم من تنفيذه جميع التعليمات المطلوبة منه ، ولكنه رأى تأجيل ذلك إلى الغد فلقد بدأ يشعر بشوق لرؤية تلك الفتاة فى أحلامه .

الليلة الرابعة

تعمد فى هذه الليلة أن ينام قبل العاشرة مساء متعجلا رؤية الفتاة فى البيت المهجور الذى وعدته بلقائه فيه .

رأى فى المنام أنه يسير فى مدينة خالية من السكان ، على كل بيت من بيوتها لافتة تدل على وجود «شقق للإيجار» . وقف حائرا لايعرف أى بيت سيتقابل فيه مع فتاة الحلم . سمع صوتا يناديه . نظر نحو مصدر الصوت فإذا بفتاته تطل من شرفة أحد المنازل . قالت :

ـ أنا هنا ، أدخل واصعد إلىّ .

دخل من بوابة البيت وصعد السلم فوجدها فى انتظاره عند باب احدى الشقق مرتدية فستان الزفاف . احتضنته وباسته وسحبته من يده إلى داخل الشقة . أبهره الأثاث الجميل المتناثر فى أنحاء البيت فى ذوق رفيع مرهف . فتحت باب احدى الغرف فاذا بها غرفة نوم كل ما فيها ذهبى اللون . استلقت على السرير فاستلقى جنبها واحتضنها . وجد جميع النوافذ مفتوحة فقال لها :

ـ ألا نغلق النوافذ ؟

ـ لا داعى لذلك .

رأى البيوت المجاورة التى كانت خالية ، قد أطلّ من نوافذها عدد هائل من النساء والرجال ينظرون إليهما من خلال نوافذ غرفة النوم ويلقون عليهما الأزهار همست فى أذنه قائلة :

ــ نتقابل غدا فى هذا المكان .

لم يعد يفكر فى الذهاب إلى شملاط لرؤية والده فى المنام وأخذ يتعجل النوم ليرى ماذا سيحدث بينه وبين الفتاة فى تلك الغرفة .

فى مكان آخر ، كانت الفتاة التى يراها سمير فى الحلم ترى الأحلام نفسها التى يحلمها ، وتتقابل معه فى الأماكن التى يراها فى أحلامه ، فأصبح الاثنان يعرفان بعضهما معرفة حميمة دون أن يلتقى أحدهما بالاخر الاّ فى الأحلام ، لكل منهما حياة مزدوجة ، حياة الواقع وحياة الحلم . كانت الفتاة تتعجل النوم لترى سميرا فى أحلامها . انها تراه بشكله الحقيقى الوسيم ، كما يراها هو بشكلها الحقيقى رائع الجمال . أحب كل منهما الآخر حبا عنيفا وكأنهما بطلا إحدى أساطير الحب الخالدة .

الليلة الخامسة

رأى فى منامه أنه يسير فى الشارع نفسه الذى كان يسير فيه فى حلم الأمس ولكن المدينة فى هذه المرة تموج بالبشر إناثا وذكورا من جميع الأعمار . تعرّف على البيت الذى تقابلا فيه فى حلم الليلة الماضية ووجده كما سبق أن رآه بطلائه الأزرق ونوافذه البيض . دخل المنزل وصعد إلى الشقة فرأى فتاته تنتظره عند بابها مرتدية قميص نوم أصفر طويلا . احتضنته واحتضنها وسارا نحو غرفة النوم التى كانت نوافذها فى هذه المرة

أيضا مفتوحة على مصراعيها . خلعت ملابسها وخلع ملابسه واستلقيا على السرير جنبا إلى جنب . ذهبا معا إلى الحمام ووقفا تحت الدش واستمتعا بالاستحمام بماء دافىء لاحظ أن نافذة الحمام مفتوحة وعشرات العيوم المبتسمة تطل عليهما . انهالت عليهما الأزهار من خلال نافذة الحمام .
همست فى أذنه قائلة :
ـ نتقابل غداً فى السفينة .

اللقاء

فى صباح اليوم التالى ، كان يسير على شاطىء كليوباترا بالقرب من منزله بالإسكندرية . استلفت نظره فتاة تسير أمام الكبائن بالقرب من الكازينو . لم يصدق عينيه ، انها فتاته التى يراها فى أحلامه .

اذن فلا بد أننى فى حلم ، فأنا لا أراها الاّ فى الأحلام . ولكنها قالت لى فى حلم الليلة الماضية إننا سنتقابل فى السفينة ، اين هى السفينة ؟ ربما تأتى احدى السفن بالقرب من الشاطىء ، ولكن هذا لايمكن أن يحدث فالسفن لا ترسو إلاّ فى الميناء .

لم تتركه الفتاة يسترسل فى أفكاره فلقد أقبلت عليه واحتضنته فاحتضنها بقوة وتبادلا القبلات الطويلة الحارة . عندما أفاقا من نشوتهما فوجئا بالتفاف الجماهير حولهما يقذفونهما بأبشع الشتائم ، ثم أقبل أحد العساكر يشق طريقه بين المتجمهرين الغاضبين وألقى القبض على سمير وفتاته .
بكت الفتاة وقالت :
ـ اننا فى حلم .

وقال سمير :

ـ نعم ، نحن فى حلم والإنسان لايحاسب على أحلامه ، ولقد فعلنا ذلك كثيرا ولم يعترض أحد ، بل كانوا يلقون علينا الأزهار .

صاح صوت غاضب قائلا بانفعال شديد :

ـ يلقون عليكما الأزهار ؟ ! هل وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟ إنكما تستحقان الرجم بالحجارة .

صحبهما العسكرى متجها نحو قسم البوليس وسار خلفهما عدد من الشبان والأطفال فى شبه زفة يرددون بعض الأغانى فى سخرية مريرة .

قال سمير للفتاة :

ـ لاتقلقى ، إننا فى حلم انقض علينا هذه المرة على هيئة كابوس . يبدو أنه يداعبنا وسوف نصحو منه ، اذ من المستحيل أن يكون هذا حقيقة .

قالت الفتاة وقد شحب لونها :

ـ أخشى أن يكون حقيقة .

ـ إذا كان حقيقة فمعنى هذا أننا كنا نحن الاثنين نحلم معا الأحلام نفسها ، فهل هذا معقول ؟

ـ لقد همست فى أذنك فى حلم الليلة الماضية أن نلتقى غداً فى سفينة فهل حدث ذلك فى حلمك أنت أيضا ؟

ـ أجل ، حدث ذلك فى حلمى ، ولكن من يدرينا اننا الآن لسنا فى حلم ؟

ـ كانت الشمس فى الحلم تسير من الغرب إلى الشرق ، ولكننى لاحظت الآن أنها تسير من الشرق إلى الغرب كما هو مألوف .

عندما تفرقت الجماهير التى كانت تسير خلفهم ووجد العسكرى نفسه وحده معهما . عطف عليهما فأطلق سراحهما . قالت الفتاة :

ـ اذا كانت هذه هى الحقيقة فمن الأفضل الاّ نلتقى الاّ فى الأحلام .
ـ ولماذا لانتزوج ؟
ـ هل لديك شقة ؟
ـ كلا ، لا أستطيع شراء شقة ، فلقد اصبحت جميع الشقق للتمليك بآلاف الجنيهات .

ـ وأنا لا أستطيع شراء جهاز بعد أن ارتفعت الأسعار إلى السماء السابعة .

ـ وما العمل ؟
ـ نعيش فى الحلم مادمنا لانستطيع تحقيقه .
افترقا والدموع تلمع فى عينيهما وظل يلوح لها بمنديله مودعا حتى غابت عن بصره .

الليلة السادسة

أرق سمير فى تلك الليلة فلم يستطع النوم قبل الواحدة بعد منتصف الليل لم ير فتاته فى الحلم كما كان يتوقع ، ولكنه رأى أباه جالسا فى ركن الغرفة يبكى سأله سمير .
ـ لماذا تبكى يا أبى ؟
قال الأب وهو يمسح دموعه المنهمرة :

ـ أنا حزين يابنى ، لم أستطع أن أترك لك سوى بعض الأحلام فى هذه الأيام العصيبة .

بكى سمير ، ثم صحا من نومه وهو يبكى .

عام ١٩٨٣

القنبلـــة

فى معملها بقسم الفيزياء بكلية العلوم كانت مشغولة باجراء عمليات حسابية ومعادلات رياضية غاية فى التعقيد عندما اقتحم غرفتها مسعود الفراش وقال لها إن رئيس القسم يرغب فى رؤيتها .

ـ هل الجهاز الذى طلبتِ شراءه ضرورى ؟

ـ حاولت الاستغناء عنه فلم أستطع .

ـ ميزانية الجامعة فى الوقت الحالى لاتحتمل شراء جهاز بمبلغ ستين ألف جنيه ، وأعتقد أن تكاليف البحث لاتتناسب مع النتائج المحتملة . يخيل إلى أن من المستحسن الاقتصار على البحوث التى لاتكلفنا كثيرا .

ـ منذ عشر سنوات وأنا أواصل العمل فى هذا البحث ولايمكننى تغييره الآن بعد المجهود العنيف الذى بذلته والتضحيات التى تحملتها . هل يرضيك أن تضيع من عمرى عشر سنوات سدى ؟

ـ ذلك أفضل من ضياع العمر كله .

ـ كيف ؟

ـ لا اعتقد أن الجامعة توافق على شراء هذا الجهاز .

ـ قد توافق .

ـ أطرق رئيس القسم لحظة ناظرا إلى سطح مكتبه ثم رفع رأسه وقال : رئيس الجامعة رفض شراءه .

قالت بصوت مرتجف :

ـ هل تحدثت معه ؟

ـ مكثت معه أمس أكثر من نصف ساعة محاولا اقناعه ولكنه لم يقتنع .

شعَرَتْ برغبة فى البكاء ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

ـ سأحاول الاستغناء عن الجهاز .

ـ أخشى ألا يتمخض هذا إلاّ عن مزيد من ضياع الوقت .

ـ البحث العلمى محاولة مستمرة للوصول إلى هدف ، وسأستمر فى المحاولة .

عادت إلى غرفتها وحاولت الاندماج مرة أخرى فى المعادلات الرياضية والأرقام الحسابية ولكن جرس التليفون دق وسمعت صوت سكرتيرة العميد تطلب منها الحضور لمقابلته .

أشار إليها العميد بالجلوس فجلست وانتظرت حتى انتهى من محادثة تليفونية .

ـ للمرة الثالثة يادكتورة زينب تتركين باب غرفتك مفتوحا عند مغادرتك الكلية فى المساء وبها أجهزة ثمينة ، أخبرنى بذلك أحد حرس الكلية ، ومازلت حتى الآن يستقطع من مرتبك ثمن البوتقة الذهبية التى اختفت من غرفتك فى العام الماضى .

ـ أنا متأسفة ، غادرت الكلية فى نحو الواحدة بعد منتصف الليل وكنت مرهقة إرهاقا شديدا ومشغولة الفكر وربما يكون ذلك سبب السهو .

ـ هناك أمور لاينبغى أن نسهو عنها . أرجو ألا يتكرر ذلك مرة أخرى .
ـ وهو كذلك .

هل أُخبره عن الجهاز الذى رفض رئيس الجامعة شراءه ؟ لا ، لا داعى لإخباره ، لافائدة ، ولكن لماذا لا أخبره ؟ قد يستطيع إقناع رئيس الجامعة .

ـ كنت طلبت من رئيس القسم شراء جهاز لازم للبحث الذى أقوم به ، ولكننى علمت منه أن رئيس الجامعة رفض شراءه ، فهل من الممكن اقناعه بأن هذا الجهاز يعتبر من الأجهزة الأساسية فى جميع بحوث الطاقة الذرية ؟ .

قال العميد بسخرية :
ـ ما الهدف الذى تحاولين الوصول إليه بالضبط ؟ هل ستصنعين قنبلة ذرية ؟
ـ نعم ، شأصنع قنبلة ذرية .
ضحك العميد وقال :
ـ تصنعين قنبلة ذرية ؟ ! وهل هذا معقول ؟
ـ ولم لا ؟
ـ أنت يادكتورة زينب تصنعين قنبلة ذرية ؟ !
ـ ما المانع ؟
بغتة تجهم وجه العميد وقال :
ـ هل تنوين صنع قنابل ذرية هنا فى الكلية ؟ !
ـ وهل فى هذا شىء عجيب ؟
ـ إنها كارثة . مصيبة كبرى . هل يعلم رئيس القسم ؟

ــ نعم ، أخبرته ولم يعترض .

رئيس القسم يعلم ويوافق على هذه المصيبة بدون علمى ؟ !

ــ إنه ، للأسف الشديد ، يعتقد أننى ألهو وأضيع الوقت ولايتصور أننى سأصل إلى أية نتيجة .

ــ كان من الواجب أن يحاط علمى بمثل هذه الأشياء الخطيرة ، اليس من المحتمل أن تنسف بحوثك الكلية ؟ فى هذه الحالة أتمنى ألا تصلى إلى أية نتيجة ، وأرجو أن تختارى لك بحثا آخر لاخطر منه ، لا داعى للقنابل والمفرقعات . أنجزى بحوثا من الممكن إتمامها بسرعة وتكون قابلة للنشر فى المجلات العلمية لتظفرى بالترقية ولا داعى لوجع الدماغ .

شعرت الدكتورة زينب بضغط فى رأسها وخرجت من غرفة العميد والغضب يكاد يحجب عنها الرؤية . فى المساء لاحظت سميرة أن أختها الكبرى زينب عصبية المزاج سريعة الانفعال على غير عادتها فاقترحت أن يذهبا معا إلى إحدى دور السينما ، وعند انتهاء عرض الفيلم سألتها سميرة :

ــ مارأيك فى الفيلم ؟

ــ لابأس به .

ــ هل تعتقدين أن نهاية الفيلم طبيعية ؟ هل يحدث مثل هذا فى الحياة ؟

ــ نهاية الفيلم ؟ ماذا كانت نهاية الفيلم ؟

ضحكت سميرة وقالت :

ــ يبدو أنك لم تشاهدى شيئا من الفيلم ، كالعادة .

ــ الواقع أن احدى المعادلات شغلت ذهنى . لقد عذبتنى هذه المعادلة التى لا أجد لها حلا .

ـ قد تتوصلين إلى حلها فى الحلم ، كما حدث فى المعادلة السابقة .
ـ لا أعتقد ذلك ، مثل هذه الأشياء لا تتكرر .
ثم قالت وقد طافت بذهنها سحابة يأس سوداء :
ـ على العموم ، فى ستين داهية ، لن تخرب الدنيا لو لم أتوصل إلى حلها .
قالت سميرة وفى حديثها نبرة سخرية :
ـ أخشى أن تخرب الدنيا لو توصلت إلى حلها .

***

غاصت فى أعماق بحثها ولم تعد تفكر الا فيه ، هو فرحتها ونشوتها وكل شيء فى حياتها . أصبحت تعيش فى عالم خاص ليس به سوى أرقام ورموز ، حتى إذا آوت إلى فراشها طاردتها هذه المعادلات والأرقام فى منامها ، فلا ترى فى أحلامها سوى معادلات رياضية غير قابلة للحل ، وحواجز تعجز عن تخطيها ، وجبال وعرة شاهقة تحاول تسلقها وأعمدة ممتدة فى الفضاء ترى نفسها متربعة فوق قمتها لاتستطيع الهبوط منها ، وجدران تعترض طريقها وكأنها تسير فى متاهة .

ذات يوم ، بينما كانت مستغرقة فى العمل فى معملها سمعت نقرا على الباب قالت :
ـ ادخل .

لم يدخل أحد ، واستمر النقر ، ثم تحول إلى ضربات شبه ايقاعية . قامت وفتحت الباب فوجدت مسعودا الفراش واقفا يبتسم . سألته :
ـ ماذا تريد ؟

ظل ناظرا إليها مبتسما ، فأعادت السؤال . لم يتكلم وظل مبتسما ، ثم اندفع داخل الغرفة وجلس على كرسى مكتبها والابتسامة مازالت على شفتيه . وقفت تنظر اليه فى رعب وغضب وصاحب قائلة :

ـ اخرج يامجرم .

تلاشت ابتسامته وتجهم وجهه واتسعت عيناه وهجم عليها محاولا تطويقها بذراعيه فصرخت وولت هاربة ، فهرع اليها عدد من المعيدين والمعيدات والفراشين . قال أحد المعيدين بلهفة :

ـ ماذا حدث يادكتورة ؟

أخذتهم إلى غرفتها . ذهلوا عندما رأوا هذا الفراش جالسا على كرسى مكتبها وقد فتح كتابا ضخما من كتبها يقلب صفحاته . انقض عليه عدد من الفراشين والمعيدين وانتزعوه من خلف المكتب ، فأخذ يبكى ويصرخ ويلطم خديه . شعرت الدكتورة زينب برعشة تسرى فى جسدها وتجمع فى الغرفة عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس والطلبة . نظر الفراش اليهم بعينين حمراوين زائغتين ثم أفلت منهم وقفز من النافذة ، وهى فى الدور الأرضى ، وانطلق يعدو صائحا :

أنا مسكين . أنا ضفدع . أنا صرصار .

نظر إليه الطلبة مشدوهين وأسرع معظمهم بالابتعاد عنه .

تمكن حرس الكلية من القبض عليه ، وتبين أنه أصيب بلوثة ففصل من الخدمة .

هز هذا الحادث الدكتورة زينب هزة عنيفة ، ولكن مع مرور الأيام عادت إلى حالتها الطبيعية وفى هذه الفترة لم يحدث سوى حادث واحد يستحق الذكر ، وهو أن الدكتور رفعت المرصفاوى الأستاذ بقسم الكيمياء

تقدم لخطبة الدكتورة زينب ، وهو شاب وسيم مهذب ، ولكنها رفضت طلبه دون ابداء الأسباب .

***

بعد نحو سبعة شهور من العمل المتواصل ومضت فى ذهن الدكتورة زينب فكرة ملأت قلبها فرحة لم تشعر بمثلها من قبل . توصلت إلى طريقة لصنع قنبلة ذرية من نوع جديد وتم تصنيعها فى ورشة الكلية دون أن يدرى أحد من عمال الورشة خطورة النموذج الذى أتموا انفيذه .

كانت سميرة أختها أول من عرف هذا النبأ الذى طالما تمنت سماعه . احتضنتها سميرة وقبلتها وقالت :

ــ أتمنى الآن أن تهتمى بنفسك وصحتك وحياتك الشخصية ، وأن تخرجى من الشرنقة التى سَجَنْتِ نفسك فيها طَوال هذه السنين . هل آن الأوان لتتحول العذراء إلى فراشة ؟

قالت الدكتورة بدون اكثرت :

ــ لن تخرج العذراء من الشرنقة .

ــ لاتبقى العذراء داخل الشرنقة إلا اذا ماتت .

ــ وأنا لو خرجت من الشرنقة سأموت !

أخرجت من حقيبتها كراسة متوسطة الحجم وقالت لأختها :

فى هذه الكراسة جميع أسرار البحث . أعظم دولة فى العالم تتمنى أن تسرقها . فيها أخطر ماتوصل اليه الإنسان . ستُحدِث ضجة فى جميع أنحاء العالم .

ــ هل تختلف عن القتابل الذرية الأخرى ؟

ـ تختلف كثيراً . إنها قنبلة لم يسبق لها مثيل .

فى نحو العاشرة من صباح اليوم التالى ، عندما دخلت مكتب العميد ، كان مشغولاً بإمضاء عدد كبير من الأوراق التى يعرضها عليه مراقب الكلية . مرت دقائق وكأنها أعوام وبدت الدكتورة مضطربة شاحبة الوجه وقد وضعت ساقا فوق ساق ، تحرك الساق العليا فى اهتزازات عصبية وقد اجتاحها القلق . انتهى العميد من إمضاء الأوراق ونظر إلى الدكتورة زينب مبتسما وقال :

ـ خيرا .
ـ توصلْتُ إلى نتائج خطيرة .
ـ هل انتهيتِ من البحث ؟
أجل ، ولكن يلزم إجراء تجربة .
ـ تجربة ؟ ! تجربة ماذا ؟
ـ تجربة القنبلة .

قال العميد بفزع :
ـ قنبلة ؟ ! هل توصلت إلى عمل قنبلة ؟
ـ نعم ، تمكنت من عمل قنبلة ذرية زهيدة التكاليف ، لاتزيد نفقات صنعها على عشرين جنيها ولكن قوة تدميرها رهيبة ، وأريد تجربتها .
قال العميد وقد قطب حاجبيه وبدأ يشعر بالخطر :
ـ هل هذه القنبلة موجودة الآن بالكلية ؟
ـ نعم ، عندى فى المعمل .
ـ هذه مسألة خطيرة ، من الممكن أن تنفجر وتنسف الكلية .

ـ نعم ، من الممكن أن تنسف الكلية ، بل وتنسف المدينة وضواحيها . لو انفجرت ، ولكنها لن تنفجر .
ـ أمتأكدة أنت أنها لن تنفجر؟
ـ كل التأكيد . إنها لاتنفجر من تلقاء نفسها .
ـ أود رؤية هذه القنبلة .
ـ تفضل معى إلى غرفتى .

كانت القنبلة موضوعة فى علبة صغيرة من الورق المقوى داخل صوان بغرفة الدكتورة زينب التى يوجد بها مكتبها ومعملها . فتحت الصوان وأخرجت العلبة ثم رفعت غطاء العلبة فبدت القنبلة .
ـ هاهى ذى القنبلة .
ـ قنبلة ؟! إنها تبدو مثل البلية التى يلعب بها الأطفال .
مد العميد يده ليمسكها ، ولكنه تراجع وسحب يده مكتفيا بالنظر اليها وقال :
ـ هل من المعقول أن تكون لهذه البلية ، التى لاتزيد على حجم البندقة أية قدرة على التدمير؟ إنها تشبه البمبة التى يلهو بها الأطفال .
ـ لو صحت حساباتى ، وأعتقد أنها صحيحة ، فإن قنبلة من هذا النوع بهذا الحجم من الممكن أن تنسف مدينة كبيرة فى حجم القاهرة الكبرى . إنها كالعفريت المحبوس فى قمقم .
ـ وكيف صنعت هذا العفريت ؟
ـ صممتها وأشرفت على تنفيذ التصميم فى ورشة الكلية .
ـ هل حصلت على تصريح بتصنيعها فى ورشة الكلية ؟
ـ لا ، لم أحصل على أى تصريح .
ـ كيف تقدمين على عمل شىء خطير كهذا بلا تصريح منى ؟

ـ خفت ألا توافق .

ـ وكيف تتم عملية التفجير؟

ـ لو اصطدمت بأى جسم صلب ، وهناك طريقة أخرى لتفجيرها مكتوبة فى هذه الكراسة .

تناول العميد الكراسة وأخذ يقلب صفحاتها فوجدها مليئة بالرموز والمعادلات الرياضية المعقدة . وضع الكراسة وقال :

ـ وأين تريدين إجراء تجربة تفجيرها ؟

ـ فى الصحراء .

ـ ومن الذى يتولى عملية التفجير؟

ـ عندى جهاز صغير الحجم سأضعها فيه ، ومن الممكن أن يضبط الجهاز لتنفجر بعد أية مدة نحددها وسأتولى تنفيذ العملية .

ـ لابد من وجود حراسة هنا فى هذا المكان ، وسأبلغ المسئولين لعمل الترتيبات اللازمة لإجراء تجربة التفجير . هل أطْلعْتِ أحداً غيرى على هذا الشىء المرعب ؟

ـ لا أحد سواك .

ـ لابد أن يظل هذا فى طى الكتمان فى الوقت الحاضر .

ـ هذا بديهى .

كان فى نية المسئولين عدم إذاعة نبأ هذا الاكتشاف ، ولكن بعد يوم واحد من اجراء التجربة ورد فى عدد من الصحف العالمية خبر يفيد أن ادوات الرصد سجلت تفجيرا ذريا فى مصر ، فرأى المسئولون أن من الأفيد لمصر إعلان النبأ .

* * *

بعد أسبوع ، فى منزل الدكتورة زينب ، كان القلق يعصف بوالدتها وأختها .

ـ زينب أختك تأخرت ولم تحضر منذ خروجها فى الصباح الباكر .

ـ قد تكون مشغولة .

ـ من عادتها أن تتصل بنا تليفونيا عندما تنوى السهر فى الكلية . الساعة الان الثامنة والنصف ، وحاولت الاتصال بها عدة مرات ولكن تليفون الكلية دائما مشغول .

كان الراديو بجوار سميرة التى كانت تنصت لإحدى الأغانى ، قُطعت إذاعة الأغنية وقال المذيع :

ـ أيها السادة ، بعد لحظات سنذيع على حضراتكم أنباء مهمة .

وعزفت موسيقى عسكرية . ارتجف قلب الأم وقالت :

ـ انباء مهمة ؟ ماهى الأنباء المهمة ؟ أخشى أن تكون قد حدثت كارثة .

ـ ربنا يستر .

توقفت الموسيقى وقال المذيع :

ـ هنا القاهرة . أيها السادة نذيع على حضراتكم البيان التالى : توصلت مدرسة باحدى الجامعات المصرية إلى صنع قنبلة ذرية زهيدة التكاليف تبلغ قوتها التدميرية أضعاف قوة أية قنبلة ذرية أخرى حتى الآن ، ولقد تم بنجاح تجربة هذه القنبلة فى مكان ما بالصحراء وأسفرت التجربة عن نتائج على جانب عظيم من الأهمية .

استؤنفت إذاعة الأغانى فأقفلت سميرة الراديو وقالت لأمها :

-إنهم يتحدثون عن زينب .

قالت الأم وقد شعرت بنشوة مشوبة بالقلق :
ـ ولماذا تأخرت ؟ لماذا لم تتصل بنا ؟ أين هى الآن ؟ ولماذا لم يذكروا اسمها فى الراديو؟ قد تكون دكتورة غيرها .
بعد لحظات دق جرس الباب . قالت الأم :
ـ لابد أنها زينب .
أسرعت سميرة بفتح الباب فرأت جارتهم فردوس وعلى وجهها علامات الدهشة، قالت بلهفة :
هل فتحتم التليفزيون ؟
ـ لا ، سمعنا الراديو .
ـ افتحوا التليفزيون . الدكتورة زينب فى التليفزيون .

عادت فردوس إلى شقتها واندفعت سميرة نحو التليفزيون وأدارت مفتاحه فظهرت صورة معمل الدكتورة زينب واحدى المذيعات واقفة وفى يدها الميكروفون تقول :

ـ . . . والمعمل صغير الحجم يشغل ركنا من غرفة الدكتورة زينب ولا أتصور أن هذه القنبلة الخطيرة قد خرجت من هذا المعمل الصغير .

بدت الدكتورة زينب مشغولة بالحديث مع أحد الصحفيين الذى كان يدون حديثها فى نوتة ، ومن آن لآخر تومض أدوات التصوير الموجهة نحو الدكتورة زينب . انتهت من حديثها مع الصحفى وأقبلت نحوها مذيعة التليفزيون تسألها .
ـ منذ متى بدأ تفكيرك يادكتورة فى هذا الإنجاز العظيم ؟
ـ منذ أكثر من أحد عشر عاما .
ـ ماهى النتائج التى تتوقعينها ؟

ـ أصبحت مصر بين يوم وليلة أقوى دولة فى العالم بفضل هذه القنبلة ، وأصبح فى امكانها فرض رغباتها على جميع الدول .

ـ وماذا يكون موقف الدول الكبرى فى تصورك ؟

ـ أعتقد أن جميع الدول ستحرص على تحسين علاقتها بمصر لأن الدول لاتحترم سوى القوة .

ـ ماهى أمنيتك التى لم تتحقق ؟

ـ كنت أتمنى أن يكون والدى على قيد الحياة ؟

طار الخبر إلى جميع أنحاء العالم .

ـ هنا لندن . تمكنت الدكتورة زينب منصور المدرسة بجامعة القاهرة من صنع قنبلة هائلة صغيرة الحجم زهيدة التكاليف ، واحدة منها فى حجم البندقة تكفى لنسف لندن وضواحيها .

ـ هنا صوت أمريكا . استطاعت أستاذة مصرية أن تصنع قنبلة ذرية لامثيل لها حتى الآن ، وهى لاتحتاج لمادة اليورانيوم .

ـ هنا باريس . البشرية معرضة للدمار . مصر تسيطر على العالم . أستاذة مصرية تتمكن من صنع أخطر قنبلة عرفها البشر .

ـ هنا موسكو . العالم فى خطر . أستاذة مصرية تصنع قنبلة تسبب اختلالا فى التوازن الدولى .

* * *

بعد نحو شهرين ، قالت سميرة لأختها :

ـ كل الدنيا تتحدث عنك ، صورتك فى جميع الصحف . أنا مجهولة لايعرفنى سوى أقاربى وأصحابى والجيران وأنت اسمك على كل لسان .

ــ ولكننى لا أشعر بأية سعادة ، بل بدأت أشعر بالضيق .
ــ تشعرين بالضيق ؟ ! هل هذا معقول ؟
ــ العيون تحاصرنى اينما سرت . بدأت أخاف من كل تلك العيون التى تحملق فى وجهى فى كل مكان .
ــ وهل فى هذاما يدعو للضيق ؟ إنه شىء لذيذ يُشعر الانسانَ بأهميته .
ــ يبدأ لذيذا يبعث النشوة ، ثم يعتاده الإنسان فلا يحرك فيه أية مشاعر ثم يضيق به بعد ذلك . أشعر الآن وكأننى محددة الإقامة .
ــ شىء عجيب ، إن مجرد سيرى معك فى الطريق يشعرنى بالزهو والفخار .
ــ هذا يدل على أنك أسعد منى .
ــ أعتقد أنك نلت الآن كل المنى ، ألا تفكرين فى الزواج كما تفعل كل أنثى ؟

ــ نلت كل المنى ؟ ! أية منى هذه ؟ هل تتصورين أن بعد كل هذه الضجة التى تتحدثين عنها مازالوا رافضين ترقيتى إلى درجة أستاذ مساعد ؟

قال عميد الكلية للدكتورة زينب :

ــ لست ادرى ماذا أقول لك . الواقع أنك تستحقين الترقية لا إلى أستاذ مساعد فقط ، بل إلى درجة الأستاذية ، ولكننى بكل أسف مازلت عاجزا عن ترقيتك بعد هذا الانجاز الرائع الذى هز الدنيا .
ــ وماذا أفعل أكثر مما فعلت ؟
ــ اللوائح صريحة ، لابد أن تكون بحوثك منشورة أو مقبولة للنشر فى احدى المجلات العلمية المتخصصة ، وكلنا نعلم أن بحوثك ممنوع نشرها بأمر الدولة لاعتبارها من الأسرار الحربية .

ــ وما العمل ؟ هل أظل طوال حياتى ضحية تلك الأسرار العسكرية وقد وصل تلاميذى إلى منصب الأستاذية بمجهود أقل وبحوث تكاد تكون عديمة القيمة ؟

ــ ولماذا لم تفعلى مثلهم ؟
ــ قالت سميرة بانفعال :
ــ هذا غير معقول .
قالت الدكتورة زينب بسخرية :

ــ اللوائح صريحة ! على العموم أنا راضية بنصيبى ، كل ما أريده الآن هو الموافقة على إشرافى على بحث للدكتوراة اقترحت أنا موضوعه وتحمَّسَتْ له مدرسة مساعدة تود أن تعمل معى .
قال رئيس القسم :
ــ سأعرض الأمر على مجلس القسم يوم الاثنين القادم . ومن هى هذه المدرسة المساعدة ؟
ــ سلوى توفيق ، أشرفتُ على رسالتها للماجستير وطلَبَتْ منى أن أشرف على رسالتها للدكتوراة .
ــ كما تريدين ، سأؤيد طلبك عند عرضه على مجلس القسم .
قالت سميرة :

ــ من يصدق هذا ؟ هل تواصلين البحث العلمى والإشراف على الرسائل وتمنحين الدكتوراهات لتلاميذك ولاتسمح اللوائح بترقيتك ؟ ليس من المستبعد أن تحصل تلميذتك سلوى على درجة الأستاذية وتظلين أنت حتى سن المعاش فى درجة مدرس ! لماذا لاتذهبين إلى رئيس الجامعة

وتعرضين عليه تلك المشكلة بكل صراحة !

ـ كرهت الصراحة !

ـ لماذا ؟

ـ لأن اللوائح صريحة .

* * *

بعد نحو ستة شهور ، قالت الدكتورة زينب لسلوى توفيق :

ـ أفكر الآن فى صنع نوع من القنابل أشد تدميرا . القنبلة التى جربناها تكفى لنسف مدينة كبيرة بضواحيها ، أما القنبلة الجديدة فسوف تنسف دولة فى حجم فرنسا او انجلترا أو إسبانيا .

ـ ومتى ستبدئين صنع هذه القنبلة ؟

ابتسمت الدكتورة زينب وقالت :

ـ صنعتها بالفعل ، هل تودين رؤيتها ؟

قالت سلوى وقد أطل الرعب من عينيها :

ـ هل هى موجودة هنا بالغرفة ؟

ـ نعم .

فتحت الدكتورة زينب صوانا بالحائط ، ثم فتحت خزانة صغيرة من الصلب فظهرت كرة لامعة فى حجم البرتقالة انعكس عليها ضوء المصباح فبدت وكأنها قمر صغير . قالت سلوى وقد شحب وجهها :

ـ هل هى صالحة للانفجار ؟

ـ نعم .

ـ وما الداعى لعمل قنبلة بهذه الخطورة ؟ ألا يكفيك نسف مدينة بضواحيها ؟

وأين ستجرين تجربتها ؟

ـ لا داعى لتجربتها ؟ أنا واثقة من فاعليتها مائة فى المائة وساسلمها للدولة للإحتفاظ بها وبهذا تتاح لمصر فرصة فرض ارادتها على جميع دول العالم .

***

فى مساء اليوم التالى ، كانت الدكتورة زينب قد انتهت من الإشراف على فترة الدراسة العملية لطلبة السنة الرابعة بمساعدة المدرسة المساعدة سلوى ، وعادت إلى غرفتها بصحبة سلوى التى جلست فى ركن الغرفة عاكفة على إجراء التجارب اللازمة للبحث الذى تقوم به .

أخرجت الدكتورة زينب القنبلة من الخزانة وأخذت تفحصها للتأكد من سلامتها استعداد لتسليمها للدولة ، وبدأت تراجع بعض المعادلات الرياضية . بغتة امتقع لونها وأسرعت دقات قلبها وتفصد العرق من جبينها . نادت سلوى التى هرعت إليها وفزعت عندما رأت وجه الدكتورة شاحبا . سألتها بلهفة :

ـ ما بك يادكتورة ؟

قالت الدكتورة ونظرها مصوب نحو القنبلة الموضوعة على مكتبها :

ـ حدث شىء خطير . فى أثناء مراجعتى للمعادلات الرياضية التى على أساسها صنعت هذه القنبلة إكتشفت خطأ رهيبا .

ـ ماهو ؟

ـ هذه القنبلة أخطر مما كنت أتصور ، إنها لاتنسف دولة كبيرة فقط كما اخبرتك أمس .

قالت سلوى وقد شعرت برعب جعل أمعاءها ترتعش :

ـ وماذا تنسف أكثر من ذلك ؟

ـ اتضح لى الآن بما لايقبل الشك أن هذه القنبلة لو انفجرت ستنسف الكرة الأرضية !

قالت سلوى بعد أن ظلت فترة فاغرة فمها دهشة :

ـ الكرة الأرضية ؟ !

ـ نعم ، الكرة الارضية بأسرها . سيكون فى انفجارها نهاية هذا الكوكب !

ـ وما العمل ؟

ـ لابد من إتلافها وعدم التفكير فى صنعها .

شعرت سلوى بالرعب يزلزل كيانها وكأنها فى كابوس مروع ، قالت :

ـ شيء مرعب . أشعر بتعب مفاجيء وصداع عنيف ، هل تأذنين لى بالذهاب إلى منزلى ؟

قالت الدكتورة بسخرية :

ـ أخائفة أنت من القنبلة ؟

ـ الحقيقة ، أجل . أنا خائفة .

ـ وأين تهربين منها ؟ لو انفجرت لن يبقى مخلوق على قيد الحياة فى جميع أنحاء الدنيا .

ـ أُفَضِّل أن يحدث ذلك وأنا مع أهل منزلى .

قامت الدكتورة لاحضار بعض الأدوات اللازمة لإبطال مفعول القنبلة ، ولما عادت لم تجد سلوى . وبينما تستعد لفك القنبلة ، دق جرس التليفون .

ـ آلو

سمعت صوت اختها سميرة تقول :

ـ ماما حدث لها حادث .

ـ ماذا حدث ؟

ـ انزلقت بسبب ورنيش الباركيه وسقطت وأغمى عليها ومازالت فى إغمائها ولاتريد أن تفيق .

ـ هل استدعيت أحد الأطباء ؟

ـ اتصلت بثلاثة أطباء ولم يحضر أحد منهم حتى الآن .

ـ سأحضر فورا ومعى الطبيب .

أسرعت بوضع القنبلة فى الخزانة الحديدية ، وبينما تحاول تشغيل محرك سيارتها الواقفة بالقرب من شباك غرفتها كالعادة ، أطل من نافذة السيارة وجه قذر ذو لحية مغبرة وشعر أشعث ، قال :

ـ أنا جوعان . أريد أن آكل يادكتورة زينب .

فزعت عند رؤيته فأشاحت بوجهها عنه وتعجبت من وجود مثل هذا الشخص داخل حرم الجامعة . إنطلقت بسيارتها وسمعته يضحك ضحكات هستيرية . ذهبت لأول طبيب شاهدت اسمه فى الطريق . إكتشف الطبيب شخصيتها فغادر عيادته على الفور واستقل سيارته وتبعها نحو منزلها .

عندما وصلا إلى المنزل كانت والدتها قد أفاقت من اغمائها ولكنها كانت تشكو من آلام شديدة . اكتشف الطبيب كسراً فى عظمة الساق وأمر بنقلها إلى المستشفى .

فى المستشفى تذكرت زينب شيئا جعلها ترتجف ، لقد نسيت باب

غرفتها مفتوحا ، كما تذكرت أيضا أنها لم تغلق بالمفتاح الخزانة التى تضم القنبلة ولم تقفل نافذة غرفتها . بحثت فى حقيبتها فلم تجد المفتاحين ، مفتاح الخزانة ومفتاح الصوان .

دون أن تنطق أسرعت واستقلت سيارتها عائدة إلى غرفتها فى الكلية بأقصى سرعة متاحة ، ولكنها طمأنت نفسها بأن العسكرى يحرس غرفتها .

لم تجد العسكرى فنادته :

ـ ياعبد الرحمن . ياشاويش عبد الرحمن .

عندما لم تسمع إجابة إندفعت مسرعة نحو غرفتها . وجدت الصوان مفتوحا والمفتاح فى ثقبه والخزانة غير مغلقة بالمفتاح ومفتاحها متروك فى الثقب وقد اختفت القنبلة . استمرت تنادى صارخة وقد بدأت تشعر بدوار .

ـ ياشاويش عبد الرحمن ، ياشاويش عبد الرحمن .

ـ اقبل العسكرى مهرولا يلهث وقال :

ـ نعم يادكتورة ، أى خدمة ؟

ـ أين كنت ؟

ـ ذهبت لشراء علبة سجائر .

ـ تعال معى .

دخلا الغرفة ، قالت وفى صوتها رجفة :

ـ تركت قنبلة فى هذا المكان ولما عدت الآن لم أجدها . قنبلة تنسف الدنيا كيف تترك المكان الذى تحرسه وتذهب لشراء علبة سجائر ؟ ولماذا لم تتأكد من إغلاق النوافذ والأبواب ؟

ظل العسكرى ناظرا اليها فى ذهول لايدرى ماذا يقول . شعرت بأنها قد تكون السبب فى فناء جميع البشر وجميع الكائنات الحية الأخرى وتحويل الكرة الأرضية إلى سحابة من الغبار فلم يحتمل ضميرها هذا العبء الثقيل . جلست على كرسى مكتبها وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منها مسدسا . انقض عليها العسكرى وقبض على يدها بقوة صائحا :

ــ ماذا تريدين أن تفعلى يادكتورة ؟

حاول انتزاع المسدس من يدها وهى تصيح قائلة :

ــ ابعد عنى ، لا أريد رؤية وجهك . ابعد عنى .

قال وهو مايزال قابضا بكل قوته على يدها :

ــ سلمينى هذا المسدس يادكتورة . مادامت القنبلة ستنسف الدنيا كما تقولين ، انتظرى لنموت مع باقى خلق الله ولاداعى للعجلة .

ــ لن أحتمل الحياة بعد سرقة هذه القنبلة .

ــ ومن قال إنك ستعيشين ؟ إذا انفجرت القنبلة فسيموت جميع الناس وتموتين معهم ، واذا لم تنفجر فلن يكون هناك مايدعو لقتل نفسك . وأضاف قائلا وهو مايزال محاولا انتزاع المسدس منها جاعلا فوهته متجهة نحو سقف الغرفة :

ــ الحكومة أعطتك هذا المسدس لتحافظى على حياتك وليس للتخلص من الحياة ، حياتك غالية يادكتورة زينب .

ــ لم تعد لحياتى قيمة . ستفنى الدنيا بسببى . وجودى فى الدنيا مصيبة ، كارثة ، ليتنى ما ولدت .

استطاع العسكرى انتزاع المسدس من يد الدكتورة ووقف ناظرا اليها لاهثا بينما انكفأت برأسها على مكتبها وانخرطت فى بكاء عنيف .

قفز فى ذهن العسكرى أمر مهم كان غائبا عنه ، إن واجبه الآن إبلاغ هذا الأمر الخطير على الفور للجهات المسئولة . بعد دقائق كان رئيس الوزراء على علم بما حدث ، وفى الحال عقد مجلس الوزراء اجتماعا طارئا لبحث الإجراءات التى ينبغى اتخاذها ، وحملت وكالات الأنباء الخبر إلى جميع أنحاء العالم ، إذ لم تعد أهميته محصورة فى النطاق المحلى ، بل أصبح الخطر يهدد جميع البشر فى كل مكان . صدرت الصحف فى اليوم التالى فى معظم دول العالم وفى صفحاتها الأولى بالبنط الكبير عناوين بعرض الصفحة تتحدث عن الكارثة .

قنبلة تكفى لنسف الدنيا تختفى من معمل بجامعة القاهرة .
صلّوا من أجل البشر ، العالم فى خطر .
البوليس المصرى يواصل البحث عن سارق القنبلة الرهيبة .
التحقيق مازال مستمرا لمعرفة سارق القنبلة الهائلة .

ـ تقولين إن القنبلة المختفية من الممكن أن تنسف الكرة الارضية ، أمتأكدة أنت من ذلك تمام التأكد ؟

ـ احتمال نسف الكرة الأرضية أكثر من خمسة وتسعين فى المائة .

ـ إذن هناك احتمال ، ولو ضئيل ، أن الكرة الأرضية لن تنسف

ـ نعم .

ـ هل تتهمين شخصا معينا بسرقة القنبلة ؟

ـ كلا ، لا أتهم أحدا .

ثم استدركت قائلة :

ـ معذرة ، تذكرت الآن شيئا . رأيت شخصا غريباً بالقرب من غرفتى ليلة الحادث .

ـ وكيف لم يقبض عليه الحرس ؟

ـ لست أدرى .
ـ ماهى أوصاف ذلك الشخص؟
ـ لم تكن الإضاءة كافية لرؤيته بوضوح ، ولكن يبدو أنه شخص معتوه ، كان مرتديا ملابس مهترئة ، ذو لحية كثة وشعر أشعث ، أطل من نافذة السيارة وطلب منى إحسانا .
ـ هذا يعنى أنه متسول .
ـ أعتقد أنه مخبول ، سمعته وأنا أبتعد عنه يضحك ضحكات هستيرية ، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص قد تسلل إلى غرفتى وسرق القنبلة .
ـ وكيف عرف مكانها ؟
ـ كان شباك غرفتى مفتوحا ، كما ذكرت لحضرتك ، وليس بمستبعد أن يكون بريق القنبلة قد استرعى انتباهه ورآنى عندما وضعتها فى الخزانة .
ثم صاحت قائلة :

ـ تذكرت الآن شيئا آخر ، صوت هذا الرجل ليس غريبا عنى ، إنه صوت الفراش «مسعود» الذى فصلوه عندما أصابته لوثة ، والمكان ليس غريبا بالنسبة له .
ـ وما الدافع الذى يجعله يقدم على سرقة هذه القنبلة ؟
ـ لست أدرى ، أنا لا أستطيع تصور مايدور فى أذهان المجانين . تذكرت الآن أيضا أن هذا الرجل نادانى باسمى ، إنه يعرفنى ، وهذا يؤكد أنه هو الفراش المعتوه المفصول ، ولم أستطع التعرف عليه لحظة رؤيته بعد أن أطلق لحيته التى غيرت ملامح وجهه .
ـ إذا كان هذا المجنون هو سارق القنبلة فمعنى ذلك أن السارق مازال

داخل حدود الجيزة والقاهرة الكبرى ، وعلى أحسن الفروض بالنسبة لقوة التدمير تكون هذه المناطق أكثر الأماكن تعرضا للخطر ويتحتم إخلاؤها من السكان .

قال أحد الوزراء :

ــ وما جدوى إخلاء القاهرة ؟ قد يندس السارق مع الجماهير ويسافر إلى مكان آخر ومعه القنبلة .

قال رئيس الوزراء :

ــ احتمال تركه القاهرة ضئيل . أعتقد أنه سيلوذ بمكان منعزل يظل مختبئا فيه بعيدا عن الناس . وحتى لو فرضنا مغادرته للقاهرة مع الجماهير فإننا حريصون على بقاء مدينة القاهرة سليمة ، إذ إن نسف القاهرة والجيزة سيكون أفدح خسارة من نسف أية مدينة أخرى .

قال المذيع :

ــ هنا القاهرة . أيها السادة نذيع على حضراتكم البيان المهم التالى :

«اتضح أن رجلا مخبولا تسلل إلى معمل الدكتورة زينب منصور بكلية العلوم وسرق القنبلة الذرية العملاقة . ولقد رأى بعض المواطنين هذا الرجل وفى يده القنبلة بين مقابر الإمام الشافعى ، ولما حاولوا القبض عليه هددهم بالقاء القنبلة عليهم ثم اختفى بين المقابر ولم يُعثر له على أثر حتى هذه اللحظة . ووزارة الداخلية تهيب بالمواطنين أن يتعاونوا مع البوليس للقبض على كل من يشتبهون فيه وتنطبق عليه الأوصاف التى سنذيعها عقب هذا البيان وستذاع كل عشر دقائق فى الإذاعة والتليفزيون وتنشر فى جميع الصحف . والحكومة بصدد إخلاء القاهرة الكبرى والجيزة ، وسوف

تستخدم جميع القطارات ووسائل المواصلات الأخرى لتنفيذ عملية الإخلاء التى نرجو أن تتم بنظام وهدوء كما تنصح الحكومة جميع سكان القاهرة وضواحيها والجيزة ، الذين يملكون وسائل مواصلات خاصة ، بالابتعاد عن هذه المناطق فى أسرع وقت» .

فى اليوم التالى ظهرت الصحف العالمية الكبرى وعلى صفحاتها الأولى عناوين ضخمة .

صحيفة لوموند :

الشبهات تحوم حول رجل مجنون رأته الدكتورة زينب بجوار غرفتها بالجامعة ليلة اختفاء القنبلة .

صحيفة الجارديان :

المتهم بسرقة القنبلة رجل مخبول مجهول .

صحيفة نيويورك تايمز :

رجل معتوه فى أسمال بالية متهم بسرقة القنبلة .

صحيفة هرالد تربيون :

الحكومة المصرية تلقى القبض على جميع المخبولين الذين خارج المستشفيات .

صحيفة ازفستيا :

التحقيق يسير ببطء لصعوبة التفاهم مع المخبولين المتهمين .

ساد الذعر والاضطراب فى جميع البلاد ، وعلى الأخص فى القاهرة والجيزة .

جميع الأحاديث كانت تدور حول هذا الموضوع . قالت زوجة :

ــ يبدو أن المسألة أخطر مما كنا نتصور .

قال الزوج :

ـ أكثر مما كنتِ تتصورين ، أما أنا ففى تصورى منذ البداية حجم الخطر المحدق بنا . لابد أن نترك القاهرة الآن . يجب أن تنتهى من تجهيز الحقائب فى خلال نصف ساعة على الأكثر .

ـ وإلى أين نذهب ؟

ـ إلى أسوان فى فندق كاتاراكت ، أو إلى سويسرا أو انجلترا أو أى مكان آخر فى العالم .

ـ أفضّل الذهاب إلى سويسرا .

ـ ولكن القنبلة قد تنسف الكرة الأرضية ، لاتنسىَ ذلك .

وفى بيت آخر من بيوت القاهرة التى تضم أكثر من عشرة ملايين نسمة دار حديث من لون آخر قال الرجل :

ـ الحكومة تطلب منا أن نغادر القاهرة ، ولكننا لانعرف غير هذا المكان ولانملك من المال ماننفقه على الانتقال من مكان إلى آخر نحن والأطفال .

ـ الحكومة ستنقل الناس بالمجان فى القطارات والأوتوبيسات وجميع وسائل النقل .

ـ وهل ستدبر لنا مساكن نعيش فيها فى الغربة ؟

ـ سمعت أنهم سيستخدمون المدارس والفنادق والمبانى الحكومية والخيام لإيواء الغرباء .

ـ من يرَى الشوارع والقطارات يظن أن القيامة قامت . أفضّل أن أموت فى بيتى .

ـ لست أدرى لماذا يخاف الناس من الموت ، إنه ملاذنا وأملنا ، فهو خير من هذه الحياة التى نحياها .

ـ لن نغادر هذا المكان .

انطلقت الفوضى تعصف بالبشر فى جميع شوارع القاهرة الكبرى والجيزة .
السيارات تندفع بأقصى سرعتها متجهة إلى المدينة دون أى احترام لاشارات المرور التى أصابها الارتباك . الرعب يطل من العيون . السيارات تتصادم فيعلو الصراخ ، ومن الطبيعى أن يحدث ذلك فى مثل هذه الظروف ، ولكن العجيب أن عددا كبيرا من المواطنين ظلوا يتصرفون بلا مبالاة وكأن الأمر لايعنيهم . دارت سيارات الشرطة فى الشوارع تردد هذه الكلمات :

ـ كل شخص يحاول السرقة أو الإخلال بالنظام سيطلق عليه الرصاص فورا .

سُمعت أصوات طلقات نارية أطلقها بعض رجال الشرطة على عدد من اللصوص الذين حاولوا انتهاز تلك الفرصة لسرقة محتويات بعض المحال التجارية . توالت برقيات وكالات الأنباء :

احتمال وجود سارق القنبلة فى القاهرة .

أسراب من القطارات والسيارات العامة والخاصة تغادر القاهرة حاملة السكان إلى أماكن بعيدة .

الدكتورة زينب منصور تصاب بانهيار عصبى .

ـ إطلاق الرصاص على اللصوص الذين يحاولون السرقة فى المنازل الخالية من السكان .

الرعب والقلق يسود جميع انحاء العالم خوفا من احتمال نسف الكرة الأرضية .

كان تيار الجماهير ينساب هادرا نحو محطة القاهرة لركو ب أى قطار .

وقف أحد المذيعين بجوار سيارة الإذاعة على رصيف المحطة رابط الجأش متزن الأعصاب وفى يده الميكرفون وكأنه يصف حفلا من حفلات المنوعات . قال المذيع :

ــ هنا القاهرة . أيها السادة أذيع على حضراتكم هذا من محطة القاهرة حيث احتشد آلاف المواطنين الهاربين من خطر احتمال انفجار القنبلة . تم حتى الآن ترحيل معظم السكان ، ولقد رفضت الدكتورة زينب منصور مغادرة القاهرة وصممت على البقاء حتى إجلاء آخر شخص فيها ، وسوف تحضر إلى محطة القاهرة لتسافر مع المسافرين فى آخر قطار يغادرها . هاهى ذى أصوات القطارات وقد امتلأت بالركاب الذين يتدافعون للركوب داخل العربات وفوق أسطحها وقد بدت العربات وكأنها مغناطيس محاط ببرادة حديد من الآدميين ، وسوف يتوجه هذا القطار إلى الصعيد . تحرك القطار الآن كما تحركت قبله عشرات القطارات ،ويواصل رجال البوليس البحث عن سارق القنبلة ، ولقد أرسلت الدول الكبرى أفضل ماعندها من رجال البوليس للاسهام فى البحث عن سارق القنبلة .

صاح شاب يقف بالقرب من المذيع قائلا :

ــ انظروا ، شخص يسير فوق سقف المحطة يشبه الشخص المطلوب القبض عليه .

قال المذيع :

ــ أيها السادة ، هذه الضحكات الهستيرية التى استمعتم اليها الآن ، صدرت من ذلك الرجل الذى يسير فوق سطح المحطة .

قال أحد الواقفين بالقرب من المذيع :

ــ يبدو عليه أنه مجنون .

قال آخر :

ـ فى يده شىء لامع يشبه الكرة .
صاح الشاب الأول قائلا فى ذعر :
ـ إنها القنبلة .

ارتفعت الضجة تردد كلمة . «القنبلة» وصاح أحد ضباط الشرطة قائلا :

ـ اقبضوا عليه ، إنه سارق القنبلة .
قال المذيع وفى صوته رعشة :

ـ أيها السادة ، يبدو أن الرجل المجنون الذى سرق القنبلة موجود معنا الآن فوق سقف المحطة . هاهى ذى ضحكاته الجنونية وفى يده شىء مستدير ذو بريق وكأنه كرة من الزجاج فى حجم برتقالة كبيرة يلوِّح بها ، من المحتمل أن تكون القنبلة الرهيبة . رجال الشرطة يصعدون الآن نحو سقف المحطة من جهات متعددة فى محاولة للقبض عليه . أيها السادة وصلت الآن الدكتورة زينب منصور مخترعة القنبلة بصحبة عائلتها فى حراسة مشددة .

سألتْ الدكتورة زينب المذيع قائلة :
ـ ماسبب هذه الضجة ؟
ـ سارق القنبلة قد يكون موجودا هنا فوق سطح المحطة .
ـ أين هو؟
ـ ها هو ذا ، وفى يده شىء قد يكون القنبلة .

عاد الرجل يضحك تلك الضحكات الجوفاء التى لامبرر لها . قالت الدكتورة زينب بلهفة :

ـ إنه هو سارق القنبلة . هو الذى رأيته بالقرب من المعمل ليلة اختفائها ، إنه الفراش «مسعود» والقنبلة فى يده .

ارتفع صوت ذلك المعتوه مطلقاً ضحكاته ثم صاح قائلا :

ـ القنبلة فى يدى . سأقتلكم جميعا . هاهاها .

سُمِعَتْ أصوات غاضبة تنبعث من أماكن مختلفة تصيح قائلة :

ـ اقبضوا عليه .

ـ القنبلة فى يده .

ـ لاتتركوه يقتلنا .

سادت الفوضى وشاع الفزع بين الجماهير المحتشدة ، وبذل رجال البوليس جهدا عنيفا استغرق وقتا طويلا للسيطرة على النظام وظل المجنون يطلق ضحكاته . قالت الدكتورة زينب لأحد ضباط الشرطة الواقف بجوارها :

ـ لابد من التحدث معه بمنتهى الحرص ، إذ إنه لو القى القنبلة من يده فسوف تنفجر وتحدث الكارثة .

قال المذيع :

ـ أيها السادة ، أخيرا ها هو ذا المجرم المجنون سارق القنبلة .

إنه يلوح بها فى يده ويهدد بالقائها ، ولو ألقاها فمن المحتمل أن تنسف الكرة الأرضية وتكون نهاية الحياة على سطح هذا الكوكب .

صاح المجنون قائلا :

ـ سأفرقعها . سألقيها عليكم وأقتلكم كلكم . أنا الملك . أنا ملك الدنيا .

همس المذيع فى الميكرفون قائلا :

ــ رجال البوليس يقومون بحركة التفاف حول اللص محاولين استدراجه لسحب القنبلة من يده بهدوء . إن مستقبل البشرية الآن ومستقبل الكرة الأرضية بأجمعها أصبح فى يد شخص مجنون .

قالت الدكتورة زينب بصوت مختنق بالبكاء :

ــ لم أكن أتصور أن عنائى وسهرى وشقائى طوال هذه السنين ينتهى بأن تقع ثمرته فى يد مجنون !

سمعت الدكتورة زينب صوتا خلفها يقول :

ــ من المؤلم والمرعب أن يسيطر المجانين فى النهاية على مجهود العلماء .

أحسَّتْ أن هذا الصوت مألوف لديها ، التفتت فاكتشفت أن صاحب الصوت هو الدكتور رفعت المرصفاوى زميلها الأستاذ بقسم الكيمياء والذى سبق أن طلب يدها ورفضته .

لو قدر للبشرية النجاة من هذه القنبلة فلن أرفض هذا الرجل لو طلب يدى مرة أخرى .

قال الدكتور رفعت بصوت حزين :

ــ سمعت فى الراديو أنك قررت البقاء فى محطة القاهرة لتسافرى فى آخر قطار يغادرها ، وأن السارق المجنون فوق سقفها ، فحرصت على أن أكون جنبك فى آخر لحظات البشرية .

شعرت بأن الحزن لم يعد الشىء الوحيد الذى يحتل قلبها فى هذه اللحظة بل ، ولأول مرة فى حياتها شعرت بالحب !

قال المذيع :

أيها السادة ، مازال رجال البوليس يحاولون استدراج اللص المجنون

واقناعه بالحسنى أن يسلم القنبلة . ها هو ذا أحد رجال البوليس يقترب منه ويتحدث معه :

ــ ماذا تريد أن تفعل بهذه القنبلة ؟

ــ أريد أن أقتلكم كلكم .

ــ ولماذا تريد أن تقتلنا ؟ هل أسأنا إليك ؟

ــ نعم ، تعذبت كثيرا ولم يكن يعرنى أحد أى اهتمام ، ولكن كل العيون الآن لم تعد ترى غيرى وتبوسون الآن يدى لخوفكم على أرواحكم . خائفون من انفجار القنبلة . اذا سلمتها لكم سأرجع كما كنت أحقر من الصرصار . لا ، لن اتركها من يدى . هى التى جعلت لى هذه القيمة . أنا الآن ملك عظيم . كلكم عبيدى . هل تسمعون صوت الضفادع والصراصير التى فى المحطة ؟ سأرمى القنبلة عليهم لتنفجر وتحصدهم كالذباب . سأقتلكم ياذباب ياقمل ياديدان . سأنتقم منكم .

شدد القبض على القنبلة بكل قوته وقال :

ــ أنا أعلى منكم كلكم . أنتم تحت رجلى . أنا الملك . أنا لا أكذب أبدا ، مادمت قلت سأقتلكم فسأقتلكم . الملوك لايكذبون .

وأجهش بالبكاء . فى هذه الأثناء كانت وكالات الأنباء تبعث برقياتها إلى جميع أنحاء العالم حيث تظهر بخطوط عريضة فى الصفحات الاولى للصحف التى أخذت توالى اصدار ملاحق خاصة لمتابعة الأخبار .

تحول بكاء الرجل إلى ضحكات جنونية وصاح قائلا :

ــ سأقتلكم كلكم قبل غروب الشمس . قبل ظهور القمر . ستغرب الشمس وتظلم الدنيا ياضفادع ياخنافس ياصراصير .

قال أحد رجال البوليس :

ــ ولكنك ستموت معنا .

ـ أنا لايهمنى الموت . لماذا أعيش ؟ أنا فقير وحزين لا أمتلك سوى هذه القنبلة .

وانخرط فى البكاء . قال رجل البوليس :

سلمنى القنبلة وسنعطيك آلاف الجنيهات . ستصبح من الأغنياء .

لن تستفيد شيئا من قتل نفسك وقتل الناس .

ـ أنا لا أصدق كلمة واحدة من كلامكم . أنتم كذابون خائفون على أرواحكم وتريدون حرمانى من ممتلكاتى ، من القنبلة . لم أسمع فى حياتى كلمة طيبة من أحد . ستغرب الشمس ويحل الظلام . أنا لا أخاف من الظلام . كل الناس كانوا يحتقروننى . . ويستهزئون بى ويسخرون منى . هذا الكلام الحلو لم أسمع مثله من قبل . كل هذا من أجل القنبلة . خائفون على أرواحكم . أنتم تحت ملابسكم عرايا . الدنيا مظلمة والظلام كثير . أنا خائف من الظلام . العواصف شديدة . الأحزان كثيرة لم يكن يعطف علىّ أحد . لم يكن يشعر بوجودى أحد . لماذا تفتحون عيونكم هكذا هل تنوون ابتلاعى بعيونكم ؟ انوفكم طويلة ستلمسنى . هل ستقبضون على بأنوفكم ابعدوا أنوفكم عنى . لاتبتلعونى بعيونكم .

عاد يبكى ويقول :

ـ أنا لا أريد أن أعيش . ليس فى حياتى مايستحق الحياة . الدنيا مظلمة . لا توجد لى ممتلكات . القنبلة جعلت لى قيمة . لا أمتلك الآن سوى هذه القنبلة . أصبحت لى ممتلكات .

واستمر فى البكاء . همس المذيع قائلا :

ـ رجال البوليس يقتربون من السارق من الخلف دون أن ينتبه

لوجودهم . أيها السادة ، لقد نبتت الحضارة فى أرض مصر مهد الحضارة ، فهل يقدر للحضارة البشرية أن تنتهى بفعل قنبلة تنفجر فى مصر ؟

ثم صاح المذيع قائلا :

ـ لقد تنبه اللص المجنون لرجال البوليس ، ها هو ذا يلتفت اليهم ويطلق ضحكاته الهستيرية .

صاح مخاطبا رجال البوليس قائلا :

ـ سأقذف القنبلة فى وجوهكم . ابعدو أنوفكم عنى . اتركونى فى حالى .

قال أحد رجال البوليس :

ـ سلمنى هذه القنبلة وستصبح غنيا . ألا تريد أن تكون غنيا ؟ إننا لانكذب خذ هذه الرزمة من الفلوس كدليل على صدقنا . فى هذه الرزمة عشرة آلاف جنيه هات القنبلة وخذ الفلوس .

ارتفع صوت احد المواطنين صائحا :

ـ اضربوه بالرصاص .

وصاح آخر قائلا :

ـ اقتلوا المجرم قبل أن يقتلنا جميعا .

قال الرجل :

ـ أنا تضربونى بالرصاص ؟ اضربوا . أنا لايهمنى الموت . كنت صرصارا مسكينا . لم يكن يعيرنى أحد أى اهتمام . لو سلمتكم القنبلة سأعود صرصارا كما كنت . سأرجع برغوثا أو قملة . أنا صرصار . أنا قملة . أنا ضفدع . أنا ملك .

قال رجل البوليس :

ـ أنا أمد لك يدى بعشرة آلاف جنيه ، ألا تأخذها ؟

ـ لا ، لن آخذها . لو سلمتكم القنبلة ستقبضون على وتأخذون منى فلوسكم وترمونى فى السجن وتعذبونى .

قال المذيع :

ـ أيها السادة ، البشر فى جميع أنحاء الدنيا فى معابدهم فى هذه اللحظة يدعون الله أن ينقذ البشرية من هذا المعتوه . البشر فى محنة ، ترى هل تقدر لنا النجاة ؟

ثم صاح المذيع قائلا بأعلى صوته :

ـ أيها السادة ، لقد نجونا . نجح رجال البوليس فى انتزاع القنبلة من يد هذا المجنون وألقى القبض عليه . إنه يبكى ويصرخ . الدكتورة زينب تبكى . من المفروض أن تكونى سعيدة الآن يادكتورة بعد أن قبضوا على السارق ، لماذا تبكين ؟ ماهو شعورك الآن ؟

قالت الدكتورة زينب وهى تجفف دموعها :

ـ كل ما أتمناه ألاّ تقع مثل هذه القنبلة فى يد مجنون آخر .

عام ١٩٥٥

سيكوسيتـــا

انظروا ، ها هى ذى عاصمة دولة سيكوسيتا التى ولدت فيها ، وأعيش فيها وأعتقد أننى سأموت فيها . إنها مدينة كغيرها من المدن ، بها شوارع وحارات وعمارات وأكواخ ، ومحال تجارية ، وزحام شديد . ولأول وهلة لايرى زائرها مايستلفت النظر أو يثير الانتباه ، إذ إن العجائب والغرائب التى تحدث فى هذه الدولة لاتستطيع العين رؤيتها .

شعرت باكتئاب شديد عندما سمعت دقات الطبول منبعثة من شتى أنحاء المدينة وأصوات المنادين صائحين :

ــ يا أهل سيكوسيتا ، غدا يقام المِهرجان العام ، يا أهل سيكوسيتا ، غدا يقام المهرجان العام . . .

امتلأ قلبى بالحزن والفزع ، ومن عادتى أن أُسرع الخطى عندما أشعر بالحزن أو الخوف . أسرعت الخطى هائما على وجهى فى أنحاء المدينة ، سائرا على غير هدى . وأينما سرت أسمع صراخ المنادين يطاردنى ، ودقات الطبول وكأنها مطارق تهوى على طبلتى أذنىّ وتكاد تمزقهما .

إن هذا المهرجان الذى يقام فى شهر أغسطس من كل عام ربما نكون

أقرب إلى الصواب لو أطلقنا علية «يوم الحزن العام» إذ فى ذلك اليوم الرهيب يرتص أصحاب الطراطير على منصة عالية تقام فى الميدان الكبير يتوسطهم رئيس الوزارء . وأصحاب الطراطير فى دولة سيكوسيتا هم عِلْية القوم ، إذ إن ذوى الجاه والسلطان فى هذه الدولة يتميزون بوضع طراطير على رؤوسهم تزداد طولا مع ارتفاع المستوى الاجتماعى لصاحب الطرطور . ولذا فإن طرطور رئيس الوزراء ، وهو أعلى طرطور فى الدولة ، يبدو فوق رأسه مرتفعا وكأنه إحدى مانعات الصواعق .

فى هذا اليوم ، تعزف الموسيقى ، موسيقى رديئة للغاية كالعادة ، لاتوافق فيها ولا انسجام ، وترفرف الأعلام وتحتشد الجماهير فى الميدان الكبير لرؤية الحادث العظيم الذى يتكرر كل عام . وينتظم شبان الدولة وفتياتها فى طابور طويل ، إنه اليوم الذى يتقرر فيه مصير كل منهم وتحدد فيه معالم مستقبلهم .

معذرة إذا قطعت حديثى لأُحدثكم عن شيء آخر ، فلقد مرت أمامى الآن عربة فاخرة يجرها ستة جياد ، ويقبع فى ركن من أركانها أحد عِلْية القوم . أَجل لابد أنه من ذوى الجاه والسلطان ، إذ إن طرطوره يرتفع فوق رأسه ارتفاعا ملفتا للنظر لدرجة أنه يبرز من ثقب فى سقف العربة صنع خصيصا لهذا الغرض . لقد توارت العربة الآن عن نظرى وسأعود للحديث عن المهرجان .

ماذا كنت أقول ؟ آه ، تذكرت . كنت أقول إن شباب البلد ذكورا وإناثا يمرون أمام رئيس الوزراء وعلى ظهورهم أرقام مسلسلة كتلك التى نراها على ظهور لاعبى كرة القدم .

لم يغمض لى جفن طوال الليل وسهرت مع أختى التى تصغرنى بعام ، تواسينى وتحاول رفع روحى المعنوية قائلة :

ـ من يدرى ؟ أليس من الممكن أن تتحقق أمنيتك وتصبح موسيقيا ؟

بدأت الطبول تدق الآن دقات رتيبة ذات إيقاع بطىء يشبه إلى حد كبير دقات الطبول فى الجنازات الرسمية ، وبدأ سير الطابور . كان الطابور طويلا ولكننى كنت فى المقدمة ، إذ لم يكن أمامى سوى خمسة أفراد ، ولذا فالرقم الذى كان مكتوبا على ظهر القميص الذى أرتديه كان رقم «ستة» .

هل لاحظتم وجود هذا الشىء الذى يضعه كل واحد من الشباب تحت إبطه ؟ إن الشاب رقم واحد ، مثلا ، يتأبط منشارا صغيرا وهذا يدل على رغبته فى أن يصبح نجارا . والذى يليه يتأبط ساعة ، وهذا بطبيعة الحال يدل على رغبته فى أن يصبح طبيبا . والثالث يضع تحت أبطه ميزانا ، وهذا دليل على رغبته فى مزاولة مهنة المحاماة أو النيابة أو القضاء . أما الرابع ، كلا ، بل الرابعة ، فهى فتاة ذات وجه رائع الجمال ، ولكنها مسكينة ، إنها تقف فى الطابور متوكئة على عصا ربما تكون ضحية مرض شلل الأطفال أو غيره من الأمراض ، لست أدرى ، ولكن الذى أعرفه أنها تتأبط رواية«ذهب مع الريح» أى أن أمنيتها أن تصبح مؤلفة . وخلفها فى الطابور فتاة أخرى ، لاتستطيع السير بمفردها لأنها عمياء ، ولذا فلقد أصطحبت معها أمها الواقفة الآن بجوارها لتسحبها عندما يتحرك الطابور . كانت تحمل تحت أبطها ورقة كبيرة مكتوب عليها بخط واضح أنيق كلمة «مطربة» . أما أنا فلقد كنت أحمل تحت أبطى آلة موسيقية ، الكمان ، لأننى أعشق الموسيقى وأتمنى أن أصبح موسيقيا .

لا داعىَ لاضاعة وقتكم الثمين فى ذكر مايحمله باقى الشبان والفتيات . انطلق النفير يعلن سير الموكب ، وسار الموكب على انغام الموسيقى الرديئة التى تشبه إلى حد كبير طرقات تنبعث من حانوت حداد أو سمكرى سيارات . وسار الشبان والفتيات بخطى بطيئة ووجوه شاحبة ، ولست أدرى لماذا هى شاحبة . جميع الوجوه شاحبة ربما يكون ذلك راجعا لسوء التغذية أو الخوف من المصير الرهيب الذى ينتظرهم فى صندوق الدولة المقدس ، لست أدرى .

ولابد أن أشرح لكم ماهو صندوق الدولة المقدس هذا ، إنه صندوق كبير الحجم بلا غطاء موضوع أمام رئيس الوزراء . فى هذا الصندوق المقدس كما يسمونه توجد مئات الأوراق . فى كل ورقة من هذه الأوراق كتبت مهنة من المهن : نجار ، حداد ، كمسارى ترام ، ترزى ، طبيب ، محام ، قاض ، رسام ، موسيقى ، بهلوان . . . الخ . وكل من يصل إلى صندوق الدولة المقدس من السائرين فى الطابور يضع يده فى الصندوق ويلتقط ورقة دون أن يدرى شيئا عما هو مكتوب فيها ، إذ إن الورقة مطوية أربع طيات . ثم يفرد الورقة ويقرأ بأعلى صوته المهنة المكتوبة فيها فتصبح مهنتة التى يتحتم عليه مزاولتها طَوال حياته بأمر الدولة ، بصرف النظر عن رغباته وأمنياته ومواهبه ومؤهلاته .

وصل إلى الصندوق المقدس الشاب رقم واحد الذى يتأبط المنشار ، فدقت الطبول دقات سريعة الإيقاع تشبه تلك التى كانت تدق عند تنفيذ حكم الإعدام أيام الثورة الفرنسية ، ثم توقفت الدقات . وضع الشاب يده فى الصندوق والتقط ورقة ثم فردها بلهفه وقرأ مافيها بصوت مرتفع ، كما تنص التقاليد العريقة فى سيكوسيتا . كانت المهنة المكتوبة فى الورقة

«ترزى» وكما تقضى التعليمات ركع الشاب أمام رئيس الوزراء الذى وضع طرف عصا ، يحملها فى يده ، على رأس الشاب قائلا :

ـ سر على بركة الله فأنت ترزى حتى آخر رمق فى حياتك .

جلس رئيس الوزراء وقام الشاب وسار يتعثر فى خطاه ليقدم نفسه إلى «إدارة القوى العاملة» ليبدأ مزاولة المهنة التى قررها له صندوق الدولة المقدس .

وأقبل الشاب الثانى الذى يحمل تحت إبطه «سماعة» . التقط ورقة ، فتحها بيد مرتجفة وقرأها فإذا المهنة المكتوبة فيها «ساعى بريد» . ركع أمام رئيس الوزراء الذى وضع عصاه على رأس الشاب وقال ؟

ـ سر على بركة الله فأنت «ساعى بريد» حتى آخر رمق فى حياتك .

وجاء دور الثالث . الذى يحمل الميزان تحت أبطه . دس يده فى الصندوق والتقط ورقة فاذا بها «عربجى حنطور» ركع أمام رئيس الوزراء الذى وضع طرف عصاه على رأسه وقال :

ـ سر على بركة الله فأنت «عربجى حنطور» حتى آخر رمق فى حياتك .

ثم جاء دور الفتاه العرجاء . كانت الورقة التى التقطتها تحمل كلمتى «راقص باليه» وضع الحاكم طرف عصاه على رأسها وهى راكعة أمامه وقال :

سيرى على بركة الله فأنت راقصة باليه حتى آخر رمق فى حياتك .

وعندما تقدمت الفتاة الضريرة مستندة على يد أمها ، أخذت تتحسس

الصندوق ثم دست يدها والتقطت ورقة . أخذت أمها الورق وقرأتها بصوت مرتجف فاذا المهنة التى من نصيبها «اصلاح الساعات» . خرت الفتاة ساجدة أمام رئيس الوزراء فاصطدم أنفها بحذائه . وضع عصاه على رأسها وقال :

ـ سيرى على بركة الله فأنت «مصلحة ساعات» حتى آخر رمق فى حياتك .

قامت الفتاة وسارت مطأطئة الرأس وقد أمسكت الأم بذراع ابنتها التى تعثرت وكادت تنكفىء على وجهها وهى تهبط درجات المنصة ، فأسرعت أمها واحتضنتها باكية .

أسرعت دقات قلبى ، فلقد جاء دورى . وضعت يدى فى صندوق الدولة المقدس والتقطت ورقة . قرأت مافيها بلهفة فاذا المهنة التى قررها لى هى «رسام» .

كان من المفروض أن أركع أمام رئيس الوزراء ، ولكننى لم أفعل . ظللت واقفا وقد شعرت بدوار . أخذت أدير بصرى فى انحاء المكان فى ذهول وانعقد لسانى فلم استطع أن أنبس بكلمة . كانت جميع العيون مصوبة نحوى فى دهشة وترقب . وارتفع من بين عِلْية القوم صوت يقول :

ـ كيف يجرؤ هذا المخلوق على عدم السجود أمام رئيس الحكومة ؟

لم أستطع معرفة صاحب الصوت . نظرت إلى الجماهير وكأننى أستنجدهم . ولكن وجوههم كانت خالية من أى تعبير وكأنهم موتى . بغتة ، وجدت نفسى أصيح بأعلى صوتى قائلا :

ـ كلا ، كلا ، لن أصبح رساما ، بل سأكون موسيقيا ، فأنا أعشق الموسيقى ولا أصلح للرسم . إننى مصاب بعمى الألوان .

انبعثت من الجماهير همهمه ، تحولت إلى زمجرة . التف حولى رجال الشرطة للقبض علىّ ، ولكن رئيس الوزراء أشار اليهم بيده قائلا :

ـ اتركوه ، لاتلقوا القبض عليه ، ينبغى على الحاكم أن يفسح صدره لصرخات المحكومين .

ثم التفت نحوى وقال :

ـ ألا تشكر الصندوق المقدس الذى جعلك رساما ولم يجعلك زبالا أو متسولا .

شعرت بيأس مظلم . أمدنى اليأس بمزيد من الشجاعة فقلت :

ـ أنا أفضل الموت على مزاولة مهنة لاتتفق مع ميولى وموهبتى . لابد أن أصبح موسيقيا . لن أكون رساما .

فى هذه اللحظة رأيت بنادق رجال الشرطة تصوب نحوى منتظرة الأمر باطلاق النار . شعرت برغبة فى البكاء ورغبة فى الموت فى الوقت نفسه ، ولكن رئيس الوزراء أمرهم بعدم إطلاق الرصاص . لم أفرح لعدم اطلاق الرصاص ، بل شعرت بالحزن والعذاب الذى يطحن الإنسان عندما يومض فى القلب قبس ضئيل من الأمل بعد أن يكون قد بلغ مرحلة اليأس المريح . قال رئيس الوزراء :

ـ سأثبت لك ولجميع هذه الجماهير أن صدرى لايضيق بحماقات السفهاء الذين لايعرفون مصلحة أنفسهم . سأخالف لأول مرة التقاليد العريقة لدولة سيكوسيتا التى حرصنا عليها منذ أجيال عديدة . سأعطيك

الفرصة لتصبح موسيقيا كما تريد لو اقنعتنا وأقنعت هذه الجماهير بموهبتك الموسيقية التي تدعيها . اعزف لنا لحناً بهذه الكمان التى تحت إبطك . إذا أعجب لحنُك الجماهير فسأمنحك الحق فى أن تكون موسيقيا ، فهذه الجماهير التى أمامك هى التى ستستمع لموسيقاك طَوال حياتك ، ومن الظلم أن أفرض عليهم سماع موسيقى لايرغبون فى سماعها هيا ، اعزف لحنا .

ضبطتُ أوتار الكمان وعزفت لحنا رائعا يهز أوتار القلوب . انتظرت أن تصيح الجماهير وتهلل إعجابا به ، ولكن وجوههم ظلت جامدة بلا أى تعبير . لم ينبس أحد منهم بكلمة . عزفت لحنا آخر أجمل منه ، ولكن الجماهير التى اعتادت سماعَ الموسيقى الرديئة التى يعزفها الحدادون والخبازون والسمكرية الذين فُرضت عليهم مهنة للموسيقى عن طريق صندوق الدولة المقدس لم تعجبهم موسيقاى . اهتزت طراطير علية القوم وصاح واحد منهم قصير عريض وقد نفرت عروق رقبته الغليظة من الغضب قائلا :

– هل تسمى هذه موسيقى ؟ ألا تخجل من نفسك ؟

وصاح واحد من الجماهير قائلا :

– أيها العنيد المغرور ، هل تعرف موهبتك أكثر مما يعرفها صندوق الدولة المقدس .

اشتد هياج الجماهير وصراخهم مطالبين بالقبض علىّ ورميى بالرصاص أو الزج بى ، على الأقل ، فى ظلام السجن لأكون عبرة لمن يعتبر .

قالى لى رئيس الوزراء وعلى فمه ابتسامة استهزاء وفى حديثه نبرة سخرية :

ـ موسيقاك لم تعجب الجماهير . هل اقتنعت الآن أو مازلت فى حاجة لمزيد من الإقناع ؟ لن ألقى القبض عليك ، ولن أزهق روحك الشريرة المتمردة ، فالحاكم ينبغى أن يكون عطوفا على المحكومين حتى ولو كانوا من السفلة المغرورين أمثالك . وعلى أية حال ، اليس الرسم فنا كالموسيقى ؟ كلها فنون ولافرق بينهما .

وصاح أحد أصحاب الطراطير قائلا :

ـ لقد أخطأت فى حق الدولة وأهنت صندوق الدولة المقدس وأظهرت غرورا ورعونة وتبجحا لم يحدث له نظير فى تاريخ سيكوسيتا الموغل فى القدم . قل بأعلى صوتك : «أنا مخطىء وصندوق الدولة المقدس لايخطىء» .

كان لابد أن أطيعه حتى لاتهجم علىّ جموع الجماهير وتمزق جسدى . أنا لا أخشى الموت ولكننى لا أطيق الألم . واقتنعت بأن هذه الجماهير التى فقدت القدرة على تذوق الموسيقى العذبة والفن الأصيل لاتستحق أن أعزف لها ألحانى ورأيت أختى بين الجماهير تصرخ وتولول خوفا علىّ من العقاب ، فصحت قائلا :

ـ أنا مخطىء وصندوق الدولة المقدس لايخطئ .

وصاح رئيس الوزراء قائلا :

ـ هيا اركع . لماذا تقف محملقا فى وجهى هكذا ؟

ركعت . ووضع طرف عصاه على رأسى قائلا :

ـ سر على بركة الله فأنت رسام حتى آخر رمق فى حياتك .

ثم قمت ، ووضعت الكمان تحت إبطى واستمر الموكب . ومن العجيب أن تاريخ دولة سيكوسيتا لم يسجل حالة واحدة ، ولو عن طريق

المصادفة ، تطابقت فيها المهنة التى يلتقطها الشاب أو الفتاة من الصندوق مع الشيء الذى يحمله تحت إبطه . ومع ذلك فالامور تسير فى سيكوسيتا ، ولا أحد يعلم كيف تسير .

تحتم علىّ الآن أن أنشىء استديو للرسم لأمارس فيه مهنتى التى فرضتها علىّ الدولة عن طريق صندوقها المقدس . استأجرت غرفة تقع بين دكان نجار ومحل جزارة وجعلتها مرسماً لى . اشتريت الألوان وجميع أدوات الرسم ، على الرغم من إصابتى بعمى الألوان . وضعت اللوحة على الحامل ورأيت أن أبدأ بمحاولة رسم أختى ، وهى فتاة رقيقة تنظم الشعر وقرأت معظم دواوين الشعراء . وقفت أمامى استعدادا لرسمها . وفى أثناء محاولة تحضير الألوان ومزجها قفزت قطتنا المدلّلة وأخذت تتمسح فى قوارير الألوان فسكبتها على المائدة وتلطخت فروتها بجميع ألوان قوس قزح . وفى ثورة غضب أمسكت بالقطة وقذفت بها فى اللوحة ، فلتطخت اللوحة ببقع عديدة من الألوان المتنافرة . غادرت المرسم غاضبا لأغسل يدى من الألوان التى علقت بها قائلا :

ــ يالروعة الاستهلال !

ظلت أختى واقفة فى مكانها فى انتظار عودتى ، وفى أثناء غيابى اقتحم المرسم رجلان ، هما : مفتش الدولة الأكبر ومفتش الدولة الأصغر . إنهما يطوفان للاطمئنان على حسن سير الأعمال الفنية فى الدولة .

نظرا إلى اللوحة الملطخة بالألوان . قال المفتش الأكبر للمفتش الأصغر :

ــ هل تفهم شيئا من هذا الرسم ؟

ــ كلا ، لا أفهم منه شيئا .

ــ ولا أنا ، ومادمنا نحن الاثنين لانفهمه ولانفقه منه شيئا فلا بد أنه عمل رائع . هيا نحاول فهمه وتحليله حتى لانتهم بالجهل والغباء . انظر ، ألا ترى هذه البقعة الزرقاء التى تعلو البقعة الصفراء ؟

ــ نعم ، أراها .

ــ ماذا توحى اليك ؟

ــ توحى بأمل بعد يأس .

ــ ولماذا لاتوحى بيأس بعد أمل ؟

ــ ربما ، وهذه البقعة السوداء ذات الجناحين فوق هذا الجزء الأخضر المستدير ، أنها ترمز لوحى يرفرف فوق رأس فنان .

ــ ياللروعة ، ياللجمال ، ياللعبقرية .

ــ إنها أجمل لوحة سريالية رأيتها فى حياتى . إننى أرشحها لنيل الجائزة الأولى فى السريالية وتعليقها فى مدخل متحف الدولة .

ــ إنها جديرة بذلك حقا .

حمل المفتش الأصغر اللوحة وخرج بصحبة المفتش الأكبر لتعليقها فى مدخل متحف الدولة ومنحها أعلى جائزة . ظلت أخت الفنان تشيعهما ببصرها مشدوهة وقد التزمت الصمت ولم تدر ماذا تقول .

دخلت فلم أجد اللوحة فى مكانها فوق الحامل ، فسألت أختى :

ــ أين اللوحة ؟

أخبرتنى بما حدث . ضربت كفا بكف وصحت قائلا :

ــ غير معقول . غير معقول مطلقا . لقد حدث هذا عندما قذفت القطة فى اللوحة .

فابتسمت أختى وقبلتنى قائلة :

ــ مبروك . ألف مبروك . انتهى الأمر ونالت لوحتك الجائزة الاولى فى

السرياليزم . هل تفهم أكثر من المفتش الأكبر والمفتش الأصغر؟

واظبت على تلطيخ اللوحات بألوان متنافرة لامعنى لها وأسهمت القطة فى معظمها ونلت حظوة كبيرة لدى المسئولين عن الفنون التشكيلية فى الدولة ، وأصبحت لى مدرسة متميزة فى الرسم بهذه الطريقة أطلقت عليها اسم «مدرسة القطة» ولم يعرف أحد علاقة القطة بهذا الموضوع سوانا نحن الاثنين ، أختى وأنا .

مر عام وأقبل شهر أغسطس وجاء دور أختى الشاعرة لتلتقط من صندوق الدولة المقدس الورقة التى ستقرر مستقبلها . دقت الطبول وصاحت الحناجر معلنة عن موعد مهرجان الدولة المقدس الذى سيقام غدا . فى هذه الليلة ظلت أختى ساهرة تذرف الدمع ولا أمل لديها مطلقا فى أن تصبح شاعرة ، إذ إن الدولة تنسى دائما أن تضع فى صندوقها المقدس ولو ورقة واحدة تحمل كلمة «شاعر» .

سارت فى الموكب حاملة تحت إبطها ديوان شعر كبير الحجم ، ولكن الورقة التى التقطتها من الصندوق المقدس قررت أن تكون مهنتها «جرسونة» فى أحد الفنادق .

استلمت أختى عملها الجديد فى الفندق وارتدت فستانا قصيرا أزرق يرتفع فوق الركبة بمقدار خمسة عشر سنتيمترا كما تنص لائحة الفندق .

أخذت تقدم الطعام والشراب لرواد مطعم الفندق ذى الخمسة نجوم . أما جميع دواوين الشعر التى كانت فى حوزتها فلقد خبأتها فى ركن مظلم بالسندرة جنب آلتى الموسيقية ، الكمان ، التى علاها التراب . لقد أصبح نظم الشعر وقراءته محرما على أختى كما سبق أن حرم علىّ عزف الموسيقى .

كان رواد الفندق لايدركون سبب الحزن الدفين الذى يطل من عينى أختى من آن لآخر والدموع التى تنساب منهما أحيانا .

وحانت فرصة ذهبية تتيح لى عزف الموسيقى التى يهفو لها قلبى ويحن اليها ، قالت لى أختى ذات يوم وعلى ثغرها ابتسامة :

ـ هل تحب أن تعزف موسيقى ؟

كنت فى هذه اللحظة منهكا فى تلطيخ إحدى لوحاتى بألوان لا أكاد أميزها التفت نحو أختى التفاتة سريعة كالتفاتة حمامة وقلت :

ـ هذا سؤال لايحتاج إلى إجابة . ولكن كيف أعزف موسيقى والدولة تحرم علىّ ذلك ؟

ـ سيقام حفل تنكرى راقص فى الفندق ، والفندق فى حاجة إلى فرقة موسيقية للعزف فى أثناء الحفل ، وسيضع جميع الموسيقين على وجوههم أقنعة تخفى شخصياتهم ، فلماذا لاتشترك فى العزف أنت وبعض أصدقائك من ذوى الموهبة الموسيقية الأصيلة الذين أجبرهم صندوق الدولة على أن يصبحوا نجارين وحدادين وخبازين وجزارين ؟ فى هذه الحالة لن يكتشف أحد شخصياتكم .

ـ فكرة رائعة . سأسرع لأزف هذه البشرى إلى اصدقائى الموسيقيين .

ـ سيستمتع رواد الفندق فى هذه الليلة بالاستماع إلى موسيقى حقيقية من موسيقيين موهوبين .

ـ اصطف فى صدر القاعة الكبرى بالفندق ثلاثون عازفا تختفى وجوههم خلف أقنعة مختلفة الأشكال ، فى يد كل منهم آلته الموسيقية ، وفى يدى الكمان التى أخرجتها من مخبئها ونفضت عنها الغبار .

بدأ العزف ، ويبدأ الرقص . انسابت من الآلات الموسيقية أنغام سماوية وكأنها من عزف الملائكة .

ولكن آذان الجماهير التى اعتادت سماع الموسيقى الرديئة وتكيفت معها لم تستسغ هذه الألحان الجميلة ونفرت من سماعها . ارتفعت بعض الأصوات معلنة استياءها من العزف . ثم تحول الاستياء إلى غضب ، وتحول الغضب إلى معركة بالأيدى نشبت بين الجماهير وأفراد الفرقة الموسيقية .

فى أثناء المعركة سقط القناع من على وجهى ، كما سقطت بعض الاقنعة الأخرى وصاح واحد من الجماهير قائلا :

ــ ياللعار . إنهم ليسوا موسيقيين . إن هذا الشاب رسام ، وهذا خباز وذاك نجار ، وهذا طبيب ، وهذا كناس ، وهذا مهندس إنهم مزورون .

وصاح آخر قائلا :

ــ هذا هو سر رداءة عزفهم . كيف يجرؤون على مخالفة صندوق الدولة المقدس ويزاولون مهنة لم يخلقوا لها ولم يسمح بها الصندوق ؟ لقد سادت الفوضى .

انقض رجال الشرطة على أفراد الفرقة الموسيقية محاولين إلقاء القبض عليهم ولكن معظمهم تمكن من الهرب . وألقوا القبض علىَّ ، ومثلت أمام المحكمة المقدسة العليا . حكم على بالسجن ثلاثين عاما لمزاولة مهنة غير التى قررها لى صندوق الدولة المقدس ، على أن تصحبنى فى السجن آلة الكمان باعتبارها شريكة لى فى اقتراف هذه الجريمة .

فى السجن توطدت أواصر الصداقة بينى وبين السجان ، إذ إن ذلك

السجان رسام موهوب وكان يتمنى أن يزاول هذه المهنة ولكنه أصبح سجانا بفضل صندوق الدولة المقدس .

كان السجان يزورنى خلسة فى زنزانتى ويرسم لى صورا رائعة ، كما كنت أعزف له على الكمان ألحاناً شجية .

وفى احدى الليالى اقترح السجان أن يهيىء لى وسيلة للهرب من السجن على أن نهرب معا ، أنا وهو !

فى مساء اليوم المتفق عليه تسلقنا معاً سور السجن . ولم أنس الكمان التى حرصت على أخذها معى . تنبه أحد الحرس . أطلق الرصاص فأصاب السجان الذى سقط جثة هامدة .

لم أصدق أننى نجوت . ظللت أعدو مبتعدا عن السجن . أبصرت سيارة متجهة نحو الحدود ، حدود سيكوسيتا أشرت للسائق فتوقفت السيارة . قَبِل صاحبُها أن يحملنى معه حتى آخر حدود سيكوسيتا .

عندما أشرفنا على الحدود رأيت قصرا على ربوة . فى الطابق العلوى للقصر نافذة مضاءة مفتوحة على مصراعيها ، يبدو منها طيف فتاة تعزف على كمان . شعرت برغبة فى اللجوء إلى هذا القصر . أبديت رغبتى لصاحب السيارة فى مغادرتها فى هذا المكان فتوقفت السيارة وهبطت منها .

انطلقت أعدو نحو القصر . كانت الفتاة مازالت واقفة تعزف على الكمان لحنا جميلا . وجدت باب حديقة القصر مفتوحا ، فدخلت . جلست على دكة خشبية بجوار نافورة مستندا على جذع شجرة ضخمة . ظللت منصتا إلى الموسيقى العذبة المنبعثة من النافذة ثم غلبنى النوم فنمت .

وجدت نفسى واقفا على خشبة مسرح أقود فرقة موسيقية ضخمة أمام حشد هائل من الجماهير . كانت الموسيقى رديئة غير متوافقة ونشازا ، وكنت غير راض عن هذا العزف السيىء ، وكلما أمرت العازفين باعادة العزف ازداد سوءا .

نظرت إلى صالة المسرح والألواج والبناوير فإذا بها مكتظة بالجماهير لايوجد كرسى واحد خال ، ولكن جميع الكراسى فى وضع معكوس يجعل الجالسين عليها مديرين ظهورهم للمسرح ! كانوا يتحدثون فيما بينهم بأصوات مرتفعة ويتبادلون النكات ويضحكون محدثين بذلك ضجة تطغى على صوت الموسيقى النشاز التى تعزفها الفرقة بقيادتى .

يئست من قدرة الفرقة على العزف السليم فجلست على خشبة المسرح ووضعت رأسى بين كفى وأجهشت بالبكاء .

فى هذه اللحظة صعدت على خشبة المسرح طفلة فى نحو التاسعة تحمل فى يدها باقة من الأزهار . قبلتنى فى جبهتى ومسحت دموعى بمنديلها . قمت ونظرت إلى الطفلة مشدوها . كانت ملامحها تشبه إلى حد كبير ملامح أختى .

سلمتنى باقة الأزهار قائلة :

ـ هذه تحية لك من شخص مجهول . لاتيأس ولا تحزن . إن فرقتك تضم أعظم الموسيقيين وأمهر العازفين ، ولكن كل واحد منهم يعزف على آلة غريبة عنه لم يعتد العزف عليها ، ولو تبادلوا الآلات فيما بينهم واختار كل واحد الآلة التى يحسن العزف عليها لانسابت الموسيقى عذبة شجية .

وتقدمت نحو العازفين قائلة :

ـ أنت مثلا ، ينبغى أن تترك البيانو وتعزف على الفلُوت . وأنت اترك

الكمان واعزف على البيانو وأنت اترك هذه الطبلة واعزف على الكمان . . .

واستمرت تغير وتبدّل حتى أصبح فى يد كل عازف آلة غير التى كانت معه ، ثم قالت لى :

ــ هيا اعزفوا الآن .

وهبطَتْ الطفلة من فوق خشبة المسرح وجلست على الكرسى الذى كان خاليا فى الصف الأول .

وضعْتُ باقة الأزهار على خشبة المسرح وواجهتُ العازفين مستعدا لقيادة الأوركسترا ، ولكننى سمعت الطفلة تصيح موجهة حديثها للجماهير قائلة :

ــ ألا تخجلون من أنفسكم ؟ أديروا وجوهكم نحو المسرح وأنصتوا للموسيقى .

فدارت جميع الكراسى وكأنها تدور على قرص متحرك وساد الصمت واتجهت العيون جميعها نحو خشبة المسرح . لاحظت أن جميع العيون شديدة الاتساع بشكل غير مألوف ، والآذان تشبه آذان الأرانب ، فسرت فى جسدى رعشة ، ولكننى تغلبت على الخوف ورفعت عصا القيادة استعدادا لبدء العزف ، وبدأ العزف وإذا بالموسيقى التى كانت نشازا تتحول إلى أنغام تهز أعماق النفوس .

عندما انتهى العزف دوى فى القاعة صوت التصفيق وانطلق الهتاف من الحناجر . انحنيت لتحية الجماهير ، ثم أشرت لأعضاء الفرقة فقاموا وأخذوا ينحنون للجماهير .

بدأتُ أستعد لمغادرة المسرح ، ولكن الطفلة قفزت على خشبته مرة أخرى وقالت لى :

ـ لاتخرج من الباب العادى حتى لاتلتف الجماهير حولك ويضغطون عليك ويطبقون على صدرك فتلفظ آخر أنفاسك ضحية إعجابهم الشديد بك . هيا معى أقودك إلى باب خلفى لا يعرفه أحد .

قادتنى الطفلة من يدى وخرجنا معا إلى الشارع من ذلك الباب الخلفى .

ما كدت أرى الشارع حتى أذهلنى جماله . إنه شارع أرضه غير منبسطة ، بل تعلو ثم تهبط ثم تعود تعلو ثم تهبط ، وكأنه أحد شوارع مدينة سان فرنسسكو بأمريكا أو شفيلد بانجلترا . تحف به من الجانبين أشجار لم أر لها مثيلا . وعلى مسافات متقاربة توجد محطات للأوتوبيس عجيبة المنظر ، تشبه الأباجورات . رأيت الأتوبيسات تسير ثم تقف عند المحطات بضع لحظات ثم تعاود السير ، ولكن على الرغم من ازدحام الشارع بالمارة فإن أحدا لم يحاول ركوب أى أوتوبيس . كانت جميع الأوتوبيسات تسير خالية من الركاب ، لا يوجد بها سوى السائق وكمسارى يحمل آلة موسيقية نحاسية ضخمة ينفخ فيها فتنبعث منها أنغام تشبه أنغام موسيقى الجاز .

قلت للطفلة :

ـ إلى أين نحن ذاهبان ؟

ـ إلى أختك . انها فى انتظارنا لتتلو علينا احدى قصائدها .

— هيا نركب هذا الأوتوبيس .

ضحكت الطفلة وقالت :

الأوتوبيس ؟ الأوتوبيسات فى هذه المدينة ليست للركوب .

— ليست للركوب ؟! ما فائدتها إذن ؟

— إنها للزينة !

— للزينة ؟ الأوتوبيسات فى أية مدينة وسيلة من وسائل النقل .

— إلّا فى هذه المدينة . انها هنا تسير خالية دون أن يفكر أحد فى ركوبها

— ولماذا ؟

— منذ أجيال عديدة ، عندما سارت الأوتوبيسات لأول مرة فى أنحاء المدينة أسرع الجميع متزاحمين على ركوبها دفعة واحدة ، فانحشروا فى أبوابها ولم يستطع الركوب أحد . ومنذ ذلك الحين تسير خالية . ومع مرور الأيام نسى الناس وظيفتها وأصبحت للزينة .

— وكيف نصل إلى منزل أختى ؟ هل توجد تاكسيات فى هذه المدينة ؟

— عدد الركاب يزيد على عدد التاكسيات ، ولذا فلن نجد تاكسيا خاليا فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل .

— وما العمل ؟

— نركب هذا البالون .

نظرت فوجدت بالونا أزرق فى حجم الفيل معلق به سلة صفراء تتسع لاثنين .

ركبنا وجلسنا على مقعدين متقابلين . قلت للطفلة :

— ولكننى غير معتاد ركوب البالونات ولا خبرة لى بقيادتها .

— اعزف موسيقى بهذه الكمان تجد البالون يرتفع ويسير فى الاتجاه الذى تريده .

غير مصدق لكلام الطفلة بدأت أعزف لحنا ، وإذا بالبالون يرتفع . شعرت بخوف وحاولت الهبوط فلم أستطع . قالت الطفلة .

— لا تخف ، استمر فى العزف .

واصلت العزف ، وفى هذه اللحظة استيقظت من نومى ، وإذا باللحن الذى كنت أعزفه ينبعث من النافذة التى وقفت خلفها الفتاة العازفة على الكمان .

انتفضت واقفا واتجهت نحو سلم القصر . صعدت درجات السلم المؤدية إلى الباب وضغطت على زر الجرس . اختفت الفتاة من النافذة وسمعت وقع أقدام مهرولة على السلم الداخلى للقصر . ثم بدأت أسمع دقات غير منتظمة . فُتِحتْ طاقة صغيرة مستديرة فى الباب وأطل منها وجه رجل فى نحو الستين يلبس نظارة سميكة العدسات . قال : .

— من الطارق ؟

— إنسان مسكين هارب من السجن جوعان وعطشان .

أسرع الرجل باغلاق الطاقة . عاودت الضغط على زر جرس الباب بإصرار بعد نحو خمس دقائق فتحت الطاقة مرة أخرى وأطل منها وجه الرجل . قال بانفعال غاضب :

— ماذا تريد ؟ اغرب عن وجهى . أنا لا أفتح منزلى لايواء المجرمين خريجى السجون .

قلت وفى حديثى نبرة استعطاف :

— ألا تسألنى عن سبب دخولى السجن ؟

بصبر نافد قال :

— لماذا سجنت ؟

— عزفت موسيقى ، وكان صندوق الدولة المقدس قد قرر لى أن أكون رساما إلى آخر رمق فى حياتى .

انفرجت أسارير وجه الرجل صاحب القصر وارتسمت على فمه ابتسامة عريضة وفتح الباب قائلا :

— ادخل ، ظننتك المفتش الأصغر . إن حالتك تشبه حال ابنتى .

دخلت وجلست مع الرجل فى بهو لم أر فى حياتى أروع ولا أفخم منه . كان صوت الدقات لايزال منبعثا من غرفة مجاورة . قام الرجل بصعوبة وقال لابنته :

— كفّى عن الدق ، لم يعد له لزوم . لا تصدعى رأس ضيفنا . إنه موسيقى مثلك وليس مفتش الدولة .

فتوقف الدق . قال الرجل :

ـ قصة ابنتى تشبه قصتك ، فهى تعشق الموسيقى وتجيد عزفها ، ولكن «صندوق الدولة المقدس» أراد لها أن تصبح إسكافيا ، فتركت الموسيقى التى حرصت عليها وأخذت تمارس إصلاح الأحذية . كان قلبى يتمزق وأنا أراها تبكى ليلا ونهارا لحرمانها من عزف الموسيقى ، فبنيت لها هذا القصر عند حدود سيكوسيتا بعيدا عن العمران حتى نكون بمنأى عن مفتشى الدولة لأهيىء لها حرية عزف الموسيقى كما تشتهى . ولما سمعت جرس

الباب خيل اليها أنك المفتش فتركت الكمان وأسرعت لمزاولة المهنة التى فرضت عليها ، إصلاح الأحذية .

ثم نادى ابنته قائلا :

ـ تعالى ياعزيزتى رحبى بضيفنا .

أقبلت فتاة رائعة الجمال ، بنفسجية العينين بيضاء البشرة ذات ابتسامة عذبة ، صافحتنى بحرارة . قال لها أبوها :

ـ إنه هارب من السجن الذى زجوا به فيه لأنه عزف موسيقى بعد أن أمره صندوق الدولة أن يكون رساما . إنه يهوى الموسيقى مثلك . وهو الآن جوعان وظمآن ، فارو ظمأه وأعدى له طعاما .

أسرعت الفتاة باحضار دورق من الماء المثلج ابتلعتُ نِصفه ، ثم اختَفتْ داخل المنزل وظللت جالسا مع أبيها . بعد قليل أقبلت ودعتنى لتناول الطعام الذى التهمته فى بضع دقائق .

بقيت فى ضيافتهم نحو ثلاثة أشهر شعرت فى أثنائها وكأننى أحد أفراد العائلة وعلمت أن والدة الفتاة توفيت منذ نحو عامين . كنت أعزف للفتاة وهى تعزف لى .

شعرت بأن روحى قد بدأت تسرى فى جسدى بعد أن كنت أحيا بلا روح .

وحدث ما كان من المتوقع أن يحدث ، أحببت الفتاة وأحبتنى وفى أحد الأيام قلت لها :

ـ أرى مظاهر الغنى والبذخ فى قصركم هذا ، فما هى مهنة والدك ؟

قالت بفخر واعتزاز :
ــ تاجر روبابيكيا .
ــ تاجر روبابيكيا ؟ ! هذا آخر ما كنت أتوقعه .
ــ يقول والدى إن هذه هى الحسنة الوحيدة لسيكوسيتا !
ــ كيف ؟

ــ يتمتع أبى بموهبة نادرة المثال فى التأليف القصصى والروائى . خلق موهوبا فى هذا الفن . وكان يتمنى بطبيعة الحال أن يكون مؤلفا . ولكن ، منذ أعوام بعيدة ، عندما ذهب يوم المهرجان العام لالتقاط مهنته من صندوق الدولة المقدس ، كانت المهنة التى من نصيبه «تاجر روبابيكيا» . منذ تلك اللحظة حُرّم عليه التأليف وأصبح ممنوعاً من الكتابة واضطر لممارسة مهنته كتاجر روبابيكيا ، يشترى الأشياء القديمة بثمن زهيد ويصلحها ليبيعها بسعر مرتفع . إن بدروم منزلنا هذا ملىء بمئات المؤلفات الرائعة التى كتبها سرا ولايجرؤ على نشرها حتى لايعرض نفسه للعقاب . إنه يكتبها لمجرد إرضاء هوايته وممارسة موهبته الاصيلة . الشىء العجيب أن مهنته كتاجر روبابيكيا درت عليه من الأموال ما لا يرقى اليه الخيال ، فأصبح من أصحاب الملايين ، ولكن فى أعماق نفسه حزن دفين . أدخل عليه فى غرفته بغتة فأراه منفردا بنفسه يبكى . مازال يتمنى أن يصبح مؤلفا يمارس التأليف علانية لا فى الخفاء . ولكنه يقول لى أحياناً إن مهنته كتاجر روبابيكيا كانت سببا فى حصوله على ثروة لم يكن يحلم بها ستضمن لى وله حياة مستقرة مترفة ، ولو كان احترف التأليف كما كان يتمنى لعاش ومات فقيرا معدما .

بعد ثلاثة أيام من هذا الحديث كنت جالسا فى البهو أعزف على الكمان

وعلى مقربة منى جلس الأب ينصت لموسيقاى . رأيت الفتاة تهبط السلم مسرعة حتى كادت تتعثر فى خطاها وهى تصيح :

ـ حدثت معجزة . قبضوا على أصحاب الطراطير وأحرقوا صندوق الدولة المقدس وقرر الشعب أن يختار كل مواطن المهنة التى يهواها والتى يرى نفسه صالحا لها .

احتضنْتُ الكمان بقوة وكأنها كانت ضائعة وعثرت عليها ووقفت أنظر إلى الفتاة مشدوها غير مصدق لما تسمعه أذناى . أما الأب فظل جالسا والدهشة مرسومة بالألوان على ملامح وجهه . قال لابنته :

ـ وكيف عرفتِ ذلك ؟

ـ سمعته فى الراديو الآن . يقولون إن الجماهير هجمت على السجون تحاول كسر أبوابها لإطلاق سراح الذين سجنوا لمزاولة مهنة غير المهنة التى اختارها لهم صندوق الدولة الذى لم يعد مقدسا وقبضوا على أصحاب الطراطير وجردوهم من طراطيرهم وأحرقوها فى الميدان الكبير .

قلت :

ـ هيا نهرع إلى العاصمة لنشاهد هذا الحادث العظيم .

وضعْتُ كمانى تحت أبطى ، وارتدت الفتاة ثوبا أنيقا وأسرعنا بالخروج مع الأب الذى أخرج احدى سياراته من الجراج وركبناها نحن الثلاثة منطلقين بها بأقصى سرعتها إلى العاصمة .

كانت الجماهير هائجة مائجة وكأنها فى يوم القيامة . أسرعنا نحن الثلاثة بالوقوف بالقرب من باب أحد السجون والجماهير تحاول كسره . نجحوا فى كسر الباب الضخم وكأنه سدٌّ انهار وتدفقت خارجةً منه أمواج متلاطمة

من المساجين . لمحتُ أختى خارجة من باب السجن بشعر أشعث ووجه أغبر ولكن السعادة كانت تطل من عينيها وترسم على فمها ابتسامة . لم أكن أعلم أن اختى سجنت . احتضنتها وقبلتها وقلت لها :

ــ لماذا سجنوك ؟

قالت :

ــ ضبطونى متلبسة بنظم قصيدة شعر فى وقت فراغى .

أذيعت من إذاعة القاهرة عام ١٩٥٢

ونشرت فى مجلة «الشاطئ» عام ١٩٧٧ (العدد الأول)

سيمفونيـــه

حانت ساعة الانصراف ، جمع الأوراق التى يتحتم عليه إتمام فحصها ودراستها فى منزله وحشا بها حقيبته التى لازمته أكثر من عشرين عاما وغادر مكان عمله . وقف على الرصيف ينظر إلى السيارات المنطلقة منتظرا لحظة مناسبة لعبور الطريق . لم ينقطع سيل السيارات فظل واقفا يتلفت يمينا ويسارا . وسط زحام السيارات رأى صبيا راكبا دراجة واضعا فوق إحدى كفية لوحا فوقه هرم من الأرغفة ويقود دراجته باليد الأخرى وفوق رأسه لوح مماثل .

ظل ناظرا اليه حتى اختفى عن بصره متعجبا من توازنه بهذا الوضع وسط سيل السيارات الهادر . لم تنقطع تيارات السيارات حتى عند اضاءة اللون الأحمر الذى يأمر السيارات بالتوقف ، إذ إنه من المسموح به فى هذه الحالة أن تتجه بعض السيارات إلى اليمين أو إلى اليسار فلا يخلو الطريق لحظة واحدة لعبور المشاة !

خاطر بحياته ، كما يفعل كل يوم ، وأسرع مهرولا يخترق الشارع ووصل إلى الجانب الآخر سالما . اتجه نحو محطة الأوتوبيس ووقف مع كتلة من النمل البشرى ، وبعد نحو أربعين دقيقة أقبل الأوتوبيس مائلا على

جانبه الأيمن وقد برزت من بابيه ونوافذه رؤوس وأجسام آدمية . لم يجد موضعا لقدمه فظل واقفا ينتظر أوتوبيسا آخر .

وصل الأتوبيس التالى بعد نحو نصف ساعة أكثر ازدحاما من الذى سبقه ، ولما كان لاينوى المبيت عند محطة الأوتوبيس فلقد صمم على الركوب فى هذه المرة مهما كانت الظروف . اندفع كالصاروخ يشق طريقه وسط الأجساد المتلاحمة ، وسار الأتوبيس وقد أصبح أكثر ميلا على جانبه الأيمن حتى أوشك أن يخرج مركز ثقله عن مضلّع ارتكازه فيصبح ذلك الجانب الأيمن فوق أرض الشارع . بعد نحو ربع ساعة توقف الأتوبيس وصاح الكمسارى قائلا :

ــ لقد تعطل الأوتوبيس ، انزلوا واركبوا أوتوبيسا آخر .

لم يتذمر أحد بل هبط الجميع فى استسلام وأسرعوا نحو أقرب محطة فى انتظار أتوبيس آخر . تضاعف عدد المنتظرين عندما انضم إليهم هذا الفوج الجديد ، وبعد نحو عشرين دقيقة وصل أوتوبيس آخر محشو بالآدميين فلم يستطع الركوب .

وقف ينتظر الأوتوبيس التالى ، طال انتظاره ففكر فى ركوب تاكسى . أخذ يشير إلى كل تاكسى عابر وعلى وجهه سمات المذلة والاستجداء . بدأ يشعر بأن الحقيبة التى يحملها فى يده اليسرى قد ازداد وزنها . لم يستجب لندائه أى سائق تاكسى فعاد للوقوف مع الجماهير المحتشدة عند محطة الاوتوبيس .

وصل الأوتوبيس مزدحما فهجمت الجماهير تتسابق نحو بابيه ، وتمكن من الركوب واضعا قدما عند حافة باب الأوتوبيس والقدم الأخرى فى الهواء

وبعد هبوط بعض الركاب وركوب آخرين فى أثناء الطريق وجد نفسه محشورا بعيدا عن الباب قبل وصوله إلى الشارع المؤدى إلى منزله . بدأ يستعد لمغادرة الأوتوبيس وتمكن من الخروج منه بصعوبة أكثر من تلك التى واجهته عند خروجه من بطن أمه . وعندما وضع قدميه على ارض الشارع بدأ يصلح هندامه ويتحسس محفظته للتأكد من وجودها فى مكانها ، فاليوم أول الشهر وفى محفظته مرتبه ، سبعة وثمانون جنيها . حمد الله عندما وجد المحفظة لم تنشل منه كما حدث منذ ثلاثة شهور .

بعد أن سار نحو عشر دقائق فى اتجاه منزله تذكر أن زوجته كانت قد طلبت منه أن يمر على المجمّع الاستهلاكى لشراء دجاجة لهم الحق فى استلامها كل شهر . عاد إلى المجمع وقد بدأ يشعر بوطأة ثقل الحقيبة أكثر من ذى قبل . أبصر طابورا طويلا ممتدا وملتويا كالثعبان أمام باب المجمّع . سأل أحد الواقفين فى الطابور عن السلعة التى يقف فى طابورها فأجاب الرجل قائلا :

– لست أدرى ، وجدت طابورا فوقفت فيه .

ولكن رجلا آخر قال :

– إنه طابور الدجاج .

وقف فى نهاية الطابور ، سرحت أفكاره فى أشياء عديدة . تذكر أن رئيسه أهانه لأول مرة أمام زملائهالذنب لم يقترفه . انتبه فإذا به لايزال واقفا فى المكان نفسه من الطابور لم يتقدم خطوة واحدة . أخذ يحسب المدة الباقية له للاحالة إلى المعاش وهل سيعيش حتى يبلغ هذه السن ؟ واذا عاش كيف سيواجه الحياة بمعاش ضئيل والأسعار دائمة الارتفاع ؟ قفزت فى ذهنه صورة رئيسه السابق الذى أحيل إلى التقاعد منذ نحو عامين ،

وأنه عندما حضر إلى المصلحة بعد ذلك للاستفسار عن أمر من الأمور لم يهتم به أحد من مرؤوسيه السابقين ، حتى الساعى الذى كان يقف عند باب غرفته ظل جالسا ولم يعره التفاتا عندما مر أمامه . تقدم الطابور خطوة فتحرك الرجل خطوة إلى الأمام .

تذكر خاله الذى توفى منذ أعوام عديدة ، كان يتقاضى سبعين جنيها فى الشهر ولم يكن له أى دخل عدا هذا المرتب ، كان يعيش فى أرقى أحياء المدينة فى ڤيلاّ فاخرة من دورين تحيط بها حديقة واسعة ويمتلك سيارة ضخمة يقودها سائق ، وعنده الطباخ والسفرجى والخدم والحشم ، وكان فى كثير من الأحيان يقيم الولائم لعلية القوم ، بينها يتقاضى هو سبعة وثمانين جنيها فى الشهر ويقف فى الطابور للحصول على دجاجة . تقدم الطابور خطوة .

فكر فى مرض ابنته وفى مستقبلها بعد وفاته ، إنها الآن فى نحو الرابعة عشرة . لقد باع غرفة الطعام فى العام الماضى لعلاجها من مرض الصرع ولكن بلا جدوى ويفكر الآن فى بيع غرفة الصالون . ولكن أين يستقبل الضيوف الذين قد يفكرون فى زيارته ؟ تقدم الطابور خطوة أخرى .

شعر بأوجاع فى ركبتيه وعموده الفقرى . إنه يعانى من آلام روماتيزمية وضعف فى السمع بسبب الضجة المستمرة التى تلطم طبلتى أذنيه فى كل مكان ولكنه لايهتم بعرض نفسه على أحد الأطباء ، تفكيره فى مرض ابنته يشغله عن التفكير فى أمراضه . إن جميع أفراد أسرته يعانون أيضا من ضعف السمع ولكن هذا لم يعد يقلقه فلقد أصبح كل من يعرفهم مصابين بضعف السمع بسبب الضجة التى تنبعث حولهم طوال اليوم ، حتى رئيسه يعانى من ضعف السمع للسبب نفسه . بعض أصدقائه فكروا فى دراسة

لغة تحريك الشفتين ، أى التفاهم عن طريق حركة الشفتين بسبب الضوضاء المتواصلة التى تجعل سماع الأحاديث متعذرا فيضطرون للصياح فتزداد الضجة نتيجة لذلك .

وأخيرا ، وجد نفسه وجها لوجه أمام البائع ، لقد أصبح فى مقدمة الطابور . نظر خلفه واذا بالطابور لايزال ممتدا ومتعرجا كما رآه عند قدومه . طلب من البائع الدجاجة التى له الحق فى تسلمها بالبطاقة كل شهر . قال له البائع إن آخر دجاجة فى المجمّع تسملها الرجل الذى كان واقفا أمامه فى الطابور . حزن حزنا شديدا لعودته إلى منزله بدون تلك الدجاجة .

منذ أمد بعيد يشعر وكأنه يعيش فى مدينة ڤينيسيا . المجارى طافحة فى الشارع وهو يحمد الله على أن حاسة الشم لديه بدأت تضعف كما ضعفت حاسة السمع ، وهذا مظهر من مظاهر التكيف مع البيئة . لقد وضع الناس بعض أحجار على مسافات متقاربة وكأنها جزر صغيرة تبرز من طفح المجارى يتحتم عليه أن يخطو فوقها ليصل إلى منزله . سار بصعوبة فوق تلك الأحجار واضعا قدمه فوق كل حجر بحرص شديد حتى لاتنزلق . قفزت فى خاطره فى هذه اللحظة أغنية الجندول شعر على محمود طه وغناء محمد عبد الوهاب . فكر فى التعاون مع بعض جيرانه لشراء قارب قديم مستعمل يستخدمونه فى تنقلاتهم من منازلهم حتى نهاية الشارع ، ولكنه طرد هذه الفكرة من ذهنه لضيق ذات اليد . تذكر أنه عندما كان صبيا كان يصافح وجهه عند دخوله الڤيلا التى كان يعيش فيها خاله نسيمٌ عليل عاطر بأريج الورد والياسمين . منذ سنوات عديدة لم يشعر بمثل هذا النسيم . أين ذهب النسيم العليل ؟

هل انقرض كما انقرض الجمبرى وطمى النيل ؟ أم زالت عنه العلة واسترد عافيته فتحول إلى عواصف رملية ؟

شعرت زوجته بخيبة أمل عندما علمت أنه لم يحضر الدجاجة . صرخت ابنته وانتابتها حالة صرع فسقطت على الأرض والزبد يتراكم عند طرفى فمها . ضمها الأب إلى صدره وأخذت الأم تربت على ظهر ابنتها بحركة لا شعورية كما اعتادت أن تفعل ، بعد فترة طويلة بدأت الابنة تفيق من غيبوبتها .

تناول الأب على وجه السرعة غداءه المكون من شوربة العدس وقطعة من الجبن القريش ، ثم أخذ حقيبته ووضعها على منضدة صغيرة وأخرج منها أوراقا ظل يدرسها ويراجعها حتى أقبل المساء فذهب إلى فراشه . إنه يهوى القراءة ولكنه لايجد من الوقت مايسمح له بذلك الاّ فى الفترة القصيرة التى يهيىء فيها نفسه للنوم . بدأ يقرأ كتابا بعنوان دع القلق وابدأ الحياة . بعد قراءة نحو صفحة ونصف انطفأ النور فى جميع أنحاء الحى الذى يعيش فيه فطوى الكتاب ووضعه بجواره على الكومودينو واستعد للنوم . اقتحمت زوجته الغرفة وفى يدها لمبة بترول وقالت له فى فزع إن درجة حرارة ابنه البالغ من العمر نحو عشر سنوات ، مرتفعة ويشكو من ألم شديد فى بطنه ، فقفز الرجل من الفراش وأسرع لرؤية ابنه . وجده يبكى ويتَلوّى من الألم . أسرع إلى التليفون لاستدعاء الطبيب فوجد التليفون جثة باردة وقد انتقلت حرارته إلى جسد ابنه . احتار ولم يدر ماذا يصنع . أخذ يتخبط فى الظلام وأسرع بارتداء ملابسه واجتاز بركة المجارى . حاول الاتصال بالطبيب عن طريق تليفونات عدد من الدكاكين والمحال العامة فلم يجد تليفونا واحدا منها صالحا لأداء وظيفته . هرول

باحثا عن تاكسى يوصله إلى منزل أحد الأطباء فلم ينجح فى الحصول على تاكسى . انطلق يجرى بأقصى سرعته حتى وصل إلى منزل الطبيب الذى هبَّ من نومه واستقل سيارته وبصحبته والد الطفل ، واكتشف الطبيب أن الطفل مصاب بالتيفويد وعلى ضوء لمبة البترول وبطارية صغيرة كتب الطبيب دواء وطلب من الأب سرعة الحصول عليه ليتناوله الطفل على الفور .

ذهب الرجل إلى أقرب صيدلية فلم يجد الدواء ، وانطلق يعدو باحثا عنه فى جميع الصيدليات التى تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل . قالوا له إن الدواء ناقص فى السوق . حاول الاتصال بالطبيب عن طريق تليفون إحدى الصيدليات . ظل الجرس يرن دون أن يرد عليه أحد ، فعاد إلى المنزل وقد فشل فى الحصول على الدواء أو أى بديل له .

بعد فترة قصيرة من عودته لمنزله سمع طرقا على الباب ، تردد فى فتحه وتعجب من ذلك الشخص الذى يطرق بابه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . أسرعت زوجته وفى يدها لمبة البترول ووقفت بالقرب منه فى بهو الشقة . عاد الطرق بقوة وإصرار ووقفت زوجته حائرة لاتدرى ماذا تصنع . صرخت الابنه فاسرعت اليها أمها وتركت زوجها مترددا فى فتح الباب . استمر الطرق ، فاتجه نحو الباب بوجه عبوس وفكْر مضطرب . أسرعت الزوجة ووقفت صامته بجوار زوجها وفى يدها المصباح . تسللت الابنة ووقفت ملتصقة بأمها . فتح الأب الباب فى حذر . أسرعت زوجته ووقفت خلف رافعةً المصباح إلى أعلى . وجد أمامه ثلاثة من رجال الشرطة فعقدت الدهشة لسانه وندت عن زوجته صرخة مكتومة . طلب منه أحدهم أن يصحبهم ، قال الزوج بدهشة :

ـ إلى أين ؟
قال رجل الشرطة :
ـ إلى مكان ستعرفة فيها بعد .
ـ بل لابد أن أعرف الآن إلى أين انتم ذاهبون بى وسبب ذلك .
أسرعت زوجته ووقفت بجواره مشدوهه وجسدها يرتجف ، قال أحد رجال الشرطة بعنف :

ـ هيا معنا .
ـ كلا ، لن أذهب معكم ، ابنى فى خطر وابنتى مريضة وزوجتى لاتستطيع الحياة بدونى لحظة واحدة فى هذه الظروف القاسية .
ـ لاشأن لنا بظروفك العائلية .

فى مثل لمح البصر جذبه أحد رجال الشرطة ، فصرخت الزوجة وانتابت الابنة حالة صرع . صحا الابن المريض من نومه وسار مترنحا فى الظلام صارخا مناديا أباه وأمه . حاولت الزوجة التشبث بزوجها . صوب أحد رجال الشرطة مسدسه نحوها فعلا صراخُها وصراخ ابنتها وابنها ووجد رب الأسرة نفسه خارج شقته . كمم أحدهم فمه ووضع آخر عصابة على عينيه . حملوه وأنزلوه بالقوة من سلم المنزل ووضعوه فى سيارة انطلقت بهم بأقصى سرعتها . أخذ الرجل يفتش فى تلافيف مخه عن جريمة اقترفها يستحق من أجلها العقاب فلم يجد .

ظلت السيارة منطلقة ، تسرع ثم تبطىء ، وتعود تسرع وتبطىء ، وتصعد وتهبط ، وصراخ ابنته يرن فى أذنه ومرض ابنه يعتصر قلبه ونظرة الأسى والرعب التى رآها فى عينى زوجته تهز كيانه ومصيره المجهول يصيبه برعشة والجريمة التى لم يقترفها تحير فكره . شعر بالسيارة تصعد مطلعا

شديد الانحدار يكاد يكون عموديا ثم توقفت ، سمع أبواب السيارة تفتح وأحس بيد ترفع العصابة عن عينيه . وجد نفسه على قمة تل أمام مبنى يشبه القلعة ذى بوابة حديدية مغلقة . وقف ينظر إلى البوابة فى ذهول وبجواره رجال الشرطة الثلاثة . فتُحت البوابة . دخلوا قاده رجال الشرطة إلى غرفة صغيرة على اليسار بها رجل سمين جالس خلف مكتب صغير نظر إليه الرجل السمين وظل ناظرا اليه بضع لحظات ثم قام ببطء وفتح صوانا أخرج منه دفترا كبير الحجم أخذ يقلب فى صفحاته حتى استقر عند صفحة معينة قرأ كل سطر فيها ، ثم نظر إلى رجال الشرطة وقال :

ـ لقد ارتكب جريمة بشعة . خذوه إلى المكان رقم اثنين .

قاده رجال الشرطة إلى مبنى يبدو كئيبا متداعيا . انقضوا عليه وجردوه من جميع ملابسه ، ثم أدخلوه فى غرفة ضيقة مظلمة تشبه الحمام ووضعوه تحت الدش فهطلت على جسده العارى مياه شديدة البرودة لاتزيد درجة حرارتها على ثلاث درجات مئوية فوق الصفر وبعد برهة تغيرت درجة حرارة المياه بغتة وأصبحت ثمانين درجة مئوية ، وبعد فترة عادت درجة حرارتها إلى ثلاث فوق الصفر .

ظلت درجة حرارة المياه تتبدل هكذا عدة مرات ، ولكن الرجل ظل هادئا لا يبدو عليه الشعور بأى ألم .

قادوه إلى غرفة أخرى مجاورة بها عملاق أسمر فى يده سوط ذو ثلاثة أفرع انهال على جسده يلهبه بالسياط . لم يبد على الرجل أى شعور بالألم .

أدخلوه بعد ذلك غرفة فسيحة بها عدد من الكلاب الضخمة الشرسة . هجمت عليه الكلاب وأخذت تنهش جسده ، ولكنه ظل هادئا وكأن

الكلاب تفترس شخصا آخر لايمت له بأية صلة . أسرع أحد رجال الشرطة إلى التليفون وأدار رقما معينا فرد عليه صوت يقول :
ــ ماذا حدث ؟

ــ أذقناه جميع أنواع التعذيب التى بالمكان رقم اثنين ولكنه لم يشعر بأى ألم .

ــ انقلوه إلى المكان رقم ثلاثة .

اقتادوه وهو مازال عاريا إلى المكان رقم ثلاثة . أدخلوه غرفة على بابها لافتة صغيرة تحمل هذه الجملة . «غرفة الأهوال» . علقوه من قدميه فى خطاف مدلى من سقف الغرفة وانقض عليه رجل ضخم الجثة أخذ يخلع أظافره واحدا بعد الآخر حتى خلع جميع أظافر يديه وقدميه . لم يشعر بالعذاب . تركوه بمفرده بالغرفة وأغلقوا بابها وأداروا جهازا يحدث داخل الغرفة صوتا عاليا مستمرا لا تحتمله أذن الإنسان . بعد نصف ساعة فتحوا باب الغرفة فوجدوه هادئا غير شاعر بأى ألم .

أحضر الرجل الضخم قضيبا محمى إلى درجة التوهج وأخذ يقربه من جسد الرجل شيئا فشيئا ، ثم وضعه فوق جلده ففاحت رائحة شواء اللحم . لم يبد من رب العائلة ما يدل على أنه تألم . أخذ الرجل الضخم يلسع أجزاء مختلفة من ذلك الجسد المدلى ولكن رب العائلة ظل هادئا وكأنهم يدلكون جسمه تدليكا خفيفا .

احتار رجال الشرطة ولم يعرفوا ماذا يصنعون بهذا الرجل ليشعر بالعذاب ويقاسى من الألم . اقتادوه إلى غرفة فسيحة بها مكتب فاخر يجلس خلفه رجل نحيل أصفر الوجه ذو عينين كعينى بومة . قال أحد رجال الشرطة :

ـ هذا الرجل حيرنا ، إن أنواع التعذيب التى فى المكانين الثانى والثالث لا تؤثر فيه .

ظل الرجل النحيل الأصفر ناظرا إليه نحو نصف دقيقة ثم هز كتفيه وقال :

ـ خذوه إلى المكان رقم أربعة .

زجوا به فى غرفة ينبعث من أرضها لهب ووقفوا خارج الغرفة يلاحظونه من خلال طاقة من الزجاج ويتحدثون اليه من خلال ميكروفون . أمره أحد رجال الشرطة بالمرور خلال اللهب . مر خلال اللهب . أمره باعادة الكرَّة . ظل يخترق اللهب جيئة وذهابا غير شاعر بأى عذاب فعادوا به إلى الرجل النحيل الأصفر . قال أحد رجال الشرطة :

ـ لقد مر عدة مرات خلال اللهب ولم يشعر بالألم ، لاندرى لماذا لايستجيب هذا الرجل لجميع أنواع العذاب التى لدينا ؟ !

تناول الرجل النحيل من أحد الارفف التى خلفه علبة كبيرة من الورق المقوى فتحها وأخذ يفحص ما فيها من أوراق ثم قال :

ـ انقلوه إلى المكان رقم واحد فالعذاب فيه أشد .

سمحوا له بارتداء ملابسه . وضعوا العصابة على عينيه وأركبوه معهم السيارة التى انطلقت بأقصى سرعتها ، وبعد فترة طويلة توقفت . أزاحوا العصابة عن عينيه وطلبوا منه مغادرة السيارة . غادر السيارة فوجد نفسه أمام منزله .

عام ١٩٧٨

غرفة الانتظار

الغرفة فسيحة ، تبدو جدرانها فى حاجة إلى طلاء . على أحد جدارنها هيكل عظمى لإنسان بالحجم الطبيعى ، وعلى جدار آخر نتيجة يعلوها التراب تشير إلى اليوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر ، ويبدو أن هذه النتيجة لم يهتم أحد باستبدالها منذ عدة أيام ، وربما منذ عدة أشهر أو عدة سنوات إذ إن الجزء المكتوب عليه العام مكشوط . وعلى الجدار نفسه ساعة توقفت عقاربها عند الثالثة وتسع دقائق .

فى وسط الغرفة منضدة مستديرة يلتف حولها خمسة رجال ، أحدهم نحيل ذو أنف مدبب ، والثانى قصير بدين ، والثالث يبدو مقطب الحاجبين وهو مفرط فى الطول يلبس نظارة سميكة العدسات ، والرابع افطس الأنف لم يهتم بحلاقة لحيته منذ أيام فبدت ناصعة البياض فى وجهه الأسمر ، والخامس شاحب الوجه ذو شارب ضخم وعينين خضراوين .

قال ذو الأنف المدبب موجها حديثه للرجل الأسمر :

ـ أنا جربت الثوم . إنه خير علاج للمصران الغليظ . خذ منه فصًا على الريق .

قال الرجل الأسمر :

ـ لايمكننى أن أفعل ذلك ، لدىَّ حساسية ضد الثوم .
قال الرجل الطويل وقد نفد صبره :

ـ إلى متى سنظل جالسين فى هذه الغرفة ؟ مللت الانتظار . الرجل الذى دخل قبلنا مضى عليه الآن أكثر من ساعة ولم يخرج .
قال الرجل الأسمر :

ـ حضرت قبل هذا الرجل ، وكان المفروض أن يكون الدور دورى ولكن الرجل الذى أطل من الغرفة المجاورة استدعاه قبلى . هذه فوضى ، ولو أننى لا أرى مايدعو للعجلة .

قال شاحب الوجه ذو الشارب الكث :

ـ كان من الواجب أن يتسلم كل من يحضر رقما ليعرف دوره . لا أحد يدرى الآن من منا عليه الدور .
قال الرجل الطويل :
ـ ماذا يحدث فى الغرفة المجاورة ؟

نظر الأربعة الآخرون إلى بعضهم متعجبين لعدم معرفة الرجل الطويل لما يحدث فى الغرفة المجاورة . قال له الرجل القصير وعلى فمه ابتسامة سخرية :
ـ ألا تعرف ماهو المفروض أن يحدث فى غرفة الكشف عند الأطباء ؟ !
قال الرجل الطويل :
ـ هل هذه عيادة طبيب ؟
ضحك الأربعة بصوت مرتفع عندما سمعوا هذه الجملة . قال الرجل القصير :

ـ ألا تعلم أن هذا المكان عيادة طبيب ؟
قال الرجل الطويل
ـ لا أعلم أنها عيادة طبيب .
قال الرجل الأسمر :
ـ ولماذا حضرت إذن ؟
ـ وجدتكم جالسين فجلست معكم .

قال ذو الشارب الضخم :
ـ ولماذا تتعجل الدخول فى الغرفة المجاورة ؟
ـ دخل الغرفة أحد الرجال وانتظرته يخرج فلم يخرج ، واعتقد انه كان من الواجب أن أدخل الغرفة قبله ، فلقد كنت جالسا هنا عندما حضر وسمح له بالدخول قبلنا جميعا .
قال الرجل الأسمر :
ـ أجلست طوال هذه المدة وأنت لاتعرف أن هذا المكان عيادة طبيب ؟
ـ ومن أين لى أن أعلم ذلك ؟
قال الرجل القصير مشيرا إلى صورة الهيكل العظمى المعلقة على الجدار :
ـ ألم تر هذه الصورة ؟ ! ألم تستنتج من صورة الهيكل العظمى أننا فى عيادة طبيب ؟

نظر الرجل الطويل إلى الصورة وأخذ يتأملها بضع لحظات ثم قال :
ـ لم ألاحظ وجود الصورة إلا فى هذه اللحظة عندما لفتّ نظرى اليها . وأى نوع من الأطباء هذا الطبيب ؟ ماهو تخصصه ؟

قال ذو الشارب الكثيف :

ـ يعالج جميع الأمراض . ألم تر اسمه على اللافتة المثبتة جنب الباب الخارجى ؟

ـ لافتة ؟ هل توجد لافتة جنب الباب ؟

ثم نظر إلى ساعته وقام منتفضا وسار مسرعا نحو باب الغرفة المجاورة وأخذ يلطمه بشدة صائحا :

ـ لايمكننى الانتظار أكثر من ذلك . نفد صبرى .

لم تحدث أية استجابة لطرقاته ، فعاد وجلس فى مكانه غاضبا شاحب الوجه . قال له الرجل القصير :

ـ إذا لم تكن مريضا وفى حاجة إلى كشف طبى ففى إمكانك مغادرة المكان .

ـ ولماذا أغادر المكان ؟ إنه مكان مريح وأجد فى صحبتكم متعة وتسلية .

نظر الرجل الأسمر للرجل الطويل ، ويبدو أنه كان على وشك توجيه سؤال إليه ، ولكن فى هذه اللحظة حدث ماجعلهم يتجهون جميعا بأبصارهم نحو الباب الخارجى ، إذ دخلت الغرفة شابة فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، رائعة الجمال . جلست على كرسى بجوار صورة الهيكل العظمى . ظل الجميع محملقين فى وجهها فأطرقَتْ إلى الأرض ، ثم أخرجت من حقيبة يدها مرآة وإصبع لصبغ الشفتين باللون الأحمر . بعد أن صبغت شفتيها وضعت إصبع الأحمر فى حقيبتها وأخرجت علبة بودرة واستمرت تتزين غير عابئة بمن فى الغرفة وكأنها بمفردها فى حجرة نومها ، ثم وضعت المرآة وأدوات الزينة فى حقيبتها . قال لها الرجل الطويل :

ـ لايبدو عليك أى مرض ، فهل حضرتِ لتؤنسى وحدتنا ؟

قطبت حاجبيها وقالت :
ـ لستم وحيدين ، أنا التى أشكو من الوحدة .
ـ آنسة أم سيدة ؟
ـ هذه مسألة شخصية لاشأن لك بها .
احمر وجهه خجلا ، وبعد فترة قصيرة قال :
ـ مم تشكين ، غير الوحدة ؟
ـ من الحزن .
ـ مثلك لاينبغى أن يحزن .
قالت بدهشة :

ـ لماذا ؟
ـ انتِ جميلة كالوردة .
ـ ومن أدراك أن الورود لاتحزن ؟

أخذت تعبث بأصابعها ، وبغتة انخرطت فى بكاء عنيف ، ثم قامت وأخذت تطرق باب الغرفة المجاورة . فتح الباب وأطل منه وجه رجل على فمه ابتسامة أشار لها بالدخول فدخلت وأقفل الباب .

ظل الخمسة ناظرين نحو باب الغرفة المجاورة وكأنهم ينتظرون خروج تلك الشابة الحسناء ، ولكنها لم تخرج . قال الرجل الطويل منفعلا :
ـ هذه فوضى ، جاءت بعدنا ودخلت قبلنا جميعا .

قال الرجل الأسمر :
ـ يبدو أنك كنت تتمنى أن تظل تلك الجميلة جالسة معنا .
ـ لايهمنى وجودها أو عدم وجودها ، فقدت اهتمامى بالنساء .
ـ كم سنك ؟

ـ واحد وسبعون عاما .
صاح ذو الأنف المدبب فى إستنكار :
ـ واحد وسبعون عاما ؟ ! هذا غير معقول ، إنك تبدو أكثر شبابا مني . أنا أبلغ من العمر سبعين عاما وأبدو أكبر منك سنا . من المستحيل أن يكون سنك واحدا وسبعين عاما .
قال الرجل الطويل بعصبية وإنفعال شديد :
ـ هل أطلعك على بطاقتى العائلية لتصدق أن سنى واحد وسبعون عاما وخمسة شهور ؟
قال ذو الأنف المدبب متحديا :
ـ أجل أرنى بطاقتك العائلية .
أخرج الرجل الطويل محفظة نقوده من أحد جيوب سترته وأخذ يبحث بيد مرتعشة فى الأوراق المكتظة حتى عثر على البطاقة . ظهرت عليه الفرحة وكأنه عثر على كنز . سلم البطاقة إلى ذى الأنف المدبب قائلا :
ـ ها هى ذى بطاقتى العائلية .
أخذ ذو الانف المدبب يفحص البطاقة ثم قال :
ـ شيء عجيب ، إنك تبدو أصغر من سنك بكثير ، من يَرَكَ لايقدر لك أكثر من خمسين عاما .
اختطف الرجل الطويل بطاقته من ذى الأنف المدبب وقال للرجل القصير :
ـ أنت أيضا تبدو خاليا من الأمراض ، فلماذا حضرتَ إلى هذا المكان ؟
قال الرجل القصير وهو مطرق إلى الأرض دون أن يلتفت نحوه :
ـ وكيف عرفت أننى خالٍ من الأمراض ؟

ــ هل تشكو من شيء ؟
ــ أشكو من أشياء كثيرة .
ــ مثل ماذا ؟
ـ التفت نحو الرجل القصير وظل ناظرا إليه بضع لحظات ثم قال :
ــ روماتيزم فى المفاصل وانتفاخ فى الأمعاء وأوجاع فى عضلات الرقبة والكتفين وعرق النسا وحرقان فى البول واضطراب فى الأعصاب وألم شديد فى الكلية اليمنى .
قال ذو الشارب الضخم :
ــ إطمئن ، هذا الطبيب سيريحك من جميع هذه الأمراض ، إنه ذائع الصيت ، مامن مريض قصده إلاّ وشُفى . اصبر قليلا وسيأتى دورك بلا شك . ما علينا سوى الانتظار .
ــ لا وقت عندى للانتظار . تركت حفيدى مريضا بالمنزل ولا يوجد معه سوى الخادم وأريد الانتهاء بأقصى سرعة لأعود للاطمئنان عليه .
قال الرجل الأسمر :
ــ ولماذا لم تحضر حفيدك معك ؟
ــ لم أكن اعلم أن هذا المكان عيادة طبيب .
قال الرجل الطويل :
ــ أنت أيضا لم تكن تعلم أن هذا المكان عيادة طبيب ؟ !
ــ لا ، لم أكن أعلم .
قال الرجل الطويل :
ــ ومع ذلك ضحكت ساخرا منى عندما قلت إننى لم أكن أعلم أن هذا المكان عيادة طبيب !
ــ ضحكتُ فقط ، ولكننى لم أسخر منك .

ـ ولماذا ضحكت ؟

ـ وجدتهم يضحكون فضحكت معهم .

قال الرجل الطويل للرجل الأسمر :

ـ تبدو عليك الصحة ، هل تشكو من أية أمراض ؟

ـ تصلب فى الشرايين وصداع مستمر وضعف فى الذاكرة ، كما أشكو أيضا من المصران الغليظ والبروستاتا .

قال ذو الأنف المدبب :

ـ عليك بالثوم . ابتلع فصّاً من الثوم كل يوم على الريق . أنا أصبحت فى أحسن صحة بفضل الثوم .

قال الرجل الأسمر :

ـ ولماذا حضرت مادمت فى أحسن صحة كما تقول ؟

ـ أخشى من الذبحة الصدرية ، أصبت بها مرة وأخشى أن تعاودنى .

قال الرجل الأسمر ساخرا :

ـ وتقول إنك فى أحسن صحة ؟

انتابت الرجل ذا الشارب الكث نوبة سعال شديدة فلزم الجميع الصمت حتى انتهت تلك النوبة . نظر إليه الرجل الطويل وقال :

ـ هل أتيت للعلاج من هذا السعال ؟

ـ لا ، السعال لايضايقنى كثيرا . منذ تسع سنوات عندما كنت فى الستين من عمرى . .

قاطعه الرجل الطويل قائلا بدهشة :

ـ هل يعنى هذا أنك الآن فى التاسعة والستين من عمرك ؟ إنك تبدو اكبر سنا .

قال ذو الشارب الضخم :

ـ فى الشهر القادم أبلغ السبعين ، لقد طحنتنى الأحزان .
قال الرجل القصير :
ـ اذا كان السعال لايضايقك فما هو المرض الذى أتيت لتشفى منه ؟
ـ أصبت منذ تسع سنوات بجلطة وينتابنى إغماء من آن لآخر ولم تعد لى ذاكرة . أنا لا أذكر ماذا أكلت اليوم .

فى هذه اللحظة فتح باب الغرفة المجاورة وأطل منه الرجل المبتسم . أشار نحو الرجل القصير وطلب منه الدخول فدخل الغرفة وأقفل الرجل المبتسم الباب وساد الصمت بضع دقائق ، ثم قطعه الرجل الأسمر عندما قال :

ـ هيا نلعب الكتشينة لنسلى أنفسنا حتى يحين موعدنا . أنا شخصيا أفضل البقاء فى هذه الغرفة .

قال الرجل الطويل .
ـ ومن أين نحضر الكتشينة ؟
قال الرجل الأسمر .
ـ معى كتشينة أحملها دائما فى جيبى .
قال ذو الشارب الضخم .
ـ فكرة جميلة ، هيا نلعب .
قال الرجل الطويل .
ـ من يبدأ اللعب ؟
قال ذو الشارب الضخم :
ـ أكبرنا سنا .
قال الرجل الأسمر .
ـ سنى خمسة وسبعون عاما ، هل يوجد بينكم من هو أكبر منى سنا ؟

قال الرجل الطويل .

ـ أنت أكبرنا سنا ، ابدأ اللعب .

بدأوا اللعب ، وبعد لحظات فُتح بابُ الغرفة المجاورة وأطل منه وجه الرجل المبتسم وأشار نحو الرجل الطويل الذى بدت عليه الدهشة ولكنه قام ودخل الغرفة وأقفل الرجل المبتسم بابها .

قال ذو الأنف المدبب :

ـ كان يدَّعى أنه لايشكو من الأمراض وأنه لم يكن يعلم أن هذا المكان عيادة طبيب ، فلماذا استدعاه الطبيب ؟

قال الرجل الأسمر .

ـ شيء عجيب ، والرجل القصير الذى دخل قبله قال أيضا انه لم يكن يعلم أن هذا المكان عيادة طبيب ومع ذلك سبقانا فى الدخول .

قال ذو الأنف المدبب :

ـ هيا نستمر فى اللعب .

استأنفوا اللعب ، وبعد فترة قصيرة دخل طفل فى نحو الثامنة يبدو عليه الخجل الشديد والارتباك . سأله الرجل الأسمر :

ـ ماذا تريد يابنى ؟

ـ أبحث عن جدى .

جدك ؟ ومن هو جدك هذا ؟

ـ رجل قصير سمين .

ـ عرفته ، دخل الغرفة المجاورة ولم يخرج حتى الآن . ولكن قل لى ، كيف عرفت أنه هنا ؟

ـ لست أدرى !

ـ اجلس وانتظره حتى يخرج من الغرفة . اجلس هنا ، فوق الكرسى

الذى كان يجلس عليه جدك .

جلس الطفل على طرف الكرسى وقد احمر وجهه خجلا ، واستأنف الرجال اللعب . قال الرجل الاسمر .

مارأيكم لو لعبنا بنقود ؟

قال ذو الانف المدبب .

ـ لا مانع لدى .

قال ذو الشارب الضخم .

ـ ولا مانع لدى ، على أن تكون المبالغ قليلة إذ لا يوجد معى سوى قدر ضئيل من المال .

قال الرجل الأسمر .

ـ وهو كذلك . كل واحد يضع جنيها ، من يكسب يأخذ الجنيهات الثلاثة .

كسب الرجل ذو الشارب الضخم ، وعندما هم بجمع النقود اعترضه الرجل الأسمر قائلا :

ـ رأيتك تغش فى اللعب . أنت غشاش .

ثار ذو الشارب الضخم وانتفض واقفا يشتم ويلعن الرجل الأسمر ، ثم تشابكا بالأيدى وبذل ذو الأنف المدبب مجهودا عنيفا لفض اشتباكهما . جلس الرجال بعد المعركة فى أماكنهم وهم يلهثون . جمع الرجل الأسمر أوراق الكتشينة ووضعها على المنضدة .

فُتح باب الغرفة المجاورة وأطل منه وجه الرجل المبتسم وأشار للطفل . انطلق الطفل بأقصى سرعته نحو الرجل المبتسم واندفع داخل الغرفة المجاورة وكأنه يلوذ بمكان آمن هاربا من العنف والقتال الذى أفزعه .

لزم الرجال الثلاثة الصمت بضع لحظات . قطع ذو الشارب الضخم الصمت عندما قال .

ـ أين يذهب الذين يدخلون هذه الغرفة ؟ انهم يدخلون ولا يخرجون .

قال ذو الأنف المدبب :

ـ لابد أن يكون للغرفة باب آخر للخروج .

قال الرجل الأسمر .

ـ وإلى أين يقود هذا الباب الآخر ؟ إن للمبنى سلما واحدا هو الذى صعدنا فوقه لنصل إلى هذه الغرفة ولا يوجد أى منفذ آخر . أنا لن أمكث هنا . هيا نغادر هذا المكان .

فتح باب الغرفة وأشار الرجل المبتسم للرجل الأسمر داعيا إياه لدخول الغرفة فدخل . لم يبق فى غرفة الانتظار سوى الرجل ذى الشارب الضخم والرجل ذى الأنف المدبب .

قال ذو الأنف المدبب .

ـ لابد من الاستمرار فى اللعب حتى لا نمل الانتظار .

قال ذو الشارب الكثيف .

ـ لن ألعب بفلوس .

ـ يستحسن ذلك ، لا داعى للعب بفلوس ، انها أصل كل الشرور .

استمر الاثنان يلعبان . كان ذو الشارب الضخم يكسب دائما . بدأ ذو الأنف المدبب يفقد أعصابه فصاح قائلا :

ـ ماهذا ؟ لماذا تكسب أنت طوال الوقت ولا أكسب أنا ولو مرة واحدة ؟

ـ مسألة حظ .

قال ذو الأنف المدبب بصوت متهدج :

ـ حظى تعس طوال حياتى . لم أشعر فى حياتى بلحظة راحة أو لحظة سرور . تعبت كثيرا .

وبدأ يجهش بالبكاء قائلا :

ـ أنا تعبت ، تعبت .

فتح باب الغرفة المجاورة وأشار نحوه الرجل المبتسم فاتجه ذو الأنف المدبب نحو الغرفة وهو يجفف دموعه ، وقبل دخوله من باب الغرفة التفت إلى ذى الشارب الكثيف الجالس بمفرده وقال :

ـ واصل اللعب ، العب مع نفسك ، لن تجد من تغلبه .

دخل الغرفة المجاورة وأقفل الباب ، وجلس ذو الشارب الضخم وحيدا يسلى نفسه برص أوراق الكتشينة وأخذ يرتبها ويعبث بها ، ثم أخذ يرصها من جديد لمعرفة طالعه . أطل من باب الغرفة المجاورة ذو الوجه المبتسم وأشار اليه فهرول نحو الغرفة .

عام ١٩٧٨

الكرسى رقم ١٥

لم يكن قد مضى على تشكيل الوزارة الجديدة سوى خمسة أيام ، ووزير النقل فى هذه الوزارة من مدينة الإسكندرية ، ولقد قرر أن يقضى أيام العمل فى القاهرة ويسافر إلى الإسكندرية مساء الخميس ليمضى بعض الوقت مع عائلته ثم يعود إلى القاهرة مساء الجمعة ليكون فى مقر الوزارة صباح السبت من كل أسبوع .

كان الوزير مسافرا إلى الإسكندريةفى قطار الديزل الذى يصل إلى محطة سيدى جابر فى نحو السادسة والنصف مساء حيث كان محجوزا له فى ذلك اليوم الكرسى رقم ١٥ باحدى عربات الدرجة الأولى ؛ وهو كرسى منفرد لايوجد بجواره مقعد آخر .

جلس الوزير فى ذلك المقعد وأزاح الكرسى إلى الخلف قليلا ليكون فى وضع مريح ، وتحرك القطار . بعد فترة جاء رئيس القطار وأخذ يطلب رؤية تذاكر الركاب واحدا بعد الآخر ويتفرس فيها ثم يشطب كل تذكرة بخطين بالقلم الذى فى يده ويعيدها للركاب . وعندما وصل إلى الكرسى رقم ١٥ طلب التذكرة ، فأخرج الوزير من جيبه البطاقة الحكومية التى

يحملها وزير النقل فأخذها رئيس القطار ونظر فيها . علم أن حاملها هو وزير النقل ، فانتفض وانحنى للسيد الوزير وسلمه البطاقة باحترام ناظرا نحو أرض العربة قائلا :
ـ تصل بالسلامة يا افندم .

تناول الوزير البطاقة ووضعها فى جيبه . وبعد فترة وجيزة كان رئيس القطار قد نقل الخبر بسرعة الضوء إلى المضيفات والجرسونات وجميع العاملين بالقطار .

ـ إن وزير النقل معنا هنا فى العربة رقم ب ، يجلس على الكرسى رقم ١٥ .

أقبلت مضيفة هذه العربة وخلفها الجرسون . كان فى يد المضيفة نوتة تدون فيها طلبات المسافرين وأرقام مقاعدهم ، وأخذت تمر على المسافرين تسألهم إذا كانوا يطلبون شيئا من بوفيه القطار لاحضاره لهم . وعندما وصلت إلى كرسى الوزير سألته عن طلباته فأجاب قائلا :
ـ شاى من فضلك .

وواصلت المضيفة سؤال باقى الركاب مدونة أرقام كراسيهم والأشياء التى يطلبونها . وبعد قليل حانت من الوزير التفاتة فرأى أحد أصدقائه من أساتذة الجامعة جالسا فى الجهة الأخرى ذات المقاعد المزدوجة وبجواره كرسى خال ، فانتقل الوزير من الكرسى رقم ١٥ الذى يشغله إلى الكرسى الخالى جنب صديقه .

بعد قليل لاحظ أحد الركاب أن الكرسى المنفرد رقم ١٥ أصبح خاليا .

كان هذا الرجل جالسا وبجواره راكب آخر . أراد الجلوس على كرسى منفرد جنب النافذة فانتقل إلى الكرسى رقم ١٥ الذى كان يشغله الوزير .

مر حوالى ربع ساعة كان الوزير فى أثنائها مشغولا بالحديث مع صديقه أستاذ الجامعة ، وأقبل الجرسون يحمل طلبا واحدا والمضيفة تسير أمامه . كان يحمل صينية فاخرة عليها طاقم شاى من الفضة وفنجان فاخر وبعض الفطائر والحلوى .

تقدم الفراش وثبت الصينية البلاستيك فى المقعد رقم ١٥ ووضعت المضيفة الصينية الفضية بما عليها فوق الصينية البلاستيك أمام الرجل الذى يشغل الآن المقعد رقم ١٥ فنظر اليها متعجبا ، لا لأنه لم يألف شرب الشاى فى القطار فى مثل هذه الأوانى الفاخرة فحسب ، ولكن لأنه لم يكن قد طلب شيئا على الإطلاق . قال للمضيفة .

ــ لا مؤخذة ، أنا لم أطلب شيئا .

قالت المضيفة بأدب جم واحترام زائد .

ــ سعادتك يا افندم طلبت شايا .

ــ على العموم لا مانع . أشكرك .

ــ لاشكر على واجب يا افندم .

وتعجب هذا الراكب .

لابد أن مستوى الخدمة فى القطار قد ارتفع فى أثناء الفترة القصيرة التى انقطعت فيها عن السفر وأصبح الشاى يقدم لمن يطلبه ولمن لا يطلبه فى هذه الأوانى الفاخرة فى قطار الديزل .

وأخذ يرتشف الشاى بلذة وسعادة .

كان الوزير لايزال مشغولا بالحديث مع صديقه ونظر بطرف عينه فرأى

هذا المنظر فارتسمت على فمه ابتسامة وفهم الشيء الذى لم يفهمه ذلك الرجل والتزم الصمت وهو يتابع المشهد .

كان شاغل الكرسى رقم ١٥ مازال منهمكا فى مضغ الفطائر والحلوى مشغولا بصب فنجان آخر من الشاى عندما عادت المضيفة وبصحبتها الجرسون يحمل صينية أخرى مثقلة بالأحمال عليها عديد من الأكواب الزجاجية الممتلئة بالشاى وشطائر مختلفة وقهوة . أخذت المضيفة تقود الجرسون إلى أماكن الركاب وفى يدها النوتة التى تسترشد بها لتوزيع الطلبات على كل من طلبها ، ولم يكن من نصيب الوزير أى شيء فهو جالس الآن على مقعد كان خاليا عندما سجلت المضيفة فى نوتتها طلبات المسافرين . لم يبد الوزير أية ملاحظة ، بل ظل ملتزما الصمت . وبعد أن انتهى الجرسون من توزيع جميع الطلبات ناداه الوزير وطلب شايا لنفسه وفنجانا من القهوة لصديقه كرغبته .

بعد فترة طويلة جاء الجرسون يحمل صينية صغيرة عليها كوب من الزجاج به شاى وكنكة قهوة وكوب ماء . سلم كوب الشاى للوزير وصب فنحان القهوة لصديق الوزير ، وكان بالسطح السفلى للطبق الموضوع فوقه كوب الشاى بعض الماء فتناثر على ملابس الوزير الذى ابتسم ولم يتكلم ومسح الماء المتناثر بمنديله وأخذ يحتسى الشاى ناظرا من آن لآخر نحو الجالس على المقعد رقم ١٥ الذى بدا فى منتهى السعادة وهو يتأمل «السرفيس» الفاخر الذى أمامه .

بعد نحو نصف ساعة عاد رئيس القطار ووقف بجوار الرجل الجالس على الكرسى رقم ١٥ وانحنى بأدب واحترام عظيم قائلا :

ــ أى خدمات يا افندم ؟

نظر إليه الرجل مدهوشا وقال .
ـ لا ، أنا متشكر جدا .

قال رئيس القطار وهو يغض من بصره :
ـ القطار تأخر بعض الوقت يا أفندم لوجود تصليح فى السكة .
قال الرجل بدهشة :
ـ لا ، لم يتأخر كثيرا فى هذه المرة ، فى مرات سابقة كان التأخير أكثر من ذلك بكثير .
ـ إن شاء الله يا أفندم لن يحدث بعد ذلك أى تأخير .
ـ الخدمة أصبحت عظيمة جدا فى القطار .
قال رئيس القطار وهو يستعد للانصراف .

ـ أى طلبات يا أفندم ؟
ـ كلا لايوجد ماهو أحسن من ذلك .

انحنى رئيس القطار باحترام وانصرف ، وبعد قليل جاءت مضيفة القطار ووقفت عند المقعد رقم ١٥ وقالت للرجل :
ـ أى ملاحظات يا أفندم ؟
التفت اليها الرجل وقال بدهشة :

ـ ملاحظات ؟ ملاحظات مثل ماذا ؟ لاتوجد أية ملاحظات . الخدمة أصبحت ممتازة . لم تكن هكذا فى أى وقت من الأوقات .

ظل الوزير يتابع هذا المشهد بمتعة دون أن يتكلم . انتهى الرجل من تناول الشاى والتهام الفطائر وجاء الجرسون وانحنى بأدب قائلا للرجل :
ـ أى خدمات أخرى يا أفندم ؟

ـ لا يا ابنى ، أنا متشكر . امتلأت معدتى على آخرها . لن اتعشى الليلة

أخرج محفظته وإستفسر من الجرسون عن ثمن هذه الوليمة قال الجرسون :

ـ لاشىء يا أفندم .

وبادر بالانصراف مهرولا . تبادر إلى ذهن الرجل احتمال وجود صديق بالقطار هو الذى طلب هذا الطلب ودفع ثمنه . أخذ يدير بصره ناظرا إلى الركاب الذين يستطيع رؤيتهم وهو جالس فى مكانه فلم يعثر على أى صديق .

بعد فترة قصيرة أقبلت مضيفة أخرى لم تكن قد ظهرت فى العربة من قبل ويحتمل أن تكون مضيفة العربة الأخرى للدرجة الاولى رقم ج ، ووقفت بجوار الكرسى رقم ١٥ وقالت للرجل .

ـ أى ملاحظات أو أى خدمات يا أفندم ؟

نظر اليها الرجل وقال :

ـ لا يابنتى ، لاشىء .

انتهى الوزير من شرب الشاى الموضوع فى الكوب الزجاجى ومازال متابعا بعينيه مايحدث عند المقعد رقم ١٥ . ظل ممسكا الكوب الفارغ ومر الجرسون فناداه ليأخذ الكوب فلم يهتم به الجرسون وواصل سيره ، فانحنى الوزير ووضع الكوب بالقرب من موضع قدمه . كان رئيس القطار والجرسونات والمضيفات والفراشون يمرون بجوار الوزير دون أن يعيروه أى اهتمام ، ولم يتكلم الوزير ولم يبد أية ملاحظة .

أشرف القطار على محطة سيدى جابر . عند ذلك فوجىء الرجل

الجالس على المقعد رقم ١٥ بموكب من فراشى القطار يُهرعون إليه ويسألونه :

ـ هل مع سعادتك أية حقائب ؟

ـ أجل ، معى حقيبتان .

وأشار نحو حقيبتين موضوعتين على رف العربة قائلا :

ـ ها هما ، هذه الحقيبة وتلك .

هجم الفراشون على الحقيبتين وأخذوا يتنافسون ، كل واحد منهم يريد أن يستأثر بشرف حملهما ، وأخيرا انتصر واحد منهم وفاز بحمل الحقيبتين ، فقال الرجل :

ـ لا داعى لذلك ، سأحملهما بنفسى فهما خفيفتان .

فهو فى الواقع يريد توفير أجر حملهما . قال الفراش :

ـ العفو يا أفندم ، وهل هذا يجوز ؟

وقف القطار فى محطة سيدى جابر واتجه معظم الركاب نحو باب العربة إستعدادا لمغادرة القطار ، وهبط الرجل من القطار وخلفه الفراش يحمل الحقيبتين حانت من الفراش التفاتة فوجد ناظر المحطة واقفا فتعجب الفراش .

لماذا لم يلاحظ ناظر المحطة وجود الوزير فيهرع لاستقباله فناظر المحطة يقف عادة لاستقبال الوزراء . ؟

ولاحظ الفراش نزول شخص آخر من القطار تقدم نحوه ناظر المحطة قائلا :

ـ حمد الله على السلامة ياسعادة الوزير .

فى هذه اللحظة فقط أدرك الفراش أن صاحب الحقيبتين الثقيلتين ليس هو

الوزير ، وفى مثل لمح البصر ألقى بالحقيبتين على رصيف المحطة ، وفى أثناء اصطدام إحدى الحقيبتين بالرصيف انفتحت وتدحرجت منها فرشاة حلاقة كما برز منها خف وفانلة وشطيرة ملفوفة فى ورقة صحيفة . هُرِع الفراش نحو الوزير ليحمل حقائبه فتبين له أن الوزير لاتوجد معه أية حقائب .

وقف الرجل الذى كان جالسا فى المقعد رقم ١٥ مشدوها وحوله حقيبتاه وقد تناثرت محتويات إحداهما ، وكأنه واقف بين أنقاض منزل متهدم ، فانحنى يجمع أشياءه ، وغمغم قائلا : غير معقول . غير معقول إطلاقا . الخدمة كانت ممتازة ماذا جرى فى الدنيا ؟ أنا لا أفهم شيئا . وحمل حقيبتيه وسار يجر ساقيه نحو باب المحطة .

عام ١٩٧٣

خارج الكهــف

وسط هذه الصحراء ، بدا كنقطة هندسية تائهة فى بحر من الرمال لا أول له ولا آخر . رأى كهفا محفورا فى صخرة تبرز من الرمال . دخل الكهف وأنزل من فوق ظهره مخلاة لا ماء فيها ولا طعام . سمع صوتا من أعماق الكهف يقول :

ــ إلى أين أنت ذاهب ؟

أدار بصره باحثا عن مصدر الصوت فوجد رجلا منزويا فى ركن مظلم . أعاد الرجل سؤاله :

ــ إلى أين أنت ذاهب ؟

ــ لست أدرى ، ولكننى أواصل السير عسى أن أصل إلى قرية أو مدينة ، من أنت ؟ .

ــ لا شأن لك بى ، ولكن قل لى ، لماذا تريد الوصول إلى القرية أو المدينة ؟

ــ ليس من المعقول أن أظل هائما فى الصحراء حتى يقتلنى الجوع والعطش .

ــ وماهذا الذى بجوارك ؟

ـ طعامى وشرابى .
ـ هل تذكر أنك أكلت منه أو شربت ؟
أطرق إلى الأرض متفكرا ثم قال :
ـ لا أتذكر ، ولكننى لابد قد أكلت وشربت .
ـ لن تحتاج إلى الطعام والشراب إلا بعد وصولك إلى المدينة .
ـ وهل هناك أمل فى الوصول إليها ؟
ـ هذه الصحراء مليئة بأفراد مثلك ينتظرون الوصول إلى المدينة .
ـ أين هم ؟
ـ متناثرون فى أماكن عديدة كهذا المكان .
ـ وما هو هذا المكان ؟
ـ لست أدرى ، لم أعد أعرف شيئا .
ـ شعرت بالخوف عندما دخلته .
ـ كان من الأصوب أن تشعر بالأمان فأنت هنا فى مكان لايستطيع أى مخلوق أن يؤذيك فيه .

هدأت نفسه قليلا ، ولكنه عاد يشعر بقسوة الوحدة عندما قام الرجل واختفى داخل الكهف . ملأت السعادة قلبه عندما نظر فرأى على مقربة من الكهف مدينة ذات عمائر وقصور وقلاع . ظل ناظرا إليها مبهورا .

لم تكن هذه المدينة هنا فكيف ظهرت بغتة ؟ أنا لم أتحرك من مكانى فهل كانت المدينة تسير نحوى ؟ هذا مستحيل . ماذا حدث إذن ؟

قام ببطء وسار حاملا مخلاته الخاوية حتى وصل إلى المدينة . رأى سورا عاليا به بوابة ضخمة من النحاس الأصفر تحرسها امرأة فى نحو الثلاثين ، فتحت له الباب دون أن تنطق فدخل منه . سحبته من يده وسارت معه فى

شارع عريض على جانبيه عمائر وبعض حوانيت لايدرى ماذا تبيع . بدت المدينة وكأنها مهجورة . النوافذ مغلقة والحوانيت خالية من المشترين . لم يكن بالشارع سوى شجرة واحدة عليها طائر يشبه العصفور . كان الطائر يشدو . قال الشاب للمرأة :

ـ أشعر بوحشة فى هذه المدينة أكثر من التى كنت أشعر بها فى الصحراء
قالت وفى صوتها نبرة عتاب .
ـ كيف تشكو من الوحشة وأنا معك ؟

أطرق نحو الأرض فى خجل والتزم الصمت . من شارع جانبى انبثق طوفان هادر من البشر غمر الشارع الرئيسى الذى يسيران فيه فوجدا نفسيهما محوطين بجمع صاخب من الفتيات والنساء والصبية والرجال مرتدين ملابس مهرجى السيرك وبهلواناته، البعض يرقص والبعض يغنى ومنهم من يعزف على آلات وترية أو ينفخ فى آلات نحاسية وآخرون يقومون بحركات بهلوانية مبهرة . حاول الشاب التحدث مع المرأة ولكن الضوضاء طغت على صوته فآثر الصمت . أخذت الضجة تخفت تدريجيا فى حين أن الرقص والحركات البهلوانية ظلت كما هى . قالت المرأة :

ـ أمازلت تشعر بالوحشة ؟
ـ لا ، ولكننى أشعر بالتعب .
ـ سأبحث لك عن مكان تستريح فيه .

بعد فترة قصيرة بدأ أفراد الحشد يتفرقون ويختفون فى شوارع جانبية فأطبق الصمت على المكان من جديد . ظلا سائرين حتى وصلا إلى ميدان تتفرع منه عدة شوارع . أشارت المرأة إلى أحد تلك الشوارع قائلة :
ـ ها هو ذا طريقك الذى ستسير فيه .

كان الطريق فسيحا على جانبيه مساكن وأشجار وحدائق وبه عدد من المارة يسيرون فى الاتجاه نفسه الذى يسير فيه الشاب والمرأة . بعد بضعة أمتار أشارت المرأة إلى بيت صغير من طابق واحد قائلة :

ـ هيا معى لتستريح فى هذا البيت .

نظر إلى البيت فاحصا فوجد جميع نوافذه مغلقة عدا نافذة واحدة فزع عندما رآها ، فلقد أطل منها رجل يرتدى سترة صفراء وفى يده بندقية يصوبها نحو الشاب الذى التصق بالمرأة وقال بصوت مرتجف :

ـ ماهذا ؟ ألا ترين ؟ هل تدخلينني بيتا به شخص يتربص بى ليقتلنى ؟

قالت بلا اكتراث ؟

ـ لاتُعِرْه ولاتعرْ بندقيتَه أى اهتمام .

وقف مترددا ، ثم تحرك ببطء نحو الباب فرأى البندقية تتحرك مصوبةً نحوه . لاحظت المرأة تردده فجذبته من يده ودخلا معا .

أخذ يدور فى أنحاء البيت مستطلعاً . رأى أثاثا يعلوه التراب فشعر بنفور من هذا المكان . عندما دخل غرفة النوم وجد الرجل ذا البذلة الصفراء جالسا على كرسى صغير جنب النافذة وفى يده البندقية التى مازال يصوبها نحوه قال :

ـ ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟

ـ قلت لكَ لاتُعِرْه اهتماما ، اعتبره غير موجود .

ـ كيف أتجاهل وجوده وفى يده بندقية مصوبة نحوى أينما ذهبت ؟

قالت بغضب ونفاد صبر :

ـ قلت لك لاتعره أيَّ اهتمام ، لاتضطرنى لقول الشيء نفسه أكثر من مرة .

ثم أردفت قائلة بلهجة الأمر مشيرة إلى أحد الكراسى :

ـ اجلس على هذا الكرسي والتزم الصمت حتى أنظف لك البيت .

جلس على الكرسى بدون مناقشة ناظرا إلى المرأة بتعجب وقال :

ـ من انتِ وما اسمك ؟

أهملت الإجابة عن النصف الأول من السؤال وقالت :

ـ اسمى ولّادة .

ـ وما اسمى أنا ؟

ضحكت وقالت :

ـ ألا تعرف اسمك ؟ اسمك يعقوب .

ظل يردد اسمه عدة مرات وكأنه يحاول إختزانه فى ذاكرته . انتهت من تنظيف البيت وعادت إلى غرفة النوم فوجدت يعقوبا جالسا فى المكان الذى أمرته بالجلوس فيه فقالت له بلهجة الأمر :

ـ اذهب واجلس فى البهو ريثما أنظف هذه الغرفة .

بعد أن أتمت تنظيف غرفة النوم ذهبت اليه فى البهو وقالت :

ـ أنت مجهَد ، هيا إلى غرفة النوم ونم نصف ساعة .

قام واتجها معا نحو غرفة النوم . فتحت صوانا وأخرجت منه ملابس داخلية وبيجامة سلمتها إليه قائلة :

ـ ارتدِ ملابس النوم هذه .

بعد نصف ساعة بالضبط ايقظته من نومه قائلة :

ـ قم .

فصحا على الفور وجلس على السرير . أخرجت من الصوان ملابس جديدة للخروج وقالت :

ارتدِ هذه الملابس .

ارتدى ملابس الخروج . قالت :

ـ خذ هذه النقود واخرج لتناول طعامك فى أحد المطاعم ، إذ لاطعام الآن فى البيت .

تناول منها النقود فى صمت ووضعها فى جيبه دون أن يعدَّها وغادر البيت . حانت منه التفاتة فوجد المرأة ناظرة اليه من النافذة وبجوارها الرجل ذو الكسوة الصفراء مصوبا بندقيته نحوه . لم يعره اهتماما هذه المرة وسار فى طريقه . سمع المرأة تناديه فتوقف عن السير والتفت نحوها . قالت :

ـ هل تعرف أين ستتناول طعامك ؟

ـ كلا .

تناول الطعام فى مطعم «الرياح الأربع» .

ـ وأين أجده ؟

ـ ابحث عنه ولا تأكل فى مطعم سواه .

بدأ الطريق يتعرج وتتفرع منه طرق عديدة . ظل سائرا وسأل أحد المارة :

ـ أين أجد مطعم «الرياح الأربع» ؟

أشار نحو طريق جانبى وقال :

ـ سر فى هذا الطريق .

سار فى ذلك الطريق حتى بدأ يشعر بالتعب . رأى فتاة فى نحو الثامنة

عشرة تسير بالقرب منه فسألها :

أين أجد مطعم «الرياح الأربع» ؟

نظرت إليه بدهشة وقالت :

ــ لقد ابتعدت عنه كثيرا وضللت الطريق .

ثم أشارت نحو شارع ،جانبى ضيق وقالت :

ــ سر فى هذا الشارع ، المسافة إلى ذلك المطعم من هنا لاتقل عن ثلاثين كيلومترا .

كان الظلام قد بدأ يهبط ، فشعر بشيء من الخوف واليأس والضياع ، فغمغم قائلا :

ــ أخشى أن أظل سائرا إلى الأبد دون أن أصل إلى شيء .

قالت الفتاة :

ــ أتحب أن أكون رفيقتك على الطريق ؟

شعر وكأنه انتشل من بئر عميقة فقال :

ــ يسعدنى ذلك .

سارا معا ، فشعر بنشوة مشوبة بالخوف . بعد نحو ساعة من السير المضنى قال للفتاة :

ــ ما اسمك ؟

ــ سارة ، وأنت ؟

ــ يعقوب .

كان الطريق شبه مظلم لاينيره سوى مصابيح خافتة قليلة ، ويخلو فى بعض أجزائه من أى مصدر للضوء . قال للفتاة :

ــ أما زال المطعم بعيدا ؟

ـ لست أدرى ، لقد ضللت الطريق مثلك .

اقتربا من أحد المصابيح . لاحظ يعقوب شبح رجل واقف تحت إحدى الشرفات الآيلة للسقوط . سرت فى بدنه قشعريرة عندما اقترب من ذلك الرجل فالتصق بالفتاة قائلا :

ـ ها هو ذا مرة أخرى .

ـ من هو؟

ـ الرجل ذو البدلة الصفراء الذى يصوب البندقية نحوى . لست أدرى ما الذى يريده منى هذا الرجل؟

قالت بلا اكتراث :

لاتعره أى اهتمام .

ـ أنا تعبت . متى نصل إلى المطعم ؟

ـ يبدو أننا نزداد بعداً عنه . هيا نستريح فى هذا المقهى .

كان المقهى متلألئا بالأنوار ، يطل على الشارع الذى يسيران فيه ويقع على ناصية شارع آخر جانبى . جلسا عند منضدة قريبة من الشارع الرئيسى فبدأ يعقوب يشعر بالراحة ، ولكنه لم ينعم بهذه الراحة طويلا ، فلقد هجمت على المقهى أسراب من الذباب الأزرق ، فهمَّ بالقيام لمغادرة هذا المكان المزعج ولكن الفتاة نهرته قائلة وقد اكفهر وجهها :

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا أطيق البقاء مع هذا الذباب .

ـ بل ستبقى . اجلس .

جلس ممتثلا لأوامرها وشعر برجفة عندما تصور أنها قد تتركه وحيدا فى هذا المكان ، ولكن الذباب ظل يتكاثر فلم يستطع احتماله . قام وانطلق

يعدو والفتاة تعدو خلفه حتى وصلا إلى محطة القطار الذى يجوب أنحاء المدينة . أخرجت من حقيبة يدها شبكة القتها عليه فسقط على الأرض مكبلا بخيوط الشبكة وظلت تجره حتى وضعته على قضيب القطار ووقفت تنظر اليه وتقهقه . لاح القطار من بعيد مطلقا صفارته التى أخذ صوتها يعلو مقتربا ، فأخذ يعقوب يصرخ مستغيثا ولكن لم يسمعه أحد . عندما أوشك القطار على تمزيق جسده وفقد الأمل فى النجاة جذبت الفتاة طرف الشبكة فأبعدته عن القضيب . صاح قائلا :

ـ أنت مجرمة ، ماذا فعلت لك لتحاولى قتلى ؟

بعينين كعينى أفعى نظرت اليه قائلة :

ـ يالك من جاحد ناكر للجميل ، لقد أنقذت حياتَك وأبعدتك عن القطار .

ـ ألستِ أنتِ التى وضعتنى على القضبان ؟

ـ وأنا التى أبعدتك عنها وأستحق منك الشكر .

قال ساخرا :

ـ تستحقين منى الشكر ؟

ـ أجل ، الم يكن فى مقدورى أن أتركك ليلتهمك القطار ؟

ظل يحاول الخروج من الشبكة ولكنه لم يستطع ، اذ إن الخيوط كانت تزداد تعقيدا . صاح قائلا :

ـ أخرجينى من هذه الشبكة الملعونة .

تقدمت منه ببطء شديد وبدأت تفك الخيوط التى التفت بقوة حوله حتى أخرجته من الشبكة ، وما كادت تنتهى من هذه العملية حتى أخذ يعدو إلى أن وصل إلى محطة القطار . أسرع نحو شباك التذاكر ليشترى تذكرة وهو

لايعلم إلى أين يذهب ، كل ما كان يرغب فيه هو الابتعاد عن هذه الفتاة بأسرع مايمكن وليكن مايكون . شعر بصدمة عنيفة عندما وجد أن الفتاة الجالسة خلف شباك التذاكر هى الفتاة نفسها فترك الشباك وقفز فى القطار بدون تذكرة . ماكاد يجلس فى احد المقاعد حتى أقبلت نحوه فتاة ترتدى زيا رسميا بنى اللون وعلى رأسها قلنسوة من اللون نفسه طلبت منه أن يدفع ثمن التذكرة مضافا اليه غرامة . عندما تفرس فى وجهها اكتشف أنها هى ، فانتفض واقفا وقفز من القطار وانطلق يعدو . رأى الرجل ذا البذلة الصفراء يصوب البندقية نحوه فلم يهتم به وظل يعدو . أخذت تحوم حول وجهه ذبابة زرقاء فطردها بيده وسار فى طريقه . رأى أحد عساكر البوليس واقفا عند اشارة المرور فسأله عن مطعم «الرياح الأربع» قال له العسكرى :

ـ مالى أراك مضطربا ؟

ـ تطاردنى فتاة مجرمة ، كلما ذهبت إلى مكان أجدها فيه .

خلع العسكرى شاربه الكث المستعار ورفع قلنسوته فاكتشف يعقوب ان العسكرى هذا ماهو سوى الفتاة نفسها وقد ارتدت زى البوليس فكاد ينهار رعبا وجرى بأقصى سرعته مبتعدا عنها وهى تجرى خلفه . أراد أن يتوه بين الجماهير . رأى ملهى أمام شباك تذاكره جمع غفير فوقف ليشترى تذكرة . عندما وصل إلى شباك التذاكر لم يصدق عينيه ، فالفتاة الجالسة خلف الشباك هى نفسها التى يهرب منها . اختطف التذكرة وأسرع بدخول صالة الملهى ليكون فى صحبة عدد كبير من الناس فلا يتيح لها فرصة الانفراد به . عزفت الموسيقى ثم فتحت الستائر وظهرت على المسرح راقصة أخذ يتابع رقصاتها بنشوة وشغف ولكنه صعق عندما اكتشف أنها هى الفتاة نفسها ، فانتفض واقفا واستعد لمغادرة المكان . نظر اليه الرجل

الجالس بجواره وسأله :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ لست أدرى ، أريد الابتعاد عن هذا المكان .

ـ لماذا ؟ ألم يعجبك الرقص ؟

ـ هذه الراقصة تطاردنى ، لست أدرى ماذا تريد منى . لقد حاولت قتلى .

ـ لن تختفى من حياتك الا إذ تزوجْتَ ، تزوج ، أنا أعرف فتاة جميلة مناسبة لك فى استطاعتى أن أزوجك منها ، فهل تقبلها زوجة لتستريح من مطاردة هذه البنت الشرير ؟ .

ـ إذا كان هذا ينقذنى من هذه الفتاة فلا مانع لدىَّ ، متى تزوجها لى ؟

ـ الليلة إذا أردت .

ـ هيا بنا .

غادرا الملهى وسارا معا فى شوارع جانبية عديدة وقد شعر يعقوب باطمئنان وهدوء نفسى . قال للرجل :

ـ هل تعرف مطعم الرياح الأربع ؟

ـ أجل ، أعرفه جيدا ، إنه المكان الذى نحن ذاهبان إليه الآن .

قال يعقوب غير مصدق لما تسمعه أذناه :

ـ أموقن أنت من ذلك ؟

ـ كل اليقين ، فالفتاة التى ستتزوجها تعمل فى هذا المطعم .

خرجا من حارة ضيقة إلى شارع واسع يسبح فى الأضواء به مبنى من أربعة طوابق وعليه لافته مضيئة تحمل اسم «مطعم الرياح الأربع» . جلسا عند

منضدة بالقرب من الباب . قال يعقوب :

ـ ما اسمك ؟

ـ ساهر ، وأنت ؟

ـ يعقوب .

بعد فترة صمت قصيرة أردف قائلا :

ـ أشعر بجوع شديد . لم أتناول أى طعام منذ دخولى هذه المدينة .

أشار ساهر إلى إحدى الفتيات فأقبلت مسرعة وقَدمت لهما قائمة الطعام وذهبت لإحضار ماطلباه . قال ساهر :

ـ ما رأيك فى هذه الفتاة ؟

ـ جميلة جدا .

ـ هل تعجبك ؟

ـ نعم ، تعجبنى .

ـ إنها عروسك .

أقبلت الفتاة تحمل الطعام فأطال يعقوب النظر اليها وشعر بسعادة ونشوة عندما تصور أنها ستكون رفيقة حياته . عندما انتهيا من الطعام أخرج يعقوب النقود محاولا دفع الحساب ولكن ساهرا قال :

ـ سأدفع أنا الحساب فأنت ضيفى الليلة ، وعلاوة على ذلك سأصبح صهرك فالفتاة التى ستتزوجها ابنتى .

أعاد يعقوب نقوده إلى جيبه وهزته الفرحة فقام وباس ساهرا وصافحه بحرارة وجلس وعيناه تبحثان عن الفتاة فى أنحاء المطعم وقال :

ـ متى أتزوجها ؟

ـ الآن .

لاحظ يعقوب وجود شخص لم ينتبه لوجوده من قبل فى هذا المطعم . فى ركن خافت الضوء شاهد الرجل ذا البذلة الصفراء مصوبا بندقيته نحوه فأحس باكتئاب لم يستطع إخفاءه فقال :

ـ لست أدرى لماذا يطاردنى هذا الرجل .

ـ أى رجل ؟

أشار إلى الرجل قائلا :

ـ ذلك الرجل ذو البدلة الصفراء ، إنه يصوب نحوى بندقيته أينما ذَهبْت .

ـ تجاهله ولا تفكر فيه ، هيا بنا نعقد العقد .

تمت اجراءات عقد القران فى مكتب لتوثيق العقود بالقرب من المقهى وسارا معا بعد ذلك فى شارع جانبى يكتنفه الظلام . قال يعقوب :

ـ إلى أين نحن ذاهبان ؟

ـ إلى منزل الزوجية .

توقف ساهر عند عمارة مكونة من ستة أدوار وقال :

ـ منزلك بالدور الثانى فى هذه العمارة .

صعدا إلى الشقة رقم خمسة . أخرج والد العروس مفتاحا وفتح الشقة ثم سلم المفتاح إلى يعقوب قائلا :

ـ ها هو ذا مفتاح شقتك ، حافظ عليه من الضياع وحافظ على عروسك .

ـ اين هى ؟

ـ سأذهب لأرسلها أليك .

غادر ساهر الشقة وترك يعقوبا الذى أخذ يدور فى أنحائها مستكشفا .

عرف أَنها تتكون من ثلاث غرف وبهو فسيح ومفروشة بأثاث يبدو وكأنه مستعمل ولكن يعقوبا فرح به فرحا شديدا . جلس على أحد الكراسى وأخذ يفكر فى عروسه وقلبه يغنى فرحا . بعد نحو ساعة سمع جرس الباب فهرع لفتحه . وجد العروس مرتدية فستان الزفاف فاحتضنها وباسها وأدخلها وأحكم إغلاق الباب خلفها وكأنه يخشى أن تهرب منه ، ثم سحبها من يدها وذهبا إلى غرفة النوم .

خلعت فستان الزفاف وفتحت الصوان وأخرجت منه قميص نوم شفاف وارتدته ، وظل يعقوب طوال هذه الفترة ناظرا اليها برغبة وشهوة جامحة . احتضنها وباسها فى فمها ولكنها أبعدته عنها برفق وخلعت قناعا من المطاط كان ملتصقا فوق وجهها بمهارة فائقة واحكام . لم يحتمل الصدمة فانهار وقد شعر بدوار عندما اتضح له أن هذه العروس ماهى إلا سارة التى تطارده فى كل مكان . قالت وقد بدت كنمرة مرعبة :

ــ ماذا دهاك ؟ لماذا تنفر منى وتحاول الابتعاد عنى ؟ ألست أنثى كباقى الإناث ؟ لست أول من يضع على وجهه قناعا فمعظم البشر يفعلون ذلك . لن تستطيع الهرب منى . لو صعدت إلى القمر أو إلى زحل فستجدنى هناك فى انتظارك .

عندما أدركت أنه فى شبه غيبوبة ركلته فى خصره ركلة قوية فأفاق مرتاعا ووقف مترنحا . صفعته على خديه صفعتين قويتين قائلة :

ــ أفق ، لا وقت لهذا الخَوَر ، هيا لتباشر واجباتك الزوجية . أنسيت يا وغد أن هذه ليلة عرسك ؟

فى الصباح صحا من نومه شاعرا بارهاق شديد . وجد عروسه جنبه

مستغرقة فى النوم . قام بحرص شديد سائرا على أطراف أصابعه وبدأ يستبدل بملابس النوم ملابس الخروج ، وماكاد يضع يده على أكرة الباب محاولا التسلل خارج البيت حتى سمع صوتا كزئير الأسد يصيح قائلا :

ـ قف عندك ياجبان .

وقف على الفور وكأنه صورة فى فيلم سينمائى توقف عن الدوران بغتة . رآها مندفعة نحوه بوجه منتفخ وشعر شَعِث مكشرة على أنيابها . حاول الإسراع بالخروج ولكنها أطبقت على ذراعه بقبضه فولاذية حاول الإفلات منها فلم يستطع . قالت :

ـ أتعبتنى معك يافاجر ، إلى أين أنت ذاهب فى هذا الصباح الباكر ؟ ألم أقل لك إنك لن تستطيع الهرب منى ؟

جذبته جذبة قوية أفقدته توازنه فوقع على كنبة فى البهو . صاحت قائلة :

ـ قم .

فقام على الفور ، أردفت قائلة :

ـ هيا تناول فطورك ، هل تريد أن تخرج بلا فطور فتصبح خائر القوى عديم الفائدة ؟

ـ لارغبة لى فى تناول أى طعام .

ـ بل ستأكل . كل إنسان عندما يصحو من النوم لابد أن يأكل . أنا أعلم لماذا تقول ذلك ، لتوفر طعامى .

ـ لم يخطر هذا ببالى على الإطلاق .

ـ وهل كنت تريد أن يخطر ببالك ؟ لم يبق غير هذا . هل تريد تجويعى حتى الموت ؟ هيا إجلس إلى المائدة وانتظر حتى أنتهى من إعداد الطعام واياك أن تتحرك .

جلس إلى المائدة وذهبت سارة إلى المطبخ ، وفى هذه الأثناء راودته فكرة محاولة الهرب مرة أخرى ولكن شعوره بالجوع الشديد منعه من ذلك .

قالت له فى أثناء تناولهما الطعام :

ـ ألم تسأل نفسك عن مصدر النقود التى أحضرتُ لك بها هذا الطعام ؟

دون أن ينظر اليها قال :

ـ لا ، لم أسأل نفسى .

ـ ولماذا لم تسأل نفسك هذا السؤال ؟ هل تنتظر منى أن آخذ النقود من أبي لكى أطعمك ؟ من المفروض أن ينفق الزوج على زوجته ، ولذا فلا بد من حصولك اليوم على عمل يتيح لك دخلا يتناسب مع مسئولياتك الجسام كربٍّ أسرة .

ـ وأين أجد هذا العمل ؟

ظلت ناظرة اليه فترة وقد بدت فى ملامح وجهها علامات الازدراء ، ثم قالت ساخرة ومؤنبة :

ـ لست أدرى كيف كنت ستواجه الحياة لو لم يسعدك الحظ بمعرفتى . لقد حصلت لك على عمل محترم .

قال بلهفة .

ـ ماهو ؟

ـ محرر فى صحيفة «ذهب مع الريح» .

ـ وأين هذه الصحيفة ؟

ـ على بعد خطوات من هذا البيت .

عندما وصل إلى الصحيفة استقبلوه بحفاوة وقادوه إلى غرفة فاخرة

ملحق بها غرفة أخرى تجلس خلف مكتبها سكرتيرة رائعة الجمال وديعة كاليمامة .

انتفضت واقفة عندما مر بغرفتها وانحنت له انحناءة كبيرة .

جلس إلى مكتبه وأخذ يتأمل محتويات الغرفة ثم ضغط على أحد الأزرار وفى مثل لمح البصر دخلت السكرتيرة ووقفت أمامه فى انتظار أوامره . بعد فترة تردد ظل فى أثنائها محملقا فى وجهها الجميل قال :

ـ أنا لا أعرف شيئا عن العمل الذى سأقوم به ، فهذه اول مرة أدخل فيها احدى دور الصحف .

قالت مبتسمة :

ـ العمل فى غاية السهولة ، سأحضر لك القربة .

خرجت وعادت وفى يدها قربة سلمتها له قائلة :

ـ ها هو ذا عملك .

ـ ماذا سأعمل بهذه القربة ؟

ـ تنفخ فيها .

ـ أنفخ فيها ؟ ! وماذا أفعل بعد أن تمتلىء بالهواء ؟

ـ لن تمتلىء بالهواء أبدا .

ـ كيف .

ـ القربة مثقوبة .

ـ ولماذا لانقفل الثقب ؟

ـ غير مسموح بعمل أية تعديلات أو إصلاحات فى القربة .

ـ وكم سأتقاضى فى مقابل ذلك ؟

ـ مائة جنيه فى اليوم .

قال بدهشة :

ـ فى اليوم أم فى الشهر ؟
ـ فى اليوم ، أى ثلاثة آلاف جنيه فى الشهر .
اضطجع بكرسيه إلى الخلف وقال :
ـ مبلغ لا بأس به .
وأردف قائلا وهو يتحرك بالكرسى يمينا ويسارا :
ـ ولو أن العمل مرهق .
شعر بسعادة لم يشعر بمثلها من قبل .

هاهى ذى الأيام قد ابتسمت لى . لن تستطيع زوجتى إفساد حياتى بعد الآن . فلتفعل فى البيت ماتشاء وسأقضى معظم حياتى هنا بصحبة السكرتيرة الجميلة . ومن يدرى ، قد أتزوجها فى يوم من الأيام .

خرجت السكرتيرة وبدأ النفخ ، وبعد نحو ربع ساعة أطلت من الباب مبتسمة فرأته منهمكا فى النفخ محتقن الوجه متصبب العرق ، فدخلت وقالت :
ـ لا داعى ياسيدى لأن تجهد نفسك فى النفخ مادامت القربة لن تمتلىء بالهواء أبدا .

عندما تفكر فى كلام السكرتيرة وجده منطقيا ، فتوقف عن النفخ واضطجع بكرسيه إلى الخلف وقال .
ـ اطلبى لى فنجان قهوة .
ـ سمعا وطاعة ياسيدى .
فى أثناء احتساء القهوة دخلت السكرتيرة وسلمته ورقة قائلة :
ـ ورد هذا النبأ المزعج الآن ياسيدى .

اختطف منها الورقة بلهفة وأخذ يقرأ . يقول النبأ إن طائرة مجهولة

الهُوِية ألقت قنبلة على أحد المبانى ، كما ألقت منشورات تقول فيها إنها ستواصل القاء القنابل عشوائيا على أماكن أخرى ليلا أو نهارا .

بوجه شاحب وعينين مذعورتين نظر فوجد السكرتيرة مازالت واقفة ، قال :

ــ مامعنى هذا ؟

ــ معناه ياسيدى أننا منذ هذه اللحظة سنعيش فى رعب مستمر طوال الليل والنهار .

ــ وإلى متى ؟

ــ لا أحد يدرى ، هذه أشياء لانعلم عنها شيئا ولا نملك لها ردا .

امتلأت الغرفة بالذباب الأزرق فقام وغادر الصحيفة . عندما اقترب من منزله رأى زوجته تطل من النافذة بوجه عبوس ومن النافذة المجاورة يطل الرجل ذو البذلة الصفراء مصوبا بندقيته نحوه .

شيء عجيب ، ماذا يريد منى هذا الرجل ، وكيف يظل مع زوجتى وحدهما فى بيتى طوال فترة غيابى ؟

خرج من المصعد وضغط على زر جرس الباب ففتحت له زوجته ، وما كادت تراه حتى وضعت يديها فى خصرها وانفجرت صائحة :

ــ أين كنت طوال هذا الوقت يافاجر ؟

ــ كنت فى الصحيفة .

ــ ولماذا تأخرت ؟ هل أعجبتك السكرتيرة فأردت أن تقضى بصحبتها وقتا أطول من الذى تقضيه معى ؟

ــ تأخرت بسبب ضغط العمل .

نظر فوجد الرجل ذا البدلة الصفراء واقفا فى ركن البهو مصوبا البندقية نحوه فقال لزوجته :

ـ وأنتِ هل قضيت وقتا سعيدا بصحبة هذا الرجل ؟

خلعت فردة الحذاء وقذفتها فى وجه زوجها فأخطأته وأصابت رأس الرجل ذى البدلة الصفراء الذى لم يتحرك وظل مصوبا البندقية نحو يعقوب .

صاحت الزوجة قائلة :

ـ ماذا تقصد ياوغد ؟ هذا الرجل لا شأن لنا به ولا سلطان لنا عليه . إنه يدخل أى بيت ويخرج منه عندما يشاء وأنت تعلم ذلك ، إنه لايصوب بندقيته اليك وحدك كما يبدو فرصاصته قد تصيب أى انسان فى أية لحظة .

ثم اشارت إلى هذا الرجل وقالت :

ـ أطلق على رأسه رصاصة وأرحنا من خلقته .

ولكن الرجل ظل ساكنا صامتا واضعا يده على الزناد دون أن يضغط .

قال يعقوب لزوجته :

ـ أنا جوعان ، أين الغداء ؟

ـ لكرم اخلاقى ونبل مشاعرى سأسمح لك بالغداء فى هذه المرة فقط وإذا تأخرت مرة أخرى فلا غداء لك عندى . هيا .

ذهبا إلى غرفة المائدة وما لبث الرجل ذو البذلة الصفراء أن سار معهما ، ولاحظ الزوج أن زوجته وضعت طبقا للرجل على المائدة جنبها عند المقعد المقابل لزوجها ، جلس الرجل فى المكان المعد له وبدأ يتناول طعامه والبندقية لم تفارق يده . فى أثناء الغداء سُمع صوت انفجار مروع جعل

البيت يهتز فصرخت الزوجة صرخات هستيرية وأسرع حامل البندقية بتصويب بندقيته نحو الزوج الذى أسرع بمغادرة البيت مستطلعا الأمر . عرف أن الطائرة التى ورد نبؤها إلى الصحيفة قد ألقت قنبلة أخرى بالقرب من منزله .

كانت الفوضى سائدة فى الشوارع . الناس يجرون ويتصادمون مع بعضهم ، ومن يقع تدوسه الأقدام ولايجد من يأخذ بيده . خشى أن تكون القنبلة قد أصابت مبنى الصحيفة فانطلق يعدو نحوها . وجد المبنى سليما فشعر بفرحة أنسته الفزع ، دخل المبنى وصعد إلى غرفته . دهش عندما وجد السكرتيرة جالسة فى مكانها . بادرها قائلا :

ـ لم أكن أتوقع وجودك الآن هنا .

ـ أننى أظل هنا طوال اليوم لاحتمال حضورك فى اية لحظة ، وأنا سعيدة لحضورك الآن لأحمل لك بشرى عظيمة .

كان هذا آخر مايتوقع سماعه ، فقال بدهشة :

ـ بشرى ؟ ! أية بشرى هذه ؟

ـ وردت الآن برقية من وكالة الأنباء تفيد بأنك حصلت على الجائزة الكبرى .

قال وقد ازدادت دهشته وفرحته :

ـ جائزة كبرى ؟ ! جائزة ماذا ؟ أنا لا أنتظر أية جوائز فأنا لم أفعل أى شىء استحق عليه جائزة .

ـ ولكنك حصلت على الجائزة الكبرى . أصبحت من أصحاب الملايين وستعيش فى قصر فاخر يطل على البحيرة . لابد من ذهابك لاستلام الجائزة . اذا لم تذهب فسيسقط حقك فيها .

ــ متى أذهب ؟
ــ الليلة ، حيث ستسلم إليك فى احتفال مهيب .
ــ وكيف أصل إلى مكان الحفل ؟
ــ لاتشغل بالك بذلك ، فستقلك إحدى السيارات إلى مكان الحفل وسأكون معك .

دخل غرفته وجلس إلى مكتبه شارد الذهن يفكر فى تلك الجائزة التى لم تكن تخطر له على بال . دخلت السكرتيرة وقالت :
ــ السيارة فى انتظارك ياسيدى .

قام وهبط بالمصعد بصحبة السكرتيرة . عند الباب الرئيسى للصحيفة وجد سيارة فارهة . قالت له السكرتيرة :
ــ هذه سيارتك .

عندما اقترب من السيارة هبط السائق وفتح له الباب فجلس وجلست السكرتيرة جنب السائق وانطلقت السيارة ثم توقفت عند مبنى من ثلاث طوابق ينبعث الضوء من جميع نواحيه وكأنه قطعة من الماس ، تحيط به حديقة واسعة تموج بمدعوين من الإناث والذكور مرتدين ملابس أنيقة وكأنهم فى يوم عيد ، بعضهم يرقص على أنغام موسيقى عذبة تنبعث من مكبرات الصوت والبعض يتناول المرطبات التى توزعها فتيات جميلات يرتدين ملابس زرق وصفر . والبعض يركب قطارا ذا عربات مزركشة ومزينة بالأزهار يجوب أنحاء الحديقة مرددين أناشيد مرحة .

هبط يعقوب من السيارة عندما فتح له السائق بابها ، ثم هبطت منها السكرتيرة وسار يعقوب بين صفين من الفتيات وقفن لتحيته وسارت السكرتيرة خلفه . صعدا السلّم الخارجى للمبنى حيث قادته السكرتيرة إلى

قاعة فسيحة فى صدرها ما يشبه المسرح قرب حافته الأمامية طاولة مرتفعة وأمام المسرح عدد هائل من المقاعد . أجلسته السكرتيرة على كرسى فى الصف الأول وجلست جنبه .

من باب جانبى على المسرح أقبل رجل طويل نحيل وجلس على كرسى خلف الطاولة . كانت الضوضاء تنبعث من جميع أنحاء القاعة . وقف الرجل النحيل فساد الصمت ثم قال :

ــ بعد البحث والفحص ، وطول الدراسة واستخدام الحدْس والإلهام والفراسة ، توصلت اللجنة إلى اختيار الفارس المحظوظ صاحب الحول والطول والنفوذ يعقوب المحبوب ، فليتكرم ويتقدم ليستلم جائزة هذا العام وقدرها مليون وقصر من المرمر على شاطىء بحيرة العنبر .

وقف يعقوب فوقف كل من بالقاعة احتراما له ، ثم تقدم نحو المنصة حيث سلمه الرجل النحيل علبة من الذهب مبطنة بالقطيفة بها شيك بالمبلغ ومفتاح من الذهب لقصر المرمر . فى أثناء تسلم جائزته الثمينة انبعثت من مكبرات الصوت موسيقى شجية . عاد وجلس فى مكانه فجلس كل من فى القاعة وهبط الرجل النحيل من فوق المنصة وجلس جنب يعقوب على كرسى كان خاليا ، وظهرت على المسرح فرقة للفنون الشعبية قامت بعرض رائع على أنغام الموسيقى ثم أقفلت الستائر ، فقام المحتفى به وقادته السكرتيرة إلى باب المبنى حيث كانت السيارة الفاخرة فى انتظاره . وقف حائرا وهمس فى أذن السكرتيرة قائلا :

ــ إلى أين أنا ذاهب الآن ؟

ــ إلى قصرك الجديد الذى ستعيش فيه ، وهذه السيارة هدية لك .

ركب السيارة وظلت السكرتيرة تلوح بيدها حتى غابت السيارة عن

نظرها ، وعند باب قصر المرمر المطل على البحيرة توقفت السيارة وهبط منها يعقوب .

اصطف على الجانبين سرب من الخدم ، نساء ورجالا ، انحنوا له فى أثناء مروره نحو السلم الخارجى مخترقا الحديقة المترامية الأطراف بأشجارها الباسقة وأزهارها المتنوعة الأشكال والألوان وكل مايخطر على البال ومالا يخطر على البال من فاكهة .

أخذ يجول فى غرف القصر شاعرا بسعادة لايستطيع التعبير عنها . ازدادت سعادته عندما تذكر أنه ابتعد عن زوجته المفترسة وأنها لن تعرف له طريقا بعد اليوم . كانت جميع الغرف التى مر بها مفروشة بأثاث لايوجد إلّا فى قصور الملوك وأصحاب الملايين . رأى آلات تليفون عديدة بديعة الألوان متناثرة فى أماكن مختلفة . رفع سماعة احدها وسر عند سماع الازيز الذى لم يسمعه فى تليفون منزله ولكن سروره شابه شىء من الحزن والقلق عندما قفزت فى ذهنه فكرة أرعبته وهى خوفه من أن تتصل به زوجته ولكنه طرد من ذهنه هذه الوساوس .

عندما دخل غرفة النوم فى ذلك القصر شعر بصدمة عنيفة جعلته يترنح . رأى زوجته جالسة على السرير تنظر إليه بعينين حمراوين وقد أظهر الغضب الجامح كل مافيها من قبح الروح والجسد ، وشاهد فى أحد أركان الغرفة ذلك الرجل الغامض ذا البذلة الصفراء مصوّبا بندقيته نحوه . ظلت الزوجة مثبتة بصرها نحو زوجها فترة خيل اليه أنها أعوام طوال ، ثم قامت وتقدمت نحوه ببطء وقالت :

ــ كيف يحدث كل هذا دون أن تخبرنى ؟ لم أعلم الّا من الصحف والإذاعة فهل أنا آخر من يعلم يافاجر ياداعر ؟

ـ أنا نفسى لم أكن أعلم ، ولم أستطع الاتصال بك فأنت تعلمين أن تليفوننا معطل ولم يتسع الوقت للحضور إلى البيت ، فلقد تم كل شيء بسرعة رهيبة .

قالت بصوتٍ كفحيح الأفاعى .

ـ اذا غفرتُ لك كل شيء فلن أغفر لك هذا أبدا .

ـ لقد حصلتُ على الجائزة الكبرى علاوة على هذا القصر والسيارة الفاخرة ، أصبحنا من الأغنياء .

ـ لا شأن لى بجائزتك وقصرك وسيارتك .

ـ ألن يصبح القصر قصرك والسيارة سيارتك ؟ ألن نسعد معا بالمال الذى حصلت عليه ؟

ـ كل هذا لاقيمة له عندى ولايمحو شعورى بخيانتك وهروبك منى إلى هذا القصر .

ـ ألسنا الآن معاً ؟

ـ لم تكن تعلم أننى هنا . لقد سعدت لبعدك عنى .

ثم نظرت إلى حامل البندقية وصاحت قائلة :

ـ إلى متى تظل مصوبا هذه البندقية الخرساء وعاجزا عن الضغط على زنادها ؟

انقضت على الرجل وخطفت منه البندقية وأطلقت منها رصاصة أخطأت زوجها وقتلت عصفورا كان على غصن شجرة جنب النافذة .

انطلق الزوج يجرى وزوجته تجرى خلفه مطلقه من آن لآخر رصاصة من البندقية وظل يجرى حتى اقترب من بوابة تذكر أنه رآها من قبل . إنها البوابة التى دخل منها إلى المدينة . أطلقت الزوجه رصاصة ، وفى هذه

اللحظة رأى عند البوابة المرأة المسماة ولّادة التى رآها عند قدومه . احتضنته وباسته وبكت عندما رأته يبكى . انتزع نفسه منها قائلا وهو مختنق بالبكاء .

ــ لقد تعذبتُ كثيرا .

قالت المرأة وهى تبكى .

ــ وفرحتَ قليلا .

أرادت التشبث به ولكنه لم يمكنها من ذلك وتركها وهى تبكى وانطلق يعدو . شعر بعطف على هذه المرأة وحنين إليها فاستدار ليتحدث معها ، ولكنه لم يجدها ولم يجد المدينة التى اختفت كما لو كانت صورة على شاشة سينما وتلاشت عندما انتهى الشريط . وجد نفسه يرتدى الملابس التى كان يرتديها عند دخول المدينة ويحمل المخلاة التى كان يحملها على ظهره ، وبدت أمام عينه الصحراء اللانهائية التى كان سائراً فيها ، وشاهد الكهف الذى كان فيه فاتجه نحوه . وجد الرجل الذى سبق أن رآه فى الكهف مازال جالسا بداخله . قال له الرجل :

أين كنت ؟

ــ كنت فى المدينة .

ــ أية مدينة ؟

ــ مدينة كانت هنا بالقرب من الكهف ولكنها اختفت . لست أدرى كيف تختفى مدينة كبيرة كهذه فى مثل غمضة عين ؟ !

نظر إليه الرجل ، وأطال النظر ثم قال :

ــ كل ما رأيته لم يكن سوى سراب . أنا أيضا رأيتُ هذه المدينة ورآها كثيرون غيرنا .

عام ١٩٨٥

الطريق الأخر

أطلت الأرملة العجوز من باب غرفة عبد اللطيف قبل خروجها من لمنزل وقالت :

ـ تركت لك بيضة فى المطبخ ، حرك رجليك واسلقها فلا وقت لدى

إلتفت إليها الرجل وقال بتوسل :

ـ لم تعد رجلاى قادرة على الحركة ، وأنا اليوم مريض . أرجوك أن تسلقيها لى اليوم فقط ، آخر مرة .

قالت مدام شداد بصبر نافد :

ـ قلت لك لا وقت لدى ، ألا تفهم ؟

قال عبد اللطيف متوسلا :

ـ والقربة الساخنة ؟ أنا بردان وفى حاجة إلى قربة ساخنة .

قالت مدام شداد بانفعال :

ـ طلباتك لاتنتهى ياعبد اللطيف أفندى . ليتك تبحث عن بنسيون آخر يريحك ويريحنى .

قال عبد اللطيف وقد دمعت عيناه :

ـ لاتغضبى يامدام شداد ، أنت تعلمين أننى وحيد فى الدنيا وكبرت فى

السن ولم يبق لى سوى أيام معدودة وترتاحين منى ومن طلباتى ، وأنا لا أريد أن أتعبك أو أغضبك . كل ما أرجوه أن تحضرى لى معك ثلاث سجائر (توسكانى) وها هو ذا ثمنها .

ومد اليها يده المرتعشة فأخذت النقود بامتعاض قائلة :

ـ أنت تعلم أننى سريعة النسيان . سأُحضر لك السجائر لو تذكرت .

خرجت مدام شداد وبقى عبد اللطيف وحده بالمنزل ، وبينما يهم بالوقوف للذهاب إلى المطبخ ليسلق البيضة دق الجرس . ذهب يجر ساقيه وفتح الباب وإذا أمامه امرأة عجوز لم تسبق له رؤيتها يشع من عينيها بريق عجيب ، سألها :

ـ من حضرتك ؟

تجاهلت العجوز سؤاله وقالت :

ـ هل مدام شداد هنا ؟

ـ لا ، ليست هنا خرجت منذ نحو ربع ساعة .

لم تنتظر العجوز حتى يؤذن لها بالدخول فدخلت قائلة :

ـ سأنتظر حتى تعود فرجلاى توجعنى .

أقفل عبد اللطيف الباب وقال :

ـ أنت أيضا توجعك رجلاك ؟

ـ أجل ، تعبت من صعود السلم .

جلست على كنبة عتيقة فى بهو المنزل وظل عبد اللطيف واقفا ينظر إليها ، فقالت :

ـ لماذا تقف محملقا فى وجهى هكذا ؟ إجلس .

ألقى عبد اللطيف بجسده فوق كرسى مقابل للكنبه قائلا :

ـ هأنذا قعدت .

ثبتت المرأة نظراتها فى عينى عبد اللطيف فشعر بتلك النظرات وكأنها تنفذ إلى أعماق نفسه وأحس برجفة . قالت العجوز :

ـ تعال هنا ، جنبى .

فقام وجلس بجوارها بدون تفكير وكأنه منوّم تنويما مغناطيسيا . ساد الصمت فترة من الزمن ، وبغتة التفتت إليه العجوز قائلة :

ـ سأذهب لأسلق لك البيضة .

قال بدهشة :

ـ وكيف علمت أن بالمطبخ بيضة وأننى محتاج لمن يسلقها لى ؟ هل تقابلت مع مدام شداد فى الطريق ؟

ـ لو تقابلنا لما عرف أحدنا الآخر ، فلا أنا أعرفها ولا هى تعرفنى .

ـ ولكنك سألتنى عنها . واذا كنتِ لاتعرفينها فلماذا أتيتِ إلى منزلها ؟

ضحكت العجوز وقالت :

ـ أحضرت لك السجائر التوسكانى .

أخرجت السجائر من حقيبتها وأعطَتْها له فأخذها بلهفة وفرحة قائلا :

ـ أشكرك جزيل الشكر ، هل أعطتها لك مدام شداد ؟

ـ قلت لك إننى لا أعرف مدام شداد ولم أرها فى حياتى !

قامت واتجهت نحو المطبخ وتركت عبد اللطيف مذهولا ، وبعد فترة قصيرة عادت ومعها صينية عليها بيضة مسلوقة وقطعة من الخبز وملّاحة وبعض المربى والزبد . وضعت الصينية أمام عبد اللطيف قائلة :

ـ خذ كل . أنت جوعان .

أخذ يلتهم الطعام فى صمت ، وعندما انتهى من تناوله فتحت العجوز حقيبتها وأخرجت منها قربة ماء ساخن وضعتها فوق فخذيه قائلة :

وخذ هذه القربة لتدفئك ، أنت ترتعش من البرد .

احتضن عبد اللطيف قربة الماء الساخن ناظرا إلى العجوز بدهشة فبادرته قائلة :

ــ أرنى كفك !

فسلمها يده فى استسلام . نظرت فى كفه تفحصه ثم قالت :

ــ أنت لم تتزوج . عشت طوال حياتك وحيدا بلا زوجة .

ــ لم يكن لى نصيب .

ــ شيء عجيب ، مع أنك كنت وسيما فى شبابك وكنت طيبا وظريفا ومتحدثا لَبِقا .

ــ كان يا ما كان . الله يرحمنى .

ــ ويحسن إليك .

رأى العجوز تصوب نحوه نظرات ثاقبة فارتجف وصاح قائلا :

ــ لماذا تنظرين الىَّ هكذا ؟ هل تعرفيننى ؟

ــ لا ، لا أدعى هذا الشرف .

ــ إذن ماهى الحكاية ؟

ــ أفكر فى الدنيا . الدنيا أمرها عجيب . حادث تافه عديم القيمة فى نظر الإنسان ربما يكون سببا فى تغيير مجرى حياته . هل تعلم أن اليوم هو عيد ميلادك ؟

ــ عيد ميلادى ؟ ! ولماذا نسميه عيدا ؟ إنه مجرد تاريخ ، ولم يحدث أن تذكرت تاريخ ميلادى أو تذكره أحد فى أى عام من الأعوام .

قالت وهى لاتزال تخترقه بنظراتها :

ــ اليوم تتم رحلة ثمانين عاما على ظهر الأرض .

تنهد وقال :

ــ كان الله فى عونها هذه الأرض . الأيام تمر سراعا .

ابتسمت العجوز وقالت :

ــ سأحتفل لك الآن بعيد ميلادك ، لأول مرة فى حياتك .

بغتة ، رأى عبد اللطيف على المنضدة التى أمامه كعكة هائلة بها ثمانون شمعة صغيرة الحجم موقدة أذهلته المفاجأة فصاح قائلا :

ــ ماهذا ؟ من أين جاءت هذه الكعكة ؟ لم يكن على المنضدة شيء !

قالت العجوز بلهجة الأمر :

ــ لاتسأل كثيرا ، أطفىء الشموع وأنت ساكت .

أخذ يطفىء الشموع قائلا :

ــ ماهذا العدد الهائل من الشموع ؟

ــ عدد سنوات عمرك .

ــ إطفاؤها يحتاج لإحدى عربات إطفاء الحريق . أنا لا أفهم شيئا .

ــ من المستحسن ألاّ تفهم شيئا ، هل من الضرورى أن يفهم الإنسان كل شيء ؟ ماذا كنت أقول ؟ آه تذكرت . كنت أقول إن حادثا بسيطا قد يكون ذا تأثير كبير على مجرى حياة الإنسان ، مثلا ، صديق لم تره منذ زمن طويل تراه فى الطريق مصادفة ، أو قطار يفوتك ركوبه وتركب غيره ، أو انتقال من بلد إلى بلد آخر ، أو منزل تسكنه ، قد يكون سببا فى تغيير مجرى حياتك . هل تذكر ، مثلا ، منذ نحو سبعة وخمسين عاما وأنت فى الثالثة والعشرين ؟ كنت انتهيت من التعليم وحصلت على وظيفة فى القاهرة وانشغلت بالبحث عن مسكن ، كانت المساكن الخالية كثيرة جدا فى تلك الأيام . هل تذكر هذه الأيام ؟ هيا استرجع ذكرياتها .

رجع عبد اللطيف بفكره إلى الماضى البعيد وكأنه يخترق طريقا طويلا يكتنفه الضباب ، ثم قال :

ـ نعم تذكرت ، منذ زمن يبدو بعيدا ، بعيدا جدا ، أبعد من النجوم .

ـ هل تذكر يوم كنت سائرا فى الشوارع تبحث عن شقة خالية ووقفت بين شارعين مترددا .

ترى هل أبحث فى هذا الشارع أو فى الشارع الآخر ؟

وبعد فترة تفكير قصيرة اخترت أحد الشارعين وسرت فيه حيث عثرت على شقة مكونة من غرفتين وبهو واتخذتها مسكناً لعدة سنوات ؟

قال وقد بدأ ضباب الذكريات ينقشع من أمام عينيه :

ـ نعم ، أذكر ذلك ، كان مسكنا لا بأس به .

ـ كانت بجواره خرابة وخلفه شجرة توت .

شعر برجفة وقال :

ـ لاتفزعينى . كيف عرفتِ كل هذا ؟ حقا كانت جنبه خرابة ووراءه شجرة توت !

ابتسمت العجوز وقالت :

ـ أنا أعرف أشياء كثيرة . أنت لاتعلم أنك لو كنت مشيت فى الشارع الآخر الذى تركته كانت ستحدث أشياء أخرى كثيرة .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثلا ، كنت ستتزوج .

ضحك عبد اللطيف وبدا ماتبقى من أسنانه التى ابتلعها الزمن وقال :

ـ هل لو كنت سرت فى الشارع الآخر لأصبحتُ الآن متزوجا ؟
ـ بالضبط ، كما سترى الآن !
قال مدهوشا :
ـ سأرى الآن ؟ ما الذى سأراه الآن ؟
ـ سترى الجانب الآخر .
ـ الجانب الآخر ؟ مامعنى هذا ؟

ـ الإنسان لايرى فى الحياة سوى جانب واحد من الأحداث ، يرى الأشياء التى حدثت ، ولكنه يعيش ويموت ولايعلم شيئا عما كان من الممكن أن يحدث فى ظروف أخرى . هذا هو الجانب الآخر الذى يظل مجهولا . سأجعلك ترى هذا .

ـ وكيف آراه وقد مضى وانقضى ؟ هل يرى الإنسان شيئا مضى ؟
ـ سترجع الآن إلى الماضى وتصبح سنك ثلاثة وعشرين عاما .
ضحك وقال :
ـ أرجع فى الثالثة والعشرين من عمرى ؟ هل هذا معقول ؟
شعر برجفة عندما التقت عيناه بعينى المرأة . قالت وقد ارتفع صوتها مثبتة عينيها فى عينيه :

ـ ستعود إلى الثالثة والعشرين وشهرين وثلاثة أيام وتسع ساعات وعشر دقائق . ستمحى من الوجود الأيام التى مرت من عمرك بعد هذه السن .

ومحيت من الوجود كل الأيام التى مرت على عبد اللطيف بعد هذه السن ووجد نفسه واقفا عند مفترق شارعين فى المكان القديم الذى سبق أن وقف فيه يسأل نفسه :

ترى هل أبحث عن شقة هذا الشارع أو فى الشارع الآخر ؟

وبدلا من أن يسير فى الشارع الذى سبق أن سار فيه وجد نفسه يتجه نحو الشارع الآخر . وماكاد يخطو فيه بضع خطوات حتى وجد منزلا من طابقين ذا حديقة واسعة وعليه لافتة تدل على أن به شقة للإيجار فاتجه نحوه وطرق الباب .

فُتح الباب وأطلت منه فتاة رائعة الجمال فى نحو السابعة عشرة ، فدخل وأعجبته الشقة . علم أن هذه الفتاة هى ابنة صاحبة المنزل ، توفى والدها منذ عامين وتعيش مع أمها فى الدور الأرضى ومعهما خادمة عجوز . سكن فى الدور العلوى .

مرت الأيام ، وتوطدت الصداقة بين عبد اللطيف وهذه العائلة الصغيرة ، فكانت الأم تطهو له الطعام وترسل خادمتها تنظف له الشقة وتغسل ملابسه . أحب الفتاة الجميلة «سلوى» ابنة صاحبة البيت ، وتزوجا ، وأنجبا من الأبناء أربعة . فاطمة ومحمد ومحمود وعبد الحميد . وكبر الأبناء ، وأصبح محمد طبيبا وعبد الحميد مهندسا معماريا ومحمود صحفيا وتزوجت فاطمة من أحد رجال القضاء .

ومرت الأعوام ، وعندما بلغ عبد اللطيف سن التقاعد ترك القاهرة وذهب هو وزوجته سلوى ليعيشا فى منزل جميل بضيعة صغيرة من عشرين فدانا ورثتها زوجته عن أمها .

ومرت الليالى والأيام ، وذات يوم فوجىء عبد اللطيف بأولاده الثلاثة وابنته فاطمة يحضرون إلى الضيعة معا لزيارته وزيارة والدتهم ، وعلم أنهم اتفقوا جميعا على الحضور فى ذلك اليوم للاحتفال بعيد ميلاده الثمانين .

كانت معهم كعكة ضخمة فاخرة . أهدته فاطمة «بلوفر» صنعته له بيديها ، وأهداه محمد ثمانين سيجارا هافانا ، كل سنة من العمر بسيجار ، وأهداه عبد الحميد راديو أنيقا من نوع جديد ، وأهداه محمود ساعة جميلة .

وضعت فاطمة الكعكة على المائدة وأخذت ترشق فيها ثمانين شمعة . أوقدوا الشموع ودعوا والدهم لإطفائها بعد أن أنشدوا له جميعا أنشودة عيد الميلاد وقف الأب أمام الشموع ونظر إلى اللهب الذى يحاول النسيم إطفاءه وقال :

ـ ماهذا العدد الهائل من الشموع ؟ أنا لايمكننى إطفاؤها . يلزمها عربة مطافىء . كان من المستحسن وضع شمعة واحدة رمزية .

وبينما يهم بإطفاء الشموع اذا بالدنيا تغيم أمام عينيه ، وعندما أفاق نظر حوله يبحث عن زوجته وأولاده فلم يجد أحدا ، بل وجد نفسه بمنزل مدام شداد وأمامه الكعكة ذات الثمانين شمعة والمرأة العجوز فصاح قائلا :

ـ أين زوجتى «سلوى» ؟ أين أبنائى ؟ أين أنا ؟

ونادى بأعلى صوته :

ـ يافاطمة ، يامحمد ، يا عبد الحميد ، يامحمود . أين السجائر الهافانا ؟

قالت العجوز :

ـ السجائر (التوسكانى) جنبك .

فصاح قائلا :

ـ توسكانى ؟ هل أدخن هذه السجائر الحقيرة وعندى ثمانون سيجارا هافانا ؟ أين زوجتى وأولادى ؟

وانفجر يبكى كالأطفال فقالت العجوز :

ــ أولادك ؟ زوجتك ؟ أتريد أن تُلبسنى تهمة ؟ هل أنت متزوج ؟

ــ أجل متزوج . اين زوجتى وأولادى محمد وعبد الحميد ومحمود وفاطمة ؟

واستمر يبكى ، فقالت العجوز :

ــ فاطمة ومحمد وعبد الحميد ومحمود لم يوجدوا فى هذه الدنيا لأنك لم تتزوج . أنسيت أننى دخلت عليك هنا فوجدتك جالسا وحدك وغير متزوج ؟

ــ أنتِ مجرمة . مجرمة .

وعاد يبكى . قالت له العجوز :

ــ هل أنا مجرمة ؟ لماذا تعتبرنى مجرمة ؟ الأننى أرجعتك للماضى وجعلتك تسير فى الشارع الآخر ؟

قال بصوت مختنق بالبكاء :

ــ وما الفائدة مادمت رجعت من جديد للوحدة ؟ لقد عرفت هؤلاء وأحببتهم وعشت معهم طوال هذه المدة ، وأحببت زوجتى-«سلوى» إنهم بالنسبة لى الآن كأنهم ماتوا جميعا فى لحظة واحدة . آه يا أولادى يا أحبائى . آه يا زوجتى ياحبيبتى .

توقف عن البكاء وسأل العجوز بلهفة :

ــ سلوى التى كانت ستصبح زوجتى ، أما زالت على قيد الحياة ؟

ــ أجل ، مازالت على قيد الحياة ، وماذا تريد منها ؟

ــ أريد أن أتزوجها .

ـ فات الأوان .

قامت العجوز واتجهت نحو الباب لتخرج فتشبث بها صائحا :

ـ إلى أين أنت ذاهبة ؟ لابد أن تحلى لى تلك المشكلة قبل أن تتركينى . أتوسل إليك أن ترجعى لى عائلتى . أرجعينى للماضى أريد أن أعيش فى الماضى الذى كنت فيه الآن .

تخلصت منه العجوز وقالت وهى تهم بالخروج :

ـ لا وقت لدى لأضيعه . توجد مشكلة تتعلق بإنسان آخر فى مكان آخر أنا ذاهبة إليه . رجل كالملائكة ، طيب ، حنون ، نادر المثال ، ولكنه مسكين تزوج من امرأة شريرة عذبته كثيرا وانجبت له ابنا منحرفا هو سوط عذاب لهذا الأب التعس . كان سبب زواجه من هذه المرأة أن القطار فاته وهو مسافر فى يوم من الأيام وركب القطار الذى يليه . سأذهب إليه وأرجعه شابا وأجعله يلحق القطار الأول الذى كان من المفروض أن يسافر فيه ليعيش بدون زواج فترة مثل تلك التى جعلتك تعيشها أنت متزوجا . تلك المجرمة التى تزوجها لم تكن تستحق أن تعيش مع هذا الرجل الطيب .

خرجت العجوز ، وأقفلت الباب وهبطت السلم وبقى عبد اللطيف وحده ، فأشعل سيجارة توسكانى وأخذ يدخنها بيد مرتجفة والدموع تنساب من عينيه .

عام ١٩٤٧ م

عزف منفرد

تحيط بى كل أسباب السعادة كما يحيط الموج بالسفينة ، فأنا إنسان محظوظ لاينقصنى شىء . جميع آمالى وأحلامى تحققت ولله الحمد أحيا حياة مستقرة رغدة ، ولكن الشىء الذى يحيرنى هو شعورى بحزن دفين فى أعماقى ، وتطفر من عينى أحيانا بعض قطرات من الدموع البلهاء التى لا أعرف لها سببا .

لقد ظفرت بالحصول على مأوى ، ولو أنه لايزيد على غرفة واحدة ، إلا أننى أعتبر ذلك من دواعى سعادتى ، فأنا إنسان قنوع ، ودخلى المتواضع لايتيح لى السكنى فى شقة تزيد على غرفة واحدة ، ومادام الإنسان لايمكن أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد ، فإن غرفة واحدة تكفينى ، وأنا سعيد بها كل السعادة . أما فقرى فأنا أحمد الله عليه ، فأعظم الأنبياء عاشوا وماتوا فقراء ، والمال أصل كل الشرور ولقد جنبنى الله هذا الشر الوبيل وكرمنى بأن أنعم على بنعمة الفقر ، إذ جعلنى أشترك فى صفة من الصفات مع أعظم أنبيائه المختارين .

وحنينى لغرفتى شديد ، ولذا تجدنى فى معظم الأحيان جالسا أو منبطحا على ظهرى بين جدرانها الثلاثة لا أغادرها الا للضرورة القصوى ، وكونها

ذات جدران ثلاثة يضفى عليها شخصية متميزة ، إذ تختلف عن الغرف التقليدية ذات الجدران الأربعة ، فهى تقع فى ركن منزل مثلث الشكل .

والأثاث فى غرفتى بسيط ، أجلس وأنام على حصيرة . وعدم قدرتى على شراء سرير لايضايقنى ، فالنوم على الحصيرة يفيد العمود الفقرى ويمنع عنه الأذى . قرأت ذلك فى أحد الكتب ، فأنا قارىء نهم أقضى ساعات طويلة اقرأ فى دار الكتب . وعندما يحل الظلام لا أخشى انقطاع التيار الكهربائى ، لأننى أضىء غرفتى بلمبة بترول تضفى على الغرفة جوا شاعريا يناسب طبيعتى .

ويشاطرنى المعيشة فى غرفتى عدد هائل من الحشرات وثلاثه فئران اتخذت من جحر فى أحد أركان غرفتى مأوى لها . وعندما أغمض عينى لأنام لايعترينى أى فزع عندما أشعر بصرصار برىء يسير فوق وجهى ، أو ذيل فأر يداعب قدمى ، فهى مخلوقات وجميع المخلوقات بها نفحة من روح الله الذى خلقها ، فهل من المعقول أن أنزعج من مخلوقات بريئة فيها نفحة من روح الله ؟ ولذا فإننى أعتبر وجودها فى غرفتى نعمة وبركة . وهى لاتكلفنى شيئا ، إذ تسعى إلى رزقها وتتولى أمر نفسها دون أن تحملنى عبء طعام أو كساء . ولا أعرف كيف تحصل على الطعام الذى يتيح لها البقاء على قيد الحياة وغرفتى لايبقى بها أى أثر للطعام ؟ الله يرعاها ويتولاها بعنايته .

ومن دواعى سرورى أن غرفتى بالبدروم ، وهذا يجنبنى عناء صعود السلم . وهى فى حى شعبى ذى صوت وحركة . يظل ينبض بالحياة ليلا ونهارا . وبعض الناس قد يضايقهم ذلك . أمس مر بجوار نافذة غرفتى

رجلان ، سمعت أحدهما يشكو إلى الآخر من الضجة والزحام فى هذا الحى الذى أعيش فيه ، ولكن من حسن حظى أننى أعشق الضجة والزحام ، فهما يشعرانني بالأمان . أصوات الناس وصياحهم الذى لايهدأ وشجارهم الذى لاينتهى ومكبرات الصوت التى تعوى فى حشرجة طوال اليوم وأجهزة الراديو التى تعمل بكامل طاقاتها ، كل هذا يمتعنى ويشعرنى بأننى إنسان حى أشارك الناس انفعالهم وأطلع على جميع أفكارهم وأسمع مايسمعون ، وهذه لذة مابعدها لذة لايحظى بها المساكين الذين شاء سوء طالعهم وفرض عليهم القدر القاسى أن يعيشوا فى أحياء هادئة صامتة صمت القبور .

وعندما اطل من نافذة غرفتى أشعر وكأننى أشاهد سركا ومهرجانا وعرضا مسرحيا وفيلما سينمائيا فى وقت واحد ، فهل توجد متعة أكثر من ذلك ؟ ، إن هذا يوفر علىّ المال الذى ينفقه المساكين التعساء الذين يرتادون هذه الملاهى ، والجهد الذى يبذلونه للوصول إليها .

وعندما كنت موظفا فى الحكومة ، لاحظ رؤسائى شرود فكرى واهتمامى بقضايا كبرى فوق مستوى تفكيرهم فأحالونى إلى المعاش قبل الأوان ، وحمدت الله على ذلك فلقد جنبنى رؤية وجوههم الكريهة وعجرفتهم وأوامرهم ونواهيهم وتحكمهم فى شخصى الضعيف . وعندما غادرت مقر عملى لآخر مرة شعرت وكأننى أُفرج عنى من سجن لعين .

والمعاش الذى أتقاضاه ، ولو أنه ضئيل ، إلا أنه كاف لدفع إيجار غرفتى والحصول على طعامى الذى لايرهق معدتى شديدة الحساسية ولايمكن أن يسبب لى تخمة والعياذ بالله . وفى مقابل المبلغ الذى خُصم من مرتبى كسبت ماهو أثمن منه ، أصبحت حرا كسمكة فى بحر أو كطائر

طليق يحلّق بأجنحته كما يشاء ويهبط عندما يريد . كما أتاح لى الفرصة الذهبية التى طالما تُقت إليها وتمنيتها ، وهى التفرغ التام للتفكر والتأمل ، فأنا فى معظم ساعات اليوم تجدنى مستلقيا على ظهرى فوق حصيرتى محملقا فى سقف الغرفة مستغرقا فى تفكير عميق باحثا عن وسيلة فعالة لمحو البؤس من الوجود وإشاعة السعادة بين جميع الناس . هذه هى القضية الرئيسية التى تشغل فكرى ، وحتى هذه اللحظة لم أهتد إلى حل لهذه المشكلة يرضينى ويريح بالى ، ولكننى واثق من التوصل إلى ذلك فى يوم من الأيام ، ولا يأس مع الحياة . وعدم اهتدائى إلى حل حتى الآن من شأنه أن يعمل على تنشيط ذهنى ويدفعنى لمواصلة التفكير العميق فى هذه القضية الحيوية التى أجد نفسى على الرغم منى دائم التفكير فيها . ومن العجيب أننى لا أجد شخصا غيرى يشغل باله بها . هل أنا الإنسان الوحيد الملقى على كتفيه عبء إسعاد البشر ؟

أسمع الآن صراخ أشخاص يخرجون من باب العمارة ، من لم يألفه قد يظنه صراخ عائلة تشيع ميتا عزيزا عليها وتخرجه من المنزل خروجه الأخير . ولكننى وقد اعتدت سماعه فإننى أعرف الحقيقة . إحدى العائلات التى تسكن هذا البيت فى الطابق الذى فوق البدروم مباشرة ، دائمة الصراخ . قد تكون ضجة المكان هى التى أكسبتهم هذه العادة . الأب يصرخ والأم تصرخ والأبناء يصرخون . كلامهم صراخ وهمسهم صراخ . بل قد أسمع أحدهم يصرخ أحيانا فى ساعة متأخرة من الليل وأنا مستغرق فى التأمل والتفكير ، ويهذى بكلمات لامعنى لها فأستنتج من ذلك أنه يصرخ وهو نائم . ولذا فأنا أسمع كل كلمة تخرج من أفواههم فى اليقظة والمنام على الرغم من الضجة المستمرة المنبعثة من الشوارع المجاورة . وأنا سعيد بهذا الصراخ ، فهو يجنبنى الشعور بالاغتراب ، فأحس وكأننى أعيش

معهم . أراهم كل صيف خارجين من المنزل حاملين حقائب كبيرة وأخرى صغيرة . وأفهم من صراخهم أنهم مسافرون إلى مدينة الإسكندرية لقضاء الصيف هناك . إننى أرثى لحالهم وأتعجب وأسأل نفسى : لماذا يعذب الناس أنفسهم ويبذلون هذا المجهود المضنى وينفقون الأموال التى قد يكونون فى حاجة إليها لمجرد الانتقال من مكان إلى مكان آخر بلا مبرر معقول ثم العودة بعد ذلك إلى مكانهم الأصلى ؟ فأنا أقضى جميع فصول العام فى هذا المكان الذى إعتدت الحياة فيه ولا أرضى به بديلا ولم ينقص منى شىء أو يحدث لى أى ضرر ، بينما يعود أفراد هذه العائلة البائسة بعد انقضاء الصيف وقد تقشرت بشرتهم ولفحت الشمس أجسادهم ليواصلوا صراخهم ، مساكين ، كان الله فى عونهم .

والأعجب من ذلك ، أن بعض الناس ينفقون مئات الجنيهات للسفر إلى الخارج لمشاهدة مدينة البندقية التى يقال إن مساكنها ومبانيها غارقة فى المياه ويتحدثون عن جمالها فى الأشعار والأغانى . ومن دواعى سعادتى أن الله جنبنى هذا العناء ، فأنا أعيش هنا وكأننى فى مدينة البندقية دون حاجة إلى تكبد مشاق السفر ونفقاته . فالمجارى تغمر الشارع الذى أعيش فيه والشوارع المجاورة بشكل يكاد يكون مستديما . لقد أَلِفْت هذا المنظر الجميل وتكيفت مع رائحة المجارى فأصبحت أشعر بمتعة وأنا أستنشق عبيرها . أما رائحة الورد والياسمين وأمثالها من الروائح الكريهة فلقد أصبحت تثير غثيانى ، وأحمد الله على عدم وجود أية حديقة بالقرب من منزلى حتى لايحمل النسيم إلى أنفى ، رغم أنفى ، هذه الروائح . ومن يدرى ؟ ربما يصبح هذا الشارع الذى أعيش فيه والشوارع المجاورة مكانا سياحيا فى يوم من الأيام ، ويتهادى الجندول على صفحة مياهها فى ضوء القمر . وربما يقيمون جسرا علويا مثل جسر التنهدات الذى بمدينة

البندقية ، ويفد السياح من جميع أنحاء العالم للفرجة عليه والتمتع بمنظره بعد أن تكون مدينة البندقية قد شاخت وتصدعت مبانيها . ويحضر أحد كبار المسئولين عندنا لافتتاح جسر التنهدات الجديد هذا ، ويقص الشريط ، ثم يطلق فوقه أول تنهيدة ، ومستعد أنا أن أواصل التنهدات فوقه فى الليالى القمرية . لست أدرى لماذا يخاطر الناس بحياتهم فى القطارات والطائرات والبواخر للسفر إلى أماكن بعيدة ؟ ألا يعلمون أن «السلامة فى الإقامة» كما كانت تقول أمى التى لم تكن تغادر البيت خوفا من أخطار الطريق ، ولقيت مصرعها على أثر مشاجرة عنيفة نشبت بينها وبين أبى ، رحمهما الله ، بسبب ثلاثة قروش اعتقد أبى أن أمى أنفقتها بلا لزوم . اشتدت المشاجرة وعلا صراخهما .

ـ انت مسرفة لا تؤتمنين على صيانة أموالى .

ـ بل أنت المتلاف ، تبدد الفلوس فى الجلوس فى المقاهى لشرب الدخان المعسّل وتتركنا بلا طعام .

ـ إنها أموالى وأنا حر التصرف فيها . ولابد أن أقضى معظم الوقت مع أصدقائى لأستريح من رؤية وجهك الكئيب وصوتك الشبيه بنقيق الضفادع .

ـ أأنا كئيبة الوجه ؟ إن وجهك أنت هو الكريه . إنه أبشع وجه رأيته فى حياتى ، ومنذ اليوم الأسود الذى تزوجتك فيه وأنا فى هم وغم وكرب .

ـ أأنا بشع الوجه يا امرأة ؟ هل تنظرين إلى غيرى ؟ هل تعجبك وجوه الرجال الآخرين يافاجرة ؟

كان بجوار أبى ، لسوء الحظ ، لمبة بترول تضىء الغرفة ، لم يجد غيرها فى متناول يده ، قذف بها أمى فسال البترول على ملابسها واشتعلت فيها

النار فى مثل لمح البصر . كنت صغير السن فلم أستطع أن أفعل شيئا سوى البكاء . حاول أبى اطفاء النار ، وصراخ أمى يذوب فى ضجة الشارع . ظللت أبكى وجسدى يرتجف . ماتت أمى متأثرة بحروقها وزجوا بأبى فى السجن ومات قبل أن يحين موعد الإفراج عنه . لم يمر هذا الحادث عبثا دون الاستفادة منه ، فلقد أخذت منه عبرة . قررت ألا أتزوج ، إذ من يدرى ؟ ربما أتشاجر مع زوجتى أو تتشاجر هى معى ، وتكون فى هذه اللحظة بالقرب منى لمبة بترول أقذفها بها فتموت وأدخل السجن . وهكذا نَعِمْتُ بالعزوبية وفزت بنعمة الحرية . فهل كان بوسعى أن أشعر بالسعادة والرفاهية وراحة البال التى أنعم بها الآن لوكنت تزوجت وأصبحت مسئولا عن زوجة وحفنة من الأولاد ؟ إننى لا أحمل الآن سوى هم نفسى ، وهذه نعمة كبرى من نعم الله العديدة التى غمرنى بها .

وأشعر بأن الله يحبنى ويرعانى ، ماتمنيت شيا إلاّ ووجدته . اليوم مثلا ، هَفَت نفسى للفجل (الوِرْوِر) الذى يقولون إنه ناقص فى السوق ولست أدرى ما الذى دفعنى للسير فى حارة لم تطأها قدماى من قبل ، إنه الهام من الله . وعند منتصف الحارة لمحت الكنز الذى أبحث عنه . امرأة عجوز أمامها قفة مليئة بالفجل (الورور) . سال لعابى . وجدت أمامها طابورا فوقفت فى نهايته ، وانتهزت الفرصة فبدأت الحديث مع الرجل الواقف أمامى ، ولكنه تجاهلنى ولم يُعِرْ كلامى أىَّ اهتمام . لم يؤلمنى ذلك ، فالشىء المهم فى نظرى هو أن أتكلم خفت أن ينفد الفجل (الورور) قبل أن أصل إلى بائعته ، ولكننى والحمد لله عندما جاء دورى وجدت الخير كثيرا فاشتريت حزمة منه . وبينما أعبر الطريق ظلّت يدى قابضة على حزمة الفجل بكل قوتى خوفا من أن يختطفها منى أحد النشالين المنتشرين فى هذا المكان . كان فكرى فى هذه اللحظة مشغولا ، كالعادة ، بالقضايا الكبرى

للبشرية ، وعلى الأخص قضية السعادة وكيف أتمكن من إشاعتها بين جميع البشر وبينما أنا فى ذروة التفكير وقمة التأمل ، شعرت بسيارة تتوقف جنبى بغتة ويطل منها رجل تدل تجاعيد وجهه على التعاسة التى أراها واضحة فى وجوه جميع راكبى السيارات بسبب الاختناقات التى تصادفهم فى الطريق والمخالفات والضرائب التى تنوء بحملها الجبال . صاح الرجل فى غضب وانفعال شديد قائلا لى :

ـ افتح عينيك ياحشرة .

مع أن عينىَّ كانتا مفتوحتين على آخرهما ولايمكننى أن افتحهما أكثر من ذلك إذ إننى عندما أفكر تفكيرا عميقا تتسع عيناى ولا أدرى لماذا . لم أغضب منه . وهل أغضب من شخص جاهل ؟ فأنا لست حشرة بل أنا إنسان . ألا يعلم هذا الرجل أن الله خلق لجميع الحشرات ست أرجل وأنا ذو رجلين اثنتين فقط ؟ فكيف يظننى حشرة ؟ إنه جاهل لايعرف الفرق بين الحشرة والإنسان . لقد أصبحت خبيرا بالحشرات من طول عشرتى لها ، وعندما ينتهى أجل أية حشرة فى غرفتى ، ولكل أجل كتاب ، لابد أن أفحصها فحصا دقيقا وأعد أرجلها . أما العنكبوت فيخيل إلى أنه ليس حشرة لأننى وجدت عدد أرجله أربعة أزواج لا ثلاثة أزواج . لقد رثيت لحال هذا الرجل . حاولت أن أنير ذهنه وأمحو جهله وأعلمه الفرق بين الإنسان والحشرة ، ولكن سيارته مرقت وتاهت فى زحام السيارات . مسكين ، سيظل على جهله . ليس له فى الطيب نصيب .

سرت فى طريقى أقضم الفجل (الورور) محاولا ابقاءه فى فمى أطول مدة ممكنة لأشعر بلذة طعمه . الزحام فى كل مكان . أين يذهب كل هؤلاء الناس فى السيارات والتراموايات والأتوبيسات وفوق الدرجات

والموتوسيكلات وسيرا على الأقدام وكأنهم فى يوم الحشر ؟ أنا سعيد بالزحام ولكننى أتساءل أحيانا . لماذا كل هذا الزحام ؟ لماذا كل هذا الكرّ والفر ؟ هذه الأجسام المتصادمة مع بعضها على الأفاريز ، المتسابقة على ركوب وسائل النقل التى لا موضع فيها لقدم ، وهؤلاء الواقفون يصرخون كالمجانين :

ـ تاكسى . تاكسى .

يستجدون التاكسيات فى مذلة ومهانة للوقوف لهم وسائقو التاكسيات لايلتفتون إليهم ولايعيرونهم أى اهتمام . لماذا كل هذا ؟ لماذا يعذبون أنفسهم هذا العذاب ؟ بغتة ، رأيت جميع السيارات تتوقف وتفسح الطريق لمرور جنازة . كان النعش فى المقدمة محمولا على أكتاف أربعة رجال أشداء ، وخلفه عدد هائل من المشيعين . وقفت أقرأ الفاتحة وأترحم على هذا الميت الذى لا أعرفه . قفزت فى ذهنى فكرة ، لماذا لا أندس بين المشيعين عسى أن أجد شخصا جنبى أتحدث معه ؟ فأنا أتوق للحديث مع أى إنسان خوفا من أن أنسى الكلام . سألتُ الرجلَ الذى بجوارى :

ـ جنازة من هذا ياترى ؟

نظر إلىّ نظرة من تلك النظرات المريبة وأطال النظر ثم أشاح بوجهه عنى فلم أسترسل فى الحديث معه فهو لايريد أن يتكلم واكتفيت بمتعة السير فى صف واحد مع الناس . ثم انشغل فكرى بالقضايا الكبرى للبشرية . ألا يُحمل الإنسانُ على الأعناق ويفسح له الطريق الا بعد أن يموت ؟ شعرت بالسعادة عندما تصورت أننى سأحمل على الأعناق فى يوم من الأيام عندما أموت ، لكننى لن أستطيع التحدث مع أحد . يخيل إلىّ أن هذا الرجل المحمول على الأعناق لم يعرف السعادة فى حياته ، شأنه فى

هذا شأن الذين يشيعونه . ولكن لن تدوم تعاسة الناس طويلا فسوف أتوصل إن عاجلا أو آجلا إلى الوسيلة الفعالة التى أبحث عنها لإسعاد جميع بنى آدم . أريد أن أرى جميع الناس سعداء مثلى ، اذ لايمكن أن يهنأ الإنسان بالسعادة وهو محوط بملايين التعساء . ورأيت بعين الخيال هذا الميت وهو مستلق على ظهره عاريا فوق هذه الخشبة . لست أدرى لماذا تذكرت بدلتى فى هذه اللحظة فنظرت إليها . لايوجد لدىَّ من الملابس غير هذه البدلة فلا أرتدى سواها ، وأنام بها أحيانا . وأنا سعيد بذلك كل السعادة ، إذ لا يتوه ذهنى وتتبدد طاقتى فى اختيار الملابس وغسلها وكيها كما يفعل البائسون الذين ابتلاهم الله بكثرة الملابس . وعندما أرقد فى قبرى فى يوم من الأيام فسوف أرقد عاريا كما ولدتنى أمى ، مثل هذا الرجل .

وسأترك بدلتى لشخص آخر قد يكون فى حاجة إليها فأكون سببا فى إسعاد انسان لم تره عيناى ، اذ من دواعى سعادتى أننى بلا أقارب ولا صحاب ولا معارف ولا عائلة يرثون بدلتى من بعدى فلا تشغلنى مشكلاتهم وأحزانهم ولا أحزن لفراقهم . وربما بعد أن ينعم بارتداء بدلتى ذلك الشخص المجهول الذى ستكون من نصيبه ، يسعده الحظ ويظفر بغرفتى ويعيش فيها سعيدا منعما مثلى .

أختل توازن أحد حاملى النعش وتعثر وكاد النعش يسقط على الأرض . فى هذه اللحظة صدرت منى دون أن أشعر ضحكة لا إراديه ، ولست أدرى الذى جعلنى أضحك . لكزنى الرجل السائر جنبى لكزةً قوية قائلا :

ــ لماذا تضحك ؟ أنسيت أنك تشيع ميتا ؟

شعرت برغبة فى ارستمرار فى الضحك وفقدت سيطرتى على نفسى . ثم

اعترتنى رجفة عندما دارت فى ذهنى فكرة غريبة . تصورت أن الميت سيقوم من رقدته ويصوِّب نحوى تلك النظرات الغريبة ، فتسللت وتركت الجنازة واتجهت نحو منزلى .

فى طريقى إلى غرفتى لاحظت شخصا يحدث نفسه بصوت مسموع . قلت لنفسى : ها هو ذا رجل لايجد من يتحدث معه فاضطر إلى الحديث مع نفسه ، وأنا أيضا لا أجد من يتحدث معى ، فأسرعت نحوه لنتحدث معا ، لاحظت أنه يترنح فى مشيته . قلت لنفسى : لاحول ولاقوة إلا بالله . لقد مرض الرجل من طول الصمت . أقبلت نحوه . سندته حتى لايسقط وسألته :

ــ مابك ؟ هل أنت مريض ؟

ــ لا ، لست مريضا . أنا سكران .

ــ ولماذا تسكر .

ــ لأشعرَ بالدوار . أريد أن أشعر بالدوار .

مسكين ، ينفق عشرات الجنيهات ليشعر بالدوار الذى أشعر به أنا بشكل مستمر بالمجان . لم أخبره بذلك حتى لايحسدنى . عندما بدأت أشعر بالدوار منذ عامين تمنيت أن أُشفَى منه ، ولكننى أدعو الله الآن أن يديم لى هذه النعمة . لم أكن أعلم أن الدوار شىء يسعى الناس إليه وينفقون الأموال ليظفروا به . مساكين .

ــ سأوصلك إلى منزلك ، إذ لاتستطيع الوصول إليه وحدك وأنت بهذه الحال .

ــ نسيت مكان منزلى .

أسفت لذلك ، إذ لو كان لايتذكّر مكان منزله فكيف أعرفه أنا ؟ أوصلته إلى مكان شبه منعزل وأجلسته وطلبت منه ألا يغادر المكان الا بعد أن يتذكر مكان منزله وسرت متجها نحو غرفتى . سمعته يبكى ، رق له قلبى فرجعت إليه .

ـ لماذا تبكى ؟

ـ أنا حزين .

ـ وما سبب هذا الحزن ؟

ـ ابنى مريض .

ـ ولكن بكاءك لن يشفيه .

ـ اشتريت له أدوية كثيرة وفحصه عدد كبير من الأطباء . وقال لى أحدهم وفر فلوسك فمرض ابنك لايرجى له شفاء .

ـ قم واذهب إلى ابنك لتطمئن عليه . هل تذكرت الآن مكان بيتك ؟

ـ تذكرته وليتنى ماتذكرته .

ـ لماذا ؟

ـ لا أستطيع رؤية ابنى وهو يتعذب ، وزوجتى التى تعذبنى .

سرت مرة أخرى نحو غرفتى وبكاء الرجل مازال يرن فى أذنى . ما أكثر شقاء البشر . حمدت الله على عدم زواجى حتى لا أرتبط بأولاد أتعذب من أجلهم . ليتنى أستطيع محو البؤس والعذاب من الوجود .

وصلت إلى غرفتى فاستلقيت على ظهرى فوق الحصيرة ، ورفعت ركبتى إلى أعلى ثم وضعت ساقى اليمنى فوق ركبة ساقى اليسرى ، وهو وضع مريح للغاية ، وسبحت فى تأملاتى . كيف يستطيع العنكبوت نسج هذه الخيوط الدقيقة بهذا الشكل الرائع مع أنه لم يدخل المدرسة . من علّمه

هذا ؟ يحلو لى من آن لآخر أن أمتع نظرى بنسيج العنكبوت المنتشر فى أركان غرفتى . عند الموت يتساوى الإنسان مع العنكبوت . كل كائن حى يعيش فترة ثم يموت ، والموت يساوى بين الجميع ، يصبح الإنسان كالعنكبوت والذبابة والصرصار . ولكن ما هذا ؟ عيون العنكبوت مصوّبة نحوى . أجل . إننى أرى بريق عيونه . إنه ينظر إلىّ . لماذا ينظر إلىّ هذا العنكبوت اللعين ؟

رأيت منذ أسبوعين حلما عجيبا . رأيت أننى أسير فى شارع مزدحم كالعادة ولكننى لا أرى من الناس سوى عيونهم . عيون كثيرة مصوبة نحوى . ثم رأيت العيون تصبح رؤوسا ، والرؤوس تصبح أجساما ، وجميع العيون ناظرة نحوى وأنا واقف فوق مكان مرتفع يشبه المكان الذى يقف فيه عسكرى المرور عند تقاطع الشوارع المهمة . شعرت بفزع شديد من العيون الناظرة إلى . بدأت ألقى على هذه الجماهير خطابا أشرح فيه وسائل السعادة ، ولكننى اكتشفت أننى أحرك شفتى دون أن يخرج من فمى أى صوت . ازداد خوفى من العيون فبدأت ارتجف . هبطت من فوق المكان المرتفع وأنطلقت أعدو بكل ما أوتيت من سرعة والجماهير تطاردنى صائحة صيحات مرعبة . انقضوا علىّ جميعا وأمسكونى من سترتى وطوحوا بى ، فسقطت جالسا فى بئر عميقة فى قاعها قليل من الماء ، لا أرى حولى سوى جدران مرتفعة . أخذت أصرخ ولكننى كنت كمن يصرخ فى صحراء . بدأ الماء الذى فى قاع البئر يعلو شيئا فشيئا ، فوقفت وواصلت صراخى واستغاثتى . ولحسن حظى صحوت من نومى فى هذه اللحظة قبل أن يصل الماء إلى فمى وأنفى . لست أدرى ،ما تفسير هذا الحلم ؟ سأذهب إلى دار الكتب للبحث عن كتاب تفسير الأحلام ، فلقد تكرر هذا الحلم عدة مرات وأخشى أن أنام فأراه مرة أخرى .

أشعلت لمبة البترول ووضعتها على الرف فى ركن غرفتى ثم عدت إلى مكانى وظللت أفكر وأنا مستلق على ظهرى . لقد وهبنى الله كل أسباب السعادة ، ولكن الشىء الغريب الذى لم أستطع التوصل إلى تفسيره تفسيرا مقنعا ، هو أننى على الرغم من كل أسباب السعادة التى أنعم بها ، إلاّ أننى أشعر أحيانا بذلك الحزن الدفين الذى يتحرك فى سراديب أعماقى ، وتذرف عيناى فى تلك اللحظات قطرات من الدموع التى لا أعرف لها سببا . إنها تسيل على خدى فأمسحها بطرف اصبعى . ماسبب هذا الحزن الدفين وهذه الدموع ؟ هذا هو الشىء الذى يحيرنى . هل هو الجحود ؟ أخشى أن أكون جاحدا لنعمة الله الذى رعانى وهيأ لى كل هذه السعادة والرفاهية ، إذ ماذا أطمع فى أكثر من ذلك ؟ هذه الأفكارتحرمنى من النوم فى بعض الليالى ، فأظل ساهرا حتى الصباح منبطحا على ظهرى محملقا فى سقف غرفتى مرهقا ذهنى لمعرفة سبب هذه الدموع التى تسيل من عينى بين آن وآخر ، ولكننى واثق من التوصل إلى حل هذا اللغز المحير بمواصلة التأمل والتفكّر العميق .

شىء آخر يحيرنى ، إنه نظرات الناس نحوى عندما اسير فى الطريق . نظرات تثير الريبة وتبلبل أفكارى ، مع أن مظهرى ليس فيه شىء شاذ عن المألوف . حتى أصحاب السيارات الفارهة أراهم فى كثير من الأحيان يحدجوننى بنظرات لا أرتاح لها ، ويطيلون النظر إلىّ .لا أعتقد أن هذه النظرات ذات علاقة بأن احدى رجلى سروالى أقصر من الرجل الأخرى ، فلقد بليت الرجل اليسرى لسروالى عند ركبتى ، فقطعت الجزء البالى ووصلت الطرفين ببعضها فبدت رجل السروال هذه أقصر من الأخرى ، وهذا شىء تافه لايستحق كل هذه النظرات الغريبة . كما أن نظراتهم لايمكن أن تكون بسبب الرقع ذات الألوان الجذابة المتوافقة التى فى

سترتى ، فلقد أصبحت جزءا من كيانى وشخصيتى ، وأنا أحب أن تكون لى شخصية متميزة ، أنا شخصيا لا أجد فيها مايلفت الأنظار .

فكرت كثيرا فى هذا الموضوع . كنت أبيت الليالى ساهرا حتى الصباح محملقا فى الصرصار الأليف الكامن فى ركن سقف غرفتى ، ولكننى لم أكن أفكر فى الصرصار ولا فى بقائه عدة أيام فى مكانه الذى لايغادره على الرغم من عدم تناوله أى طعام ، أجل ، لم أكن أفكر فى هذا الصرصار ولا فى الخنفساء الوديعة القابعة فى الركن الأيسر من الغرفة ، ولكننى كنت أفكر فى سبب نظرات الناس المصوبة دائما نحوى أينما سرت .

وفى ليلة مفترجة ، فى لحظة الهام توصلتُ إلى معرفة سبب هذه النظرات الشريرة التى تكاد تنفذ إلى أعماقى . إنه الحقد . الحقد الأسود .

عام ١٩٨١

الجائزة

كل شيء يبدو ضئيلا تافها . الشوارع كشبكة من الخطوط الدقيقة تشبه نسيج العنكبوت ، والمبانى فقدت صفاتها المميزة وتشابهت فى عدم وضوح المعالم ، والمدينة بأكملها كأنها نموذج دقيق الحجم صنعه مهندس استعدادا لتنفيذه ، و «ف» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب ينظر من نافذة الطائرة التى تهدر محركاتها فوق مدينة «سان فرنسيسكو» متجة نحو مدينة «ستوكهولم» ليتسلم جائزته الثمينة من يد ملك السويد .

لم تكن الطائرة تضم من الركاب سوى ثلاثة حصلوا على جائزة نوبل فى ذلك العام وتقديرا لهذه الثروة البشرية وحرصا على حياتهم وضمانا لعدم تعرض الطائرة التى تحملهم للاختطاف ، رأت الدولة أن تعد لهم طائرة خاصة من أرقى طراز ، يقودها رجل على درجة عالية من الكفاءة والخبرة يرافقه مساعدان ممتازان وعدد من الفنيين ومضيفة رائعة الجمال .

على الرغم من خلو معظم مقاعد الطائرة الاّ أن الثلاثة الفائزين بجوائز نوبل فضلوا الجلوس متجاورين ليتبادلوا الحديث فى أثناء هذه الرحلة الطويلة الممتعة السعيدة

كانت السماء صافية عندما أقلعت الطائرة . قال «ف» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب موجها حديثه إلى «س» الجالس بجواره والحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء :

ـ المدينة تبدو وكأنها لوحة تجريدية . من يصدق أن هذه البقع الصغيرة إذا اقتربنا منها نجدها محال تجارية عملاقة وعمائر شاهقة ومساكن ، فى كل مسكن عائلة يدور فى رأس كل فرد منها عديد من المشكلات والآمال والأحلام ؟ كل شىء إذا ابتعدنا عنه يبدو تافها .

قال الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء .

ـ ماعدا العبقرية ، كلما ابتعد الناس عن العبقرى يزداد حجمه .

ـ كيف ؟

ـ زوجتى وأولادى ، مثلا ، يروننى أصغر من الحجم الذى يبدو فى تصور من يبعد عنى مئات الأميال . أنا فى نظر أفراد أسرتى إنسان عادى .

ـ هذا صحيح . إن ألصق الناس بى من أصدقائى المقربين كانوا أكثر الناس دهشة عندما علموا بحصولى على جائزة نوبل . لم يستطع أحد منهم أن يتصور أن هذا الشخص الذى يرونه مرارا ، والذى يشاركهم الضحك وتبادل النكات من الممكن أن تكون له قيمة غير عادية . إنهم يعترفون بسهولة بعبقرية أى إنسان آخر لم تره عيونهم . الفيلسوف الألمانى «شوپنهاور» قال إن العبقرى إذا رآه فرد واحد فسوف يفقد بذلك فردا من البشر يعترف بعبقريته ، ولذا فلقد كان حريصا على الابتعاد عن الناس ، ميالا للعزلة .

تفكر الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء قليلا ثم قال :

ـ يمكن تشبيه العبقرى بقطعة كبيرة من الماس ذات أسطح عديدة

والبريق الذى ينبعث من قطعة الماس قد يبدو ساطعا من بعض الأسطح وخابيا من أسطح أخرى نتيجة لزاوية انعكاس الضوء . وماتراه من بريق يتوقف على وجود العين فى طريق الشعاع المنعكس . القريبون من العبقرى يرونه من زاوية لايسطع منها الضوء ولكن البعيدين عنه يرون جوانبه الساطعة المتألقة . هذا كل مافى الأمر .

ثم ضحك وقال :

ــ عندما بشرت زوجتى بحصولى على الجائزة عقدت الدهشة لسانها . لم تصدق أن شخصا مثلى من الممكن أن يحصل على هذه الجائزة ، ظلت فاغرة فاها مدة طويلة ناظرة إلىَّ وكأنها ترانى لأول مرة ، وعندما نطَقَتْ سأَلتنى فى لهفة عن القيمة المادية للجائزة !

أشعل «ج» الحائز على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا سيجارا ثم قال مبتسما :

- زوجتى لايهمها من أمرى إلا مايتصل بالناحية الجنسية . لا ترانى سوى مجرد حيوان ثديى ذكر ، وترتفع قيمتى فى نظرها وتنخفض تبعا لتوفيقى أو عدم توفيقى فى أداء هذه المهمة البيولوجية .

قال «ف» مبتسما :

ــ هذا طبيعى .

ضحك الثلاثة ثم سادت فترة صمت . نظر «ف» من نافذة الطائرة فلم يعرف ما إذا كانت الطائرة تطير فوق اليابسة أو فوق مياه المحيط . لم ير فى هذه المرة سوى كتل من السحاب تحجب رؤية ماتحتها . أقبلت المضيفة الجميلة تحمل طعام الغداء .

قال «ف» فى أثناء تناوله الطعام ناظرا بطرف عينه للمضيفة

ــ إذا وافقنا على رأى «شوبنهاور» فاننى أخشى أن تكون هذه الفتاة الجميلة قد فقدت احترامها وتقديرها لنا ، لأنها رأتنا .

قال عالم الفسيولوجيا :

ــ ولكنها على ما أعتقد لن ترانا بعد هذه الرحلة .

قال الأديب :

ــ تكفى نظرة واحدة فى رأى «شوبنهاور» يمكننا أن نسمى ذلك «ضياع القيمة من أول نظرة» .

قال عالم الفيزياء :

ــ سنراها مرة أخرى فى رحلة العودة .

قال عالم الفسيولوجيا :

ــ أجل ، نسيت أننا سنعود على الطائرة نفسها . أنا لايهمنى مطلقا تقديرها لى أو عدم تقديرها . أفضل أن أراها مئات المرات وليذهب للجحيم الاحترام والتقدير . لقد وهبها الله شيئا ثمينا ينتزع الإعجاب .

قال الأديب :

ــ وماهو هذا الشيء ؟

ــ الجمال .

فى هذه اللحظة انبعث من مكبرات الصوت بالطائرة موسيقى خافتة . إنها السيمفونية الخامسة لبيتهوڤن ، فلزم الثلاثة الصمت حتى نهاية السيمفونية ، ثم قال الأديب :

ــ فى أحد الأيام سمعت رنين جرس الباب . وأنتم تعلمون أننى أعيش فى قرية صغيرة منعزلة ، كنت مستغرقا فى كتابة إحدى رواياتى على الآلة

الكاتبة ، تركت الكتابة وقمت وفتحت الباب . فوجئت برؤية شاب نحيل شاحب الوجه يثبت نظره فى وجهى وكأنه ينظر إلى مخلوق خرافى هبط من أحد الكواكب البعيدة . انتظرت ليتكلم ، ولكن يبدو أنه عندما رآنى انعقد لسانه فلم يستطع النطق . قلت له : «ماذا استطيع أن أفعل لك أيها السيد ؟ قال بعد أن أخذ يبتلع لعابه عدة مرات : «قطعت مئات الأميال لأراك . هل تسمح لى بالجلوس معك بضع دقائق ؟ أدخلته منزلى وجلسنا معا نحونصف ساعة قضاها متوتر الأعصاب جالسا على طرف الكرسى محملقا فى وجهى ، ثم أبدى تعجبه عندما رأى أن الآلة الكاتبة التى أستعملها آلة عادية ، كان يعتقد أنها لابد أن تكون مختلفة عن جميع الآلات الكاتبة الأخرى ولست أدرى لماذا تصور ذلك ؟ ! ثم قام منتفضا فى عصبية وقال : «لا أحب أن أضيع من وقتك الثمين أكثر من ذلك ، كل ماكنت أطمع فيه هو أن أحظى برؤيتك» .

وبعد أن انصرف سألتنى زوجتى : «ماذا كان يريد هذا الشاب ؟» . قلت «لاشىء ، يقول إنه قطع مئات الأميال لمجرد رؤيتى» ، نظرت إلىّ زوجتى مدهوشة ولم تقل سوى جملة واحدة : «ياله من شاب مجنون» ثم جلست أمامى تطرز قطعة من القماش وأخذت تعاتبنى عتابا قاسيا لأننى آويت إلى فراشى الليلة الماضية وتركت نافذة المطبخ مفتوحة !

قال عالم الفيزياء :

ــ وأهل قريتك ، ماهو شعورهم نحوك ؟

ــ معظمهم من الفلاحين الذين لفحت الشمس وجوههم ، إنهم يتعجبون ويقولون فيما بينهم كيف يستطيع رجل مثلى أن يكسب رزقة وهو قابع فى منزله فى الظل ؟ ضحك الثلاثة ، وأقبلت نحوهم المضيفة مرة

أخرى تحمل عصير البرتقال . بعد أن انتهوا من إحتساء العصير قال الأديب موجها حديثه لعالم الفيزياء :

ـ أيهما أنفع وأهم للبشرية فى نظرك ، العلم أم الأدب ؟

قال عالم الفيزياء مبتسما :

ـ سؤال لم أكن أتوقعه ، إنك كمن يسألنى . أيهما أهم ، الماء أم الهواء ؟ وكلاهما ضرورى للحياة .

قال الأديب :

ـ إن مايهمنى هو الإنسان ، والإنسان كما يقول البعض ، من الممكن أن يعيش بدون الأدب ، ولكنه لايستطيع الحياة بدون العلم .

ـ هذا يتوقف على فهمنا لمعنى الحياة ، ولماذا نحيا . العلم يهىء لنا بعض الوسائل المريحة للحياة ، ولكن الأدب هو الذى يجعل لهذه الحياة معنى . لقد عاش الإنسان عديدا من القرون بدون العلم ، ولكنه لم يستطع الحياة بدون الفن ، والأدب فن من الفنون . الحيوان الأعجم وحده هو الذى يستطيع أن يحيا بدون فن وبدون تذوق للجمال . القطة ، مثلا ، لاترى فى الحياة ماهو أهم من الجنس والطعام وتكتفى طوال حياتها باشباع هاتين الغريزتين . أما الإنسان فدائرة حياته أكثر اتساعا ، تزخر بألوان عديدة من الفنون لاتثير اهتمام من هم أدنى منه من الحيوانات . فإذا خلت حياة الانسان من الفنون أصبحت أشبه بحياة القطة أو الفأر أو الخنزير أو الكلب . الأدب ضرورة بالنسبة للإنسان لأنه قادر على إنتاجه والاستمتاع به ، وهذا هو الفرق بين الإنسان وغيره من الحيوانات .

وهنا تدخل عالم الفسيولوجيا قائلا :

ـ أنا أوافق على كل هذا . ففى مجال الطب مثلا ، نجد أن حاجة

الحيوان للعلاج من الأمراض لاتقل عن حاجة الإنسان . ولكن لماذا يعالَج الإنسان ؟ انه لايعالج لمجرد الشفاء من المرض ، بل لكى يتيح له الشفاء حياة ذات معنى أما غيره من الحيوانات فانها تعالج من المرض لتواصل حياة عقيمة لاتستفيد منها شيئا ، بل قد يكون الإنسان هو المستفيد من شفاء بعض الحيوانات ، فالفلاح يعالج بقرته لو مرضت ليستفيد هو من وجودها أما البقرة نفسها فلا تستفيد شيئا بل قد يكون امتداد الحياة بالنسبة لها يعنى مزيداً من المعناة والعذاب . العلاج بالنسبة للإنسان ليس هدفا فى حد ذاته ، بل وسيلة لإضافة بضع سنوات إلى عمره يستمتع بها . أنا مثلا ، على الرغم من انتمائى لفئة العلماء ، لايمكننى أن أحيا دون أن أقرأ من حين لآخر عملا أدبيا جيدا أو أُنصت لموسيقى عذبة أو تأمل صورة رائعة ، ذلك لأننى قبل أن أكون عالما فأنا إنسان .

قال الأديب :

ـ الأدب والموسيقى والرسم والنحت أشياء لاقيمة لها بالنسبة لمن لايستطيع من البشر إدراك مافيها من جمال .

قال عالم الفيزياء :

ـ بل العلم أيضا لاقيمة له فى مجتمع لايعرف قدره ولايملك وسائل الاستفادة منه . مافائدة جهاز تليفزيون من أرقى طراز فى مدينة لايوجد بها كهرباء أو فى دولة لايوجد بها محطة إرسال تليفزيونى ؟ ولو سقطت بنا الطائرة الان فى مياه المحيط فهل يشفع لنا لدى سمك القرش حصولنا على جائزة نوبل ؟ لن يرى السمك فينا سوى كتلٍ من البروتين وغذاءٍ طيب . سيعتبرنا مجرد رزقٍ هبط إليه من السماء .

اهتزت الطائرة هزة عنيفة فضحك الأديب ليخفى خوفه وقال :

ـ يبدو أن أسماك القرش ستحظى بشحنة هائلة من البروتين !

ولكن الطائرة واصلت سيرها وكأن لم يحدث شيء . ساد الصمت فترة ، ثم قطع هذا الصمت صوت انبعث من مكبرات الصوت بالطائرة يقول :

ــ أرجو أن تعيرونى انتباهكم أيها السادة . لقد تعطل جهاز معرفة الاتجاه ، والطائرة الآن تسير على غير هدى . أرجو إلا تنزعجوا فالطائرة من النوع الذى يستطيع الهبوط على سطح الماء . سنحاول الهبوط بالقرب من ساحل جزيرة صغيرة لاحت فى الأفق . الجزيرة لانعلم عنها شيئا ، إذ لاوجود لها فى أية خريطة من خرائط الدنيا وسنواصل الرحلة بعد إصلاح الجهاز .

عقد الرعب ألسنة الثلاثة فلزموا الصمت حتى قطعه الأديب عندما قال ساخرا وكأنه يحدث نفسه :

ــ طائرة خاصة تكريما لنا وللمحافظة على حياتنا ويتعطل فيها جهاز الاتجاه ، يالها من مهزلة . ليتنا ركبنا طائرة عادية مع غيرنا من الركاب .

هبطت الطائرة على سطح الماء بالقرب من شاطىء الجزيرة . كان على متنها ضمن طاقمها خمسة من أكفأ المهندسين ، أسرعوا نحو الجهاز المعطل محاولين إصلاحه بينما انهمك قائد الطائرة فى إرسال إشارة لاسلكية يذكر فيها ماحدث ويحدد على وجه التقريب المكان الذى اضطرت الطائرة للهبوط فيه . بدا أحد المهندسين عصبياً ، تدفق العرق غزيرا من وجهه وأخذ يغمغم بكلام غير مفهوم وهو مستغرق فى محاولة إصلاح الجهاز ، ووقف الثلاثة الحائزون على جائزة نوبل فى مقدمة الطائرة يتابعون فى قلق عملية الإصلاح .

رأوا قاربا ضخما قادما من الجزيرة يشق الماء نحو الطائرة القابعة فوق

الماء كالبطة الحزينة . بدا القارب من بعيد وبه تسعة رجال ، ستة منهم يجدفون وثلاثة واقفون . عندما اقترب القارب اتضح أن الرجال الثلاثة الواقفين يرتدون ملابس رسمية بالية ويحمل كل منهم فى يده اليمنى بندقية كان واضحا أنهم من رجال الشرطة .اتجهت إليهم أنظار كل من فى الطائرة وتوقف المهندسون عن مواصلة عملهم . قال أحد المهندسين :

ـ لابد أنهم قادمون لمساعدتنا . لقد أسرعوا لنجدتنا .

قال قائد الطائرة :

ـ لا أعتقد أن فى مثل هذه الجزيرة من يستطيع تقديم أية مساعدة فنية ، إنها تبدو شديدة التخلف .

قال قائد الطائرة :

ـ وماذا يريدون منا ؟ !

قال الأديب ساخرا :

ـ لقد إقتحمنا مياههم الإقليمية !

اقترب القارب حتى لامس الطائرة . فتحت المضيفة باب الطائرة لاستقبالهم . صوَّب أحد الرجال الثلاثة بندقيته نحو ركاب الطائرة وصاح فى غضب وانفعال ناطقا كلمتين بلغة غير مفهومة .

قال قائد الطائرة باللغة الانجليزية :

ـ نحن لانفهم هذه اللغة ، تكلم باللغة الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

ظل الرجل مصوبا بندقيته نحوهم وصاح بأعلى صوته ناطقا الكلمتين اللتين سبق له نطقهما وكأنه يتوقع أن مجرد رفع الصوت كفيل بحل طلاسم هذه اللغة .

بدأت المضيفة ترتجف وتوارت خلف قائد الطائرة . التفت الرجل خلفه وتحدث إلى رفيقيه اللذيْن أسرعا بدورهما بتصويب بندقيتهما نحو ركاب الطائرة .

قال الأديب :

ــ يبدو أنهم يطلبون منا أن نرفع ايدينا .

رفع الجميع أيديهم ماعدا المضيفة . زجر الرجال الثلاثة وصوبوا بنادقهم نحوها فرفعت يديها وهى تبكى وترتعش . أشار أحد رجال الشرطة إشارة فهم منها ركاب الطائرة أنهم يأمرونهم بالركوب معهم فى القارب فقفز الجميع من الطائرة إلى القارب . زجر رجال الشرطة الثلاثة من جديد وأخذ أحدهم يرفع يديه إلى أعلى ثم يقذف بهما إلى أسفل فى حركات سريعة وكأنه قرد يلهو ، فرفع جميع ركاب الطائرة أيديهم إلى أعلى وظلوا على تلك الحال والقارب منطلق بهم نحو الشاطىء ! عندما وصلوا إلى الشاطىء قفز من القارب الرجال الثلاثة المسلحون ثم صوبوا بنادقهم نحو ركاب الطائرة ، وصاح أحدهم مشيرا ببندقيته نحو الشاطىء .

قفز الركاب إلى الشاطىء . كانت المضيفة آخر من قفز . تعثرت فانكفأت على وجهها أسرع اليها أحد الجنود الثلاثة وساعدها على الوقوف . ثم احتضنها وقبلها ، بكت المضيفة وزجر الجنديان الآخران وانطلقت من حناجرهم أصوات وكأنها قذائف مصوبة نحو الجندى الذى باس المضيفة . ألقى هذا الجندى بنفسه على الأرض راكعا على ركبتيه وأخذ يبوس أقدام زميليه ، فلكزه أحدهما ببندقيته فى ظهره لكزة قوية وأخذ الآخر يهوى على رأسه ببندقيته حتى أجهز عليه . حاول عالم

الفسيولوجيا أن ينزل يديه ويضعهما فى موضعهما الطبيعى فأسرع الجنديان بتصويب بندقيتهما نحوه فرفع يديه إلى أعلى .

وقف الجنديان الباقيان على قيد الحياة ينظر كل منهما للآخر نظرات غريبة انقض أحدهما على المضيفة واحتضنها بقوة وقبلها . زجر الجندى الآخر وأسرع بضرب زميله على رأسه ضربة قوية ببندقيته فسقط جثة هامدة . أخذت المضيفة تصرخ صرخات هستيرية .

توقفت المضيفة عن الصراخ وأخذت تنظر حولها بعينين زائغتين وكأنها فى كابوس رهيب . جذبها من يدها الجندى الباقى على قيد الحياة ووضعها فى المقدمة ، ثم قام بترتيب باقى الركاب فى طابور خلف المضيفة . أشار اليهم ليسيروا فى اتجاه معين وهو سائر أمامهم ، ومن آن لآخر ينظر خلفه ليتأكد من أنهم مازالوا رافعى الأيدى .

وصل الطابور إلى بوابة ضخمة يحرسها جندى . فتح الحارس البوابة وأدى التحية العسكرية ، وعندما دخلوا أغلق الباب خلفهم .

أخذ ركاب الطائرة يديرون أبصارهم يتأملون فى ذهول هذه المدينة ذات الأسوار التى وجدوا أنفسهم فيها . همس عالم الفيزياء قائلا :

ـ يبدو أننا وقعنا فى مصيدة لن نفلت منها .

لكز الجندى عالم الفيزياء فى ظهره لكزة قوية بكعب بندقيته جعلته يترنح ، وأشار نحو فمه إشارة فهم منها العالم أنه يأمره بألا يفتح فمه مرة أخرى ، فأطرق نحو الأرض ولزم الصمت .

كانت مبانى المدينة قديمة متداعية ، والشوارع ضيقة متعرجه متربة . توقف الجندى عند مبنى من طابقين به آثار طلاء قديم أصفر ، فتوقف

الطابور . أشار اليهم الجندى بيده نحو باب المبنى ، فدخلوا واصطفوا فى ممر طويل ضيق مظلم على أحد جانبيه أبواب عديدة . تركهم الجندى ودخل من أحد الأبواب الجانبية ثم عاد بعد نحو خمس دقائق وأشار للمضيفة بالدخول ، ولما حاول قائد الطائرة الدخول معها دفعه الجندى فارتطم رأسه بالجدار ودخلت المضيفة وحدها وظل الجندى مع باقى الركاب مصوبا بندقيته نحو قائد الطائرة .

كانت الغرفة خالية من الأثاث فيما عدا منضدة جرباء صغيرة الحجم يجلس خلفها رجل يرتدى زى الشرطة . وقفت المضيفة أمام هذا الرجل الذى أخذ يفحصها بعينيه المنتفختين . نطق بضع كلمات لم تفهم منها المضيفة شيئا . صفق فدخل أحد الجنود . تحدث الرجل مع الجندى حديثا مقتضبا ثم دق بيده على المنضدة دقة قوية فخرج الجندى مسرعا وعاد بعد قليل وبصحبته رجل ضئيل الحجم وقف أمام المنضدة بجوار المضيفة منكس الرأس . وجه اليه رجل الشرطة بضع كلمات فالتفت الرجل الضئيل إلى المضيفة وقال باللغة الانجليزية :

ــ أنا المترجم ، سأقوم بترجمة حديثك إلى لغة أهل الجزيرة وأترجم حديث ضابط الشرطة العظيم إلى اللغة الإنجليزية ليتم التفاهم بينكما .

نطق رجل الشرطة بضع كلمات . قال المترجم للمضيفة :

ــ يقول إن مواهبك واضحة لاتحتاج لإثبات ويمكن الاستفادة منها ، ولذا فسوف يعفيك من جميع الاختبارات .

صفق ضابط الشرطة فدخل أحد الجنود . تحدث الضابط مع الجندى بلغتهم غير المفهومة ، وانتظرت المضيفة سماع ترجمة الحديث ، ولكن

المترجم ظل صامتا مطرقا إلى الأرض . عندما انتهى الضابط من حديثه اقتادها الجندى إلى غرفة مظلمة وتركها بمفردها وأغلق الباب بالمفتاح .

استدعى الأديب الحائز على جائزة نوبل فى الأدب حيث كان ترتيبه فى الطابور خلف المضيفة مباشرة ، فدخل ، وبدأ الضابط استجوابه عن طريق المترجم . سأله عن اسمه وعن الدولة التى ينتمى إليها . ثم قال :

ـ ماسبب هبوط طائرتكم بجوار جزيرتنا ؟ هل أتيتم لاحتلال الجزيرة ؟ قال الأديب :

ـ أنا واثنان آخران كنا فى طريقنا إلى السويد لنتسلم جائزة نوبل ، ولكن لسوء الحظ حدث خلل بأحد أجهزة الطائرة اضطرها للهبوط فى هذا المكان حتى يتم اصلاح الجهاز .

عندما سمع ضابط الشرطة هذا الكلام من المترجم ، بدت عليه الدهشة وقال :

ـ نوبل ؟ ! جائزة نوبل ! وإذا كانت الجائزة لنوبل هذا ، فلماذا تذهبون أنتم للاستيلاء عليها ؟ لماذا تستولون على جائزة إنسان آخر ؟ .

ـ نحن لانستولى على جائزة إنسان آخر ، نوبل هو المتبرع بالجائزة من أمواله ، ولذا سميت الجائزة باسمه . هو الذى أوصى بمنح الجائزة كل عام لعدد من الذين ترى لجنة الجائزة أنهم يستحقونها من الأدباء والعلماء .

عندما نقل له المترجم هذه الاجابة استغرق ضابط الشرطة فى الضحك وقال :

ـ يعطى من أمواله جوائز ؟ ! ولماذا لايحتفظ بأمواله لنفسه ؟ نحن لانعرف نوبل هذا ولاندرى شيئا عن جوائزه . ولماذا منحوك هذه الجائزة ؟

ـ نلت جائزة نوبل فى الأدب . أنا مؤلف روائى .
ـ مامعنى مؤلف ، ومامعنى روائى ؟
ـ أكتب القصص .
ـ نحن لاتهمنا قصصك ، ولانعرف شيئا عن هذا الشيء الذى تسميه «الأدب» اذهب وأحضر لنا الاثنين الآخرين اللذين تقول إنهما حصلا على هذه الجائزة .

خرج الأديب من الغرفة ، وعاد وبصحبته عالما الفسيولوجيا والفيزياء . وقف الثلاثة أمام الضابط ، وقال الضابط لعالم الفسيولوجيا عن طريق المترجم :
ـ وأنت ، لماذا منحوك هذه الجائزة ؟

ـ تمكنت من اكتشاف أشياء جديدة فى فسيولوجيا الخلية ذات علاقة ببعض أسرار الوراثة التى لم تكن معروفة .

لم يفهم الضابط من المترجم سوى كلمة «الوراثة» . أشرق وجهه عندما سمع هذه الكلمة وابتسم ابتسامة بعرض قفاه الغليظ كشفت عن اسنانه المتآكله ، وقال عن طريق المترجم :

ـ يبدو أنك الرجل الوحيد المفيد فى هذه المجموعة . نحن فى أشد الحاجة اليك . توجد فى الجزيرة مشكلة من مشكلات الوراثة تحيرنا منذ أعوام عديدة . واحد من أهل الجزيرة يدعى ملكية الأرض المقام عليها هذا المبنى يقول إنه ورثها عن أجداده ويطالب بملكيتها ، ولانعلم ما إذا كان صادقا أم كاذبا فى هذا الادعاء . أنت الوحيد القادر على حل هذه المشكلة المزمنة ووضع حد لها اذا كنت كما تقول عالما بأسرار الوراثة .

ـ ليس هذا من اختصاصى . الوراثة التى أعنيها هى وراثة الصفات لا وراثة الأراضى والعقارات . لقد حصلت على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا . فسيولوجيا كروموسومات الخلية وعلاقة ذلك بالصفات الوراثية .

تجهم وجه الضابط وشعر بخيبة أمل وقال ساخرا :

ـ فسيولوجيا ؟ وما هى هذه الفسيولوجيا ؟ لانعلم عنها شيئا .

وسار بيده نحو الأديب قائلا .

ـ اذن فأنت كزميلك هذا ، لا فائدة ترجى منكما .

ثم التفت إلى عالم الفيزياء وقال :

ـ وأنت ، لماذا حصلت على هذه الجائزة ؟

ـ اكتشفت نوعا جديدا من الأشعة شديد التركيز ذا فائدة كبرى فى الطب والصناعة .

ـ أشعة ؟ لانحتاج لأكثر من أشعة الشمس . كيف يبعثرون الأموال ويمنحونكم جوائز عن أشياء تافهة لاقيمة لها ؟ أنتم لاتصلحون للحياة فى جزيرتنا .

أمر الضابط بدخول طاقم الطائرة ، اصطفوا أمامه بجوار الثلاثة الفائزين بجوائز نوبل . قال مخاطبا الجميع عن طريق المترجم :

ـ يبدو أنكم جميعا لاتصلحون لأى شىء ولافائدة ترجى منكم ، الفتاة الجميلة التى كانت معكم هى الوحيدة التى يمكننا الاستفادة من وجودها هنا ، ستمنحنا متعة كنا فى أشد الحاجة اليها . أما فيما يتعلق بكم معشر الرجال فيجب أن تعلموا ان الشخص الصالح للحياة فى جزيرتنا هو الذى يحسن اللعب بالبيضة والحجر ويتمكن من حمل أثقال معينة من الحديد ،

ويكون قادرا على العدو السريع وحمل الأتربة ونقلها بأية وسيلة من أى مكان إلى موقع السد الذى نقيمه حول الجزيرة لحمايتها من الغرق . إن اقامة هذا السد هو الشيء الوحيد الذى يشغل تفكيرنا منذ مئات السنين ولانفكر فى شيء سواه ، فمواردنا ضئيلة ولاتسمح بوجود عاطلين لايتقنون الأعمال التى نحتاج اليها . سوف نقوم باختباركم لمعرفة صلاحيتكم للحياة هنا ، واذا لم تنجحوا فى الاختبار فسنكون مضطرين لتنفيذ حكم الاعدام فيكم جميعا ماعدا الفتاة الجميلة .

صفق الضابط ثلاث مرات فدخل الغرفة عملاق أسمر . قال الضابط للعملاق بضع كلمات فأخرج من أحد جيوبه بيضة ومن جيب آخر أخرج حجرا ، ووضعهما على مكتب الضابط . قال الضابط عن طريق المترجم موجها حديثه للأديب الحائز على جائزة نوبل فى الأدب :

ـ هل تستطيع أن تلعب بالبيضة والحجر ؟ !

لم يفهم الأديب شيئا . طلب الضابط من المترجم أن يفسر لركاب الطائرة معنى هذا الاختبار . قال المترجم :

ـ ضع البيضة والحجر فى يدك ، ثم اقذف البيضة الى أعلى ، وعندما تعود البيضة إلى يدك اقذف الحجر إلى أعلى وكرر ذلك عشرين مرة دون أن يكسر الحجر البيضة أو يسقط أحدهما على الأرض

حاول الأديب ، ولكن من أول محاولة كسرت البيضة وسقط الحجر على الأرض .

قال الضابط :

ـ لقد فشلت فى اجتياز أول اختبار . قف فى هذا الركن وضع وجهك نحو الحائط !

فشل باقى ركاب الطائرة فى هذا الاختبار . صفق الضابط مرتين فدخل الغرفة أحد الجنود . أمره الضابط أن يسوق أمامه ركاب الطائرة لينتظروه فى الميدان الكبير . فى هذا الميدان اصطف ركاب الطائرة عند خط مستقيم حفره الضابط فى التراب . قال لهم الضابط عن طريق المترجم :

ـ عليكم أن تبدأوا الجرى بأقصى سرعة . عندما اصفق .

صفق . انطلقوا بأقصى سرعتهم . كان قائد الطائرة أسرعهم جريا ، يليه أفراد الطاقم ، أما الحائزون على جوائز نوبل فظلوا فى المؤخرة . قال الضابط موجها حديثه إلى قائد الطائرة وطاقمها :

ـ لقد نجحتم فى الاختبار الثانى ، ومن الممكن أن تكونوا صالحين للعمل لو نجحتم فى الاختبار الثالث .

ثم قال مشيرا نحو الفائزين بجوائز نوبل :

ـ أما هؤلاء فلا أمل فيهم ولافائدة ترجى منهم ! لقد أثبتوا عدم صلاحيتهم لأى عمل ، ونتيجة لذلك فسوف ننفذ فيهم حكم الإعدام شنقا !

انسابت من عينى الأديب بضع قطرات من الدموع جففها بمنديله . تقدم العملاق حاملا قضيبا عند طرفيه عدة أسطوانات ثقيلة من الحديد . أمر الضابط أن يتقدم أفراد طاقم الطائرة واحدا بعد لآخر لرفع هذه الأثقال . تمكنوا من حملها . نظر الضابط نحو الثلاثة الفائزين بجائزة نوبل وقال عن طريق المترجم :

ـ لو تمكنتم من رفع هذه الأثقال ، فقد نخفف حكم الإعدام ونستبدل به السجن مدى الحياة .

فشل الثلاثة فى رفع الأثقال . سار جميع الركاب بعد ذلك فى شارع ضيق متعرج بقيادة الضابط وتحت حراسة ثلاثة جنود ، والمترجم يهرول بجوار الضابط . كان الشارع مليئا بالحفر تفوح منه روائح كريهة . ظلوا سائرين ، والأديب والعالمان يلهثون فى مؤخرة الطابور حتى وصلوا إلى مقر رئيس الشرطة . أمر الضابط طاقم الطائرة بالبقاء خارج الغرفة ، واقتاد الأديب والعالمين وسار المترجم خلفهم ووقفوا أمام مكتب رئيس الشرطة . قال الضابط لرئيسه بعد أن أدى التحية والمترجم يترجم حديثه ترجمة فورية ليفهمه الحائزون على جائزة نوبل :

ـ نجح الجميع فى الاختبارين الثانى والثالث بينما فشل هؤلاء الثلاثة فى جميع الاختبارات .

نظر إليهم رئيس الشرطة باحتقار وقال عن طريق المترجم :

ـ يا للعار ، لا فائدة من وجودكم على قيد الحياة فلقد ثبت لدينا عدم صلاحيتكم لأى عمل . من المفروض أن ينفذ فيكم حكم الإعدام ، ولكن لأسباب إنسانية سأمنحكم فرصة أخرى . نحن فى هذه الجزيرة تهددنا من آن لآخر مياه المحيط ، ولذا فكرنا منذ أعوام عديدة فى إقامة سد من التراب عند حافة الجزيرة . سنعطى كل واحد منكم حمارا ، ونضع فوق ظهر كل حمار خرجا وتذهبون إلى مكان معين تملأون الخرج بالتراب وتلقون التراب عند حافة الجزيرة ، وسيسهم معكم فى هذا العمل مئات من أهل الجزيرة . لو استطعتم تأدية هذه المهمة بنجاح ، سنلغى تنفيذ حكم الإعدام .

بدأ الثلاثة تنفيذ ما أُمروا به . قال الأديب لعالم الفيزياء وهما يلهثان خلف حماريهما المحملينْ بالتراب :

ـ لست أدرى ماذا سيكون مصيرنا عندما ينتهى بناء السد ؟

قال عالم الفيزياء وعلى شفتيه ابتسامة تخفى ما يزرح تحت وطأته من مرارة ويأس :

ـ لن ينتهى بناء السد

ـ كيف ؟

ـ مانحمله من تراب فى النهار تذروه الرياح فى الليل .

ـ ألم يلاحظ المسئولون ذلك ؟

ـ يبدو أن كل مايهمهم هو استمرار العمل حتى ولو لم تكن له أية ثمرة . سيستمر العمل فى هذا السد حتى يوم القيامة بلا جدوى .

فى هذه اللحظة ساد الرعب فى جميع أجزاء الجزيرة . لقد أبصروا عددا من الطائرات الضخمة تحوم فوقهم على ارتفاع منخفض ينبعث منها هدير يكاد يصم الآذان . كان اختفاء الطائرة قد أحدث فزعا شديدا فى جميع أنحاء العالم المتحضر ، فهى تحمل ثروة بشرية لاتقدر بثمن ، تحمل ثلاثة بلغوا من العبقرية أقصى مايمكن أن يرقى اليه الذهن البشرى ، فانطلقت الطائرات من عدة دول تجوب أنحاء المحيط بحثا عن هذه الطائرة . كانت آخر أشارة من الطائرة تفيد أنها فَقدت الاتجاه ، وأنها هبطت بجوار جزيرة تقع على وجه التقريب عند تقاطع خطى طول وعرض معينين ، وأن رجال الشرطة بالجزيرة صعدوا إلى الطائرة وألقوا القبض عليهم .

هبطت إحدى الطائرات فوق سطح الماء بالقرب من الطائرة المفقودة ، وفى دقائق قليلة تم إعداد جسر يصل بينها وبين الشاطىء ، وخرج منها مالا يقل عن مائة جندى مسلحين بأحدث أنواع الأسلحة متجهين نحو الشاطىء .

فى الوقت ذاته انطلق من شاطىء الجزيرة عدد من القوارب مسرعة نحو الطائرة الجديدة .

أطلق جنود الطائرة الرصاص فى الهواء ، وبمجرد سماع الطلقات عادت القوارب مسرعة نحو الشاطىء

هبط الجنود على أرض الجزيرة ، واكتشفوا أن جميع البنادق التى يحملها جنود الجزيرة غير صالحة للاستعمال وخالية من الذخيرة فلم تحدث أية مقاومة .

عندما ذهب جنود الطائرة للقبض على حاكم الجزيرة ، وجدوه مضطجعا على كنبة والمضيفة جالسة بالقرب منه فى حالة يرثى لها ، وخلفهما خادمان يهويان عليهما بمروحتين من ريش الطيور قبضوا على الحاكم وأنقذوا المضيفة وطلبوا من الحاكم عن طريق المترجم إحضار باقى ركاب الطائرة .

تم إصلاح جهاز الاتجاه فى الطائرة ، وبينما يهم بالركوب الثلاثة الفائزون بجوائز نوبل والمضيفة وباقى طاقم الطائرة أبصروا المترجم يعدو نحوهم . أخذ يستعطفهم لينقذوه من هذه الجزيرة المتخلفة وقال :

ـ شاء سوء طالعى أن تقع فوق هذه الجزيرة الملعونة ، الطائرة التى كنت أقودها فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، فأسرونى واستغلونى للقيام بأعمال شاقة طوال هذه المدة ، ولما ساءت صحتى وأصبحت عاجزا عن نقل التراب قرروا إعدامى ، وكانوا على وشك تنفيذه . ولكن عندما احتاجوا للتفاهم معكم لم يجدوا فى الجزيرة سواى للقيام بهذه المهمة ، وأخشى الآن بعد رحيلكم ان أصبح عديم الفائدة بالنسبة لهم فيشنقونى

سمحوا للمترجم بالركوب فى الطائرة حاملة الجنود ، أما الطائرة التى تحمل الثلاثة الحائزين على جوائز نوبل فلقد انطلقت نحو السويد ، نحو الحضارة .

عام ١٩٧٧

الطوفـــان

بين ضجيج الأطفال الذى يكاد يصم الآذان فى حديقة «النزهة» بالإسكندرية فى يوم «شم النسيم» وقف رجل طويل نحيل ذو لحية مدببة يرتدى بدلة مزركشة ينادى بأعلى صوته قائلا :

ــ أيها الناس ، اسمعوا . . .

ولكن الضجة كانت أعلى من صوته فلم يسمعه أحد . استمر يصيح :

ــ أيها الناس اسمعوا ، أنصتوا لى برهة قصيرة . لدىَّ أنباء مثيرة أخبار خطيرة ، أريد أن أتحدث اليكم . ياناس ، ياعالم ياهوه ، ألا يريد أن ينصت لى أحد ؟

خفت الضجة قليلا ولكنها مازالت أعلى من صوته ، فاستمر ينادى :

ــ أرجوكم ، أتوسل اليكم ، لدىَّ رساله مهمة أريد تبلغيها . سأطلعكم على شىء رهيب .

ساد الهدوء وبدأ الجميع يتطلعون اليه فى دهشة ، ولكن فى هذه اللحظة ارتفع صوت بكاء عدد من الأطفال ، فصاح الرجل قائلا :

ــ الحمد لله ، هدأت الضجة ، ولكن الأطفال مازالوا يبكون . لايمكننا منع بكاء الأطفال . لا أحد منهم سيفهم كلامى ، هذه هى

المأساة ، فلنتركهم يبكون ، لا أحد من هؤلاء الأطفال يعرف لماذا يبكى . البكاء أولَ شيء يفعله الإنسان عندما يولد . الحياة تبدأ ببكاء الإنسان وتنتهى بالبكاء عليه . إنها مأساة . كلنا بكينا فى اللحظة التى خرجنا فيها للحياة . وُلدنا ، وبكينا . كلنا جئنا فى هذه الدنيا ولانعرف لماذا جئنا .

ارتفعت الضجة من جديد ، فصاح الرجل قائلا :

ـ ياناس ، ياعالم ، اسمعوا الخبر المثير ، رسالة أريد تبليغها . أنباء مهمة اسمعوا .

عاد الهدوء ، واستمر الرجل قائلا :

ـ أنا رجل وُهبت القدرة على معرفة الغيب . كل واحد منكم يتمنى معرفة الغيب ، أليس كذلك ؟

ـ ارتفعت أصوات تقول :

ـ أجل ، نريد أن نعرف الغيب .

قال الرجل :

الرغبة فى معرفة الغيب غريزة متأصلة فى أعماق نفس كل إنسان ، فالإنسان مهما تعلم ومهما تثقف فى أعماقه نقطة ضعف ، وهى الرغبة فى معرفة ماتخبئه له الأيام ، يقرأ بخته فى الصحيفة كل صباح ، يريد أن يعرف المجهول . وكثيرون يفتحون الكتشينة ويقرأون الفنجان شوقا لمعرفة المستقبل . لست ضارب ودع ولا فاتح كتشينة ولا قارىء فنجان ، ولكننى شخص انكشف عنه الحجاب ، أرى المستقبل أمامى واضحا كما أراكم الآن .

اشرأبت جميع الأعناق واتجهت نحوه كل العيون بدهشة وترقب . وبغتة صاح الرجل وكأنه أبصر شيئا رهيبا :

ــ احذروا ، احذروا ، الطوفان قادم . الطوفان سيغرقنا جميعا .
علا صراخ الأطفال وسرى الرعب فى أجساد الكبار واستمر الرجل قائلا :

ــ الطوفان سيغرقنا . هيا نهرب من الطوفان . امنعوا الطوفان ! إنه طوفان رهيب أسمع هديره . إنه قادم .
صاح أحد الشبان قائلا :
ــ هذا الرجل ساحر ، سيسحرنا !
صاح آخر :
ــ إنه نصاب أفّاق يود أن يرعبنا ويعذبنا .
صاح الثالث :
ــ إنه كافر .
ارتفعت أصوات تنادى :
ــ أقتلوه .
ــ احرقوه .
ــ اطردوه .

فصاح الرجل فى رعب :
ــ أرجوكم ، أتوسل اليكم ، لاتغضبوا . لست ساحرا ولانصابا . أنا لم أرتكب جريمة ولم أقترف إثما ، بل جئت لتحذيركم من الطوفان .
ارتفع صوت أحد الشبان قائلا :
ــ قل لنا كيف ننجو من هذا الطوفان الذى تحدثت عنه .
وصاح شاب آخر قائلا :
ــ لاتصدقوه ، إنه مجنون . إنه كذاب .

فى هذه اللحظة سمع الجميع صوتا وكأنه صوت انهيار جبل ، إنه صوت طائرة تقترب ، فصاح الرجل قائلا :

ـ هل تسمعون صوت هذه الطائرة ؟ إنها ستهبط . أفسحوا الطريق للطائرة . أفسحوا الطريق .

قفز الصغار والكبار فى رعب عندما أبصروا طائرة تهبط بينهم ، لم يعلموا من أين أتت ولا كيف استطاعت الهبوط فى هذا المكان الضيق وصاحت إحدى الفتيات قائلة :

ـ الطائرة بدون طيار ، كيف تطير بلا قائد ؟ !

فصاح الرجل قائلا :

ـ أنا الذى جعلتها تطير ، وأنا الذى جعلتها تهبط هنا !

صاحت الفتاة قائلة :

ـ ولماذا كل هذا ؟

ـ أسمعتم عن طائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت .

قال أحد الشبان :

ـ هل هذه واحدة منها ؟

ـ كلا ، هذه طائرة من نوع آخر . إنها أسرع من الزمن !

ـ أسرع من الزمن ؟ مامعنى هذا ؟

ـ معنى هذا أننا لو ركبناها وطارت بنا فسوف نسبق الزمن ، وبهذه الوسيلة يمكنكم زيارة أى مكان فى الدنيا لتروا كيف ستكون الحياة فيه بعد مائة عام ، مثلا ، أو بعد خمسمائة عام ، أو بعد أية فترة من الزمن !

صاح أحد الشبان قائلا :

ـ وما علاقة هذا بالطوفان ؟

قال الرجل الغامض بعد فترة صمت قصيرة :

ـ من يركب الطائرة معى سوف يرى الطوفان . سيرى الدنيا عندما يأتى الطوفان . أريد أن أبث الرعب فى قلوبكم وأبعث الرجفة فى أجسادكم عندما ترون الطوفان !

ارتفع صوت يقول :

ـ أسمعتم ؟ هذا الرجل كما قلت لكم يريد أن يرعبنا ، لقد اعترف الآن .

ـ أجل ، أريد أن أخيفكم من الطوفان لتوقفوا تدفقه فتكتب لكم النجاة . من منكم يصحبنى فى هذه الرحلة ؟ إنها أمتع الرحلات . من يركب معى سيرى أشياء كثيرة ، أشياء مثيرة ، سيرى المستقبل . سيرى الطوفان .

ساد الصمت ولم ينطق أى إنسان ، فاستمر الرجل صائحا :

ـ لا أحد يريد أن يصحبنى فى هذه الرحلة ؟

ثم أخذ يدير بصره فى أنحاء المكان فاحصا الوجوه ذات العيون المحملقة فى وجهه واستقرت عيناه عند فتاة جميلة ، أشار نحوها قائلا :

ـ من أنت ؟

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ هل تقبلين صحبتى فى هذه الرحلة لرؤية المستقبل ؟ رؤية الطوفان ؟

قالت الفتاة وقد شحب لونها :

ـ بى شوق لرؤية المستقبل ، ولكن لايمكننى أن أترك أبى وأمى وإخونى .

ـ كل البنات يفعلن ذلك فى يوم من الأيام .

ـ كيف ؟

ـ عندما يتزوجن يتركن آباءهن وأمهاتهن ويذهبن مع أزواجهن .

ـ الزواج شىء والسفر فى رحلة إلى المجهول شىء آخر .

ـ لن تستغرق الرحلة وقتا طويلا . سأعيدك إلى هذا المكان . ستنطلق الطائرة مخترقة المستقبل بسرعة مائة عام فى الدقيقة إنها فرصة لاتعوض . رحلة بالمجان . فرصة العمر ، ما رأيك ؟ .

ـ إذا كنت ستعيدنى إلى هذا المكان بعد فترة قصيرة فلا مانع لدى . ولكن إلى أى مكان فى الدنيا سنذهب ؟

ـ إلى أى مكان تودين رؤية الحياة فيه بعد مئات السنين .

ـ أريد الذهاب إلى دولة غنية أرى فيها مباهج الدنيا .

ـ ما رأيك فى الولايات المتحدة الأمريكية ؟

ـ أنا فى شوق لرؤيتها .

ـ سترينها ، ولكن لاكما هى الآن ، بل كما ستكون بعد مئات السنين .

ـ لابد أن الحياة فيها بعد مئات السنين ستكون أروع مما هى الآن . أروع مما يبتكره الخيال .

ـ ستعرفين كل شىء عندما تصل إليها الطائرة . هيا معى تَعالَىْ ، لاتخافى هيا اركبى الطائرة .

سارت الفتاة وكأنها منومة تنويما مغناطيسيا ، وركبت الطائرة والجميع ينظرون إليها بدهشة . التفت الرجل نحو الجماهير يتفرس فى وجوههم ، ثم ثبت عينيه فى عينى شاب وسيم وقال :

ـ يخيل إليّ أن هذا الشاب يرغب فى السفر معنا فى هذه الرحلة ، أليس كذلك ؟

قال الشاب :

ـ فى أعماق نفسى رغبة قوية فى السفر معكما لرؤية المستقبل المجهول فأنا تواق لمعرفة المستقبل ورؤية هذا الطوفان الذى تتحدث عنه ، ولكننى أخشى ركوب الطائرات وعلى الأخص طائرتك هذه ، فهى طائرة عجيبة الشكل لم أر لها مثيلا من قبل . من المحتمل أن تحدث كارثة فتسقط طائرتك ونموت ونحن فى المستقبل .

ـ لاتوجد كارثة أبشع من كارثة الطوفان الذى ستراه فى رحلة المستقبل هذه .

ـ أخشى أن تسقط الطائرة فى وسط الطوفان فنغرق .

ـ اطمئن من هذه الناحية ، هذه الطائرة لايمكن أن تسقط ، وسرعتها رهيبة . فرصة العمر . لابد أن تقرر بسرعة ، هل ستصحبنا فى هذه الرحلة أم لا ؟ فالطائرة على وشك الطيران .

نظر الشاب فرأى الفتاة تنظر إليه مبتسمة من نافذة الطائرة ، فقال :

ـ سآتى معكما ، ولكن على شرط .

ـ ماهو هذا الشرط ؟

ـ لا أحب أن أعود إلى هنا . أريد أن تتركنى اعيش فى المستقبل فلقد سئمت الحياة فى هذا الحاضر البشع .

ـ أنت تشترط عدم الرجوع إلى الحاضر ، وهذه الجميلة تشترط العودة كيف أوفق بين الرغبتين المتعارضتين ؟ على أية حال لابد أن نجد حلا سريعا لهذه المشكلة ، قد يغير أحدكما رأيه عندما يرى مستقبل البشرية .

هيا اركب معنا .

ركب الشاب الطائرة وجلس جنب الفتاة ، وبقى الرجل الغامض واقفا يصيح :

ــ من غيرهما يرغب فى مصاحبتنا ؟ إنها رحلة جميلة . رحلة مفيدة . رحلة ممتعة . من منكم يرغب فى رؤية الطوفان ؟ من يريد السفر إلى المستقبل . من يود اختراق ستار الغد ؟

تصاعدت أصوات عديدة تهدر كالرعد قائلة :

ــ لانرغب فى السفر معك .

ــ إنه دجال .

ــ إنه خطاف .

ــ إنه نصاب .

ــ إنه أفاق .

ــ أمسكوه .

ــ اقتلوه .

قال الرجل بهدوء :

ــ لا داعى لهذه الاتهامات الباطلة . جئت أحمل إليكم رسالة فيها خير لكم ، أريد أن أبعد عنكم خطر الطوفان . أود إنقاذكم من الدمار .

أسرع الرجل بركوب الطائرة وجلس جنب الشاب والفتاة وانطلقت الطائرة فى الفضاء بسرعة مذهلة والجميع يشيعونها بأبصارهم فى دهشة وفزع ومالبثت أن ابتلعتها السماء .

قالت الفتاة للرجل :

ــ يخيل إلىّ أن الطائرة ساكنة لاتتحرك .

ـ يخيل إليك ذلك ولكنها فى الواقع تخترق الزمن بسرعة رهيبة ، لم يبق سوى ثوان وتهبط بنا فى مدينة نيويورك .

صاح الشاب :

ـ وصلنا ، الطائرة تهبط .

صاحت الفتاة فى رعب .

ـ أنا خائفة ، خائفة .

التفت الرجل إليها مبتسما وقال بهدوء :

ـ مم تخافين ؟

ـ خائفة من المجهول .

قال الشاب :

ـ لست خائفا من المجهول ، بل مشتاق لمعرفة الصورة التى ستكون عليها الدنيا بعد مئات السنين . كم تمنيت أن أرى المستقبل .

قال الرجل :

ـ نحن الآن فى المستقبل .

قال الشاب :

ـ انه شعور غريب أن ينتقل الإنسان من الحاضر إلى المستقبل فى لحظة قصيرة .

أجهشت الفتاة بالبكاء وقالت :

ـ هل معنى هذا أن أبي وأمى واخوتى اصبحوا الآن موتى ؟

ـ لا داعى للبكاء ، سيعودون للحياة عندما تعود الطائرة ، لقد وعدتك أن أرجعك إلى الزمن الذى كنتِ فيه .

غمغمت الفتاة قائلة :

ـ تجربة رهيبة .

صاحت الفتاة بغتة قائلة وقد استبد بها الفزع :
ــ الطائرة تسقط فى الماء .

قال الرجل بهدوء :
ــ إنها لاتسقط فى الماء ، بل تهبط فوق مياه المحيط بالقرب من الشاطىء . كان من الضرورى أن تهبط على سطح الماء إذ لاتوجد الآن مطارات على الأرض .
قال الشاب بدهشة :

ــ غير معقول ! الولايات المتحدة الأمريكية لايوجد بها فى المستقبل ، الذى نحن فيه الان ، مطارات على الأرض ؟ ! ما معنى هذا ؟
قال الرجل :

ــ لم يعد على سطح الأرض مكان يتسع لهبوط الطائرات . لقد أغرق الطوفان كل شبر على الأرض !

قالت الفتاة بفزع :
ــ وكيف نصل إلى الشاطىء ؟
ــ سنركب قاربا يوصلنا إلى الشاطىء ، ها هو ذا فى انتظارنا عند باب الطائرة ، هيا بنا .

وصل القارب الذى يحمل الثلاثة إلى الشاطىء فهبطوا منه . كان الوقت ليلا وما من ضوء سوى ضوء القمر ، ولما أرادوا وضع أقدامهم على الشاطىء فوجئوا بمنظر عجيب . ابتداء من الشاطىء حتى نهاية البصر شاهدوا كتلة من الأجساد البشرية المتراصة لصق بعضها وكأنهم فى أوتوبيس من أوتوبيسات مدينة القاهرة أو الإسكندرية . ظنت الفتاة أن

الناس تجمعوا فى هذا المكان لرؤية شيء مثير ، ولكن الحقيقة كانت أبشع مما تتصور . إن هؤلاء البشر لايملكون مساكن يأوون إليها ، فهم واقفون وهم نيام حيث يرتكز كل واحد على الآخر . ظهرت الدهشة على وجهَىْ الشاب والفتاة وصاح الشاب قائلا :

ــ ماهذا ؟

قال الرجل :

ــ هذا هو الطوفان !

ــ الطوفان ؟ ولكننى لا أرى ماء بل أرى بشرا .

ــ الطوفان الذى أقصده طوفان من البشر أغرق الدنيا ! لقد ازداد عدد الناس وأصبحوا كالآفة أو كالوباء ، أخطر من الجراد وأشد فتكا ودمارا من القنبلة الذرية . لم تعد المساكن تكفيهم ولا الطعام يسد رمقهم . لم تعد الأرض تتسع لوضعهم الأفقى ، فهم ينامون هكذا فى وضع رأسى ، أقل مساحة !

قالت الفتاة :

ــ ولكننى أرى فى الأفق البعيد بيوتا .

ــ إنها الآن للمحظوظين من أصحاب المليارات ، فايجار الشقة المكونة من غرفة واحدة لايقل عن ثلاثة ملايين من الدولارات شهريا ، وجميع الشقق أصبحت من غرفة واحدة ينامون ويأكلون ويجلسون فيها . لم تعد هنا حجرات للطعام وأخرى للنوم والجلوس كما كانت الحال فيما مضى قبل ركوبنا الطائرة . لقد ولّت هذه الأيام الجميلة !

قالت الفتاة :

ـ اذا كانت هذه حال أغنى الدول فما هى الحال ياترى فى الدول الفقيرة ؟

ـ أسوأ وأبشع . أنا أشفق عليكما من رؤية ماوصلت اليه الحال فى الدول الفقيرة .

ـ وهل يوجد ماهو أبشع من ذلك ؟

ـ أجل ، يوجد ماهو أبشع من ذلك .

ـ كنت أتصور أن المستقبل يحمل معه مزيدا من الحضارة والازدهار وروعة التكنولوجيا . جميع المؤلفين الذين قرأت لهم كانوا يتنبأون بذلك .

ـ لاتؤخذينى إذا قلت لك إن هذا ما كان يتصوره قصار النظر وذوو الأفق الضيق والتفكير السطحى ، ها هو ذا المستقبل أمامكم فاحكموا عليه بأنفسكم .

قال الشاب :

ـ حقا انه لطوفان رهيب .

ـ وماستريانه الآن أكثر بشاعة .

ساروا يخترقون جموع البشر كما تخترق الإبرة قطعة من المطاط ، وأخيرا وصلوا إلى مكان خال من البشر . تعجب الشاب والفتاة لوجود مكان كهذا لاتغطيه الأجساد الآدمية ، ولكنهم عندما أمعنوا النظر وجدوا فى الأرض حفرا عميقة . خرج بغتة من إحدى هذه الحفر آلاف من بنى آدم شبه عراة يصيحون صيحات مدويّة واندفعوا يجرون فى إتجاه معين . فزعت الفتاة والتصقت بالشاب قائلة :

ـ ماهذا ؟ من هؤلاء ؟

قال الرجل الغامض بلهفة :

ـ أسرعا بالاختفاء خلف هذا الجدار ، أسرعا . هذه المنطقة من أخطر المناطق ، يعيش فيها الناس داخل أنفاق حفروها فى باطن الأرض كما يعيش النمل ، وإذا شموا رائحة إنسان غريب عن المنطقة يسير فى هذا المكان أسرعوا باقتناصه والتهامه . إن صيحاتهم هذه التى تسمعونها هى صيحات الحرب ، فهم فى حالة حرب مستمرة .

قالت الفتاة بدهشة :

ـ حالة حرب مستمرة ؟ ! ضد من هذه الحرب ؟

ـ ضد الجوع . لقد اندفعوا خارجين من أنفاقهم لأنهم شموا رائحة خيارة على بعد خمسة كيلو مترات !

قال الشاب بذعر :

ـ وهل شموا رائحتنا ؟

ـ أجل شموا رائحتنا ، ولكنهم يفضلون أكل الخضروات التى أصبحت نادرة .

ـ انهم شبه عراه والجو هنا بارد ، أين ذهبت الحضارة ؟

ـ الحضارة التهمها البشر . استهلكوا كل شىء . تقلصت الأراضى الزراعية ونضب الفحم والبترول وأصبح الحديد والصفيح وغيرهما من المعادن أشياء ثمينة أشبه بالتحف النادرة ، فتلاشت الحضارة وبدأ الناس يتحولون إلى نوع غريب من الحيوانات ، قويت لديهم مع مرور الزمن الحواس اللازمة للبحث عن الطعام ، كحاسة الشم فأصبح فى إمكانهم أن يشموا الغذاء على بعد أميال ، وارتفعت الأسعار ارتفاعا رهيبا فوق طاقة معظم البشر ، وهؤلاء الذين رأيناهم لم يعودوا قادرين على شراء أى شىء . لم تعد المواد كافية لهذه المليارات من البشر . لقد التهموا كل شىء

التهموا الكلاب والقطط والفئران والسحالى والثعابين والحشرات ، فانقرضت جميع الحيونات ولم يعد لها أثر .

صاحت الفتاة قائلة :

ـ أنا خائفة أرتعد من الخوف .

ـ قال الرجل لاتخافى هيا بنا نختبىء خلف هذه المبانى .

انطلقوا يجرون فى أحد الشوارع الضيقة . صاح الرجل بغتة قائلا :

ـ اسرعا بالجرى ، هذا المكان رهيب أيضا . رأيت حبلا تدلى من أحد النوافذ وفى نهايته خطاف ، إنهم يريدون اصطيادنا ليأكلونا ! .

انطلق الثلاثة يعدون بأقصى سرعتهم . صاح الشاب قائلا :

ـ هيا نختبىء فى أى مكان .

فى هذه اللحظة سمعوا دقات تشبه دقات طبول الحرب عند بعض قبائل أفريقيا .

قالت الفتاة وهى ترتجف رعبا :

ـ ماهذه الطبول ؟

قال الرجل :

ـ إنهم يدقون الطبول ليهجموا علينا ويلتهمونا بعد أن شموا رائحتنا .

قال الشاب للرجل :

ـ أمتأكد أنت أننا هنا فى الولايات المتحدة الأمريكية ؟

ـ كل التأكد ، نحن هنا فى مدينة نيويورك .

قالت الفتاة والفزع يستبد بها :

ـ لا وقت للكلام ، هيا بنا نختبىء .

وقفوا أمام مبنى إسترعى انتباه الشاب فقال :

نختبىء داخل هذا المبنى ، يبدو أنه أحد المبانى الحكومية .
صاح الرجل محذرا :

لا ، لاتدخلوا هذا المبنى . إنه مبنى «وزارة نشر الأوبئة وقتل المواطنين» .
قالت وهى ترتجف :
ــ وزارة نشر الأوبئة وقتل المواطنين ؟ !

ــ نعم ، إنها الوزارة التى حلت محل وزارة الصحة التى كانت فيما مضى . المشكلة الآن هى زيادة السكان ، أى أن حياة الفرد أصبحت مشكلة بالنسبة للدولة ، ولذا فإن كفاءة الوزير الذى يتولى هذه الوزارة تقاس بقدرته على إبادة أكبر عدد من السكان ، لقد ظل البشر يتكاثرون بلا قيد أو شرط حتى أصبحوا وباء ينبغى القضاء عليه ! .

أسرعوا بالابتعاد عن هذا المكان وواصلوا الجرى حتى اشرفوا على ميدان به عدد كبير من المشانق تتدلى منها بعض الجثث فارتعدت الفتاة وصاحت قائلة :
ــ ماهذا ؟ إنها مشانق .
ــ نعم ، مشانق ، ولقد هجم الجياع على بعض الجثث فاختطفوها وأكلوها .
ــ ولماذا يشنقونهم ؟
ــ لأنهم بلغوا سن الثلاثين ؟
ــ ولماذا يشنقون من بلغ سن الثلاثين ؟
ــ أصبح الثلاثون سن المعاش ، والقانون ينص الأن على قتل من يبلغ هذه السن للتخلص من أعبائه ، وليأكلوا لحمه !

ـ ياللبشاعة . الهذا الحد خلت القلوب من الرحمة والإنسانية ؟ !

ـ لم يعد الإنسان إنسانا ، تحول إلى نوع آخر من الحيوانات ، أصبح أكثر شبها بحشرة النمل الأبيض .

قال الشاب :

ـ النمل الأبيض لا يأكل بعضه بعضا .

ـ عندما يزيد عدد النمل الأبيض فى المستعمرة على حد معين يبدأ فى أكل بيضه ، وبهذا يتمكن من حل مشكلة الغذاء ومشكلة زيادة السكان فى آن واحد .

ـ أكل البيض لا قسوة فيه ، أما أكل الإنسان لأخيه الإنسان فشىء رهيب تقشعر منه الأبدان وتتقزز منه النفس .

ـ منذ آلاف السنين ، منذ ظهر على ظهر الأرض ، والإنسان يأكل بعضه بعضا .

قالت الفتاة :

ـ لم يكن يحدث هذا إلا فى المجتمعات البدائية المتخلفة المتوحشة .

قال الرجل :

ـ بل كان يحدث فى كل مكان . ألم يكن القوى يأكل الضعيف والغنى يلتهم رزق الفقير ، والحاكم المستبد يستنزف أموال الرعية ويسفك دماء الأبرياء ؟ الانسان حيوان شرير منذ وجد على ظهر الأرض . أشد الحيوانات ضراوة .

صرخت الفتاة صرخة رعب ، فاسرع الرجل وجذبها جذبة قوية ، واتضح أن أحدهم حاول اصطيادها بخطاف مثبت فى حبل مدلى من إحدى النوافذ فجرح فخذها . صاح الشاب قائلا :

إنها تنزف . لابد من الإسراع بنقلها إلى أحد المستشفيات أو إحدى الصيدليات .

ضحك الرجل وقال :

ــ مستشفيات ؟ صيدليات ؟ هذه أشياء لم يعد لها وجود ، انهم يريدون التخلص من الناس فكيف يحرصون على علاجهم ؟ !

كانت الفتاة لاتزال تبكى فى فزع ، صاحت فى غضب قائلة للرجل :

ــ هل أحضرتنا هنا لتعذيبنا وتعريضنا للهلاك أيها الرجل ؟

وصاح الشاب قائلا :

ــ لابد من إسعافها بأية وسيلة . لن نتركها تنزف حتى الموت .

أخرج الرجل من جيبه منديلا نظيفا ولفه حول الجرح ، واحتضنها الشاب وقبلها ، فصاح الرجل قائلا :

ــ حذار ، إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى . القبلة هنا عقوبتها الإعدام ، فإنجاب الذرية يبدأ بقبلة والحكومة تحارب إنجاب الذرية . منذ عدة أعوام سنّت الدولة هنا قانونا بمنع الحب والزواج ، وعلى الرغم من ذلك فإن عدد السكان فى ازدياد ولا أحد يدرى من أين تأتى هذه الذرية ! .

قال الشاب وكأنه يحدث نفسه :

ــ من الممكن منع الزواج بقانون ، ولكن هل يُمنع الحب بالأوامر والقوانين ؟

انخطرت الفتاة فى بكاء عنيف ثم صاحت قائلة للرجل :

ــ أريد العودة إلى الزمن الذى كنت فيه قبل ركوبى هذه الطائرة اللعينة .

وانهالت على الرجل ضربا وصفعا صائحة :

ـ أرجعنى كما أحضرتنى . لا أريد البقاء هنا أكثر من ذلك .

قال الرجل .

ـ توجد أشياء مثيرة أخرى ، ألا تودين رؤيتها ؟ إنها فرصة لن تعوض .

ـ لا أريد أن أرى أكثر مما رأيت .

قال الشاب :

ـ هيا نرجع . لا أحب البقاء فى هذا المستقبل الرهيب لحظة أخرى .

قال الرجل بسخرية :

ـ أنت أيضا تريد العودة ؟ كنت اشترطت قبل قيام الطائرة أن أتركك هنا لتعيش فى المستقبل .

ـ لم أكن أتصور أن المستقبل بهذه البشاعة .

ـ هيا نرجع ، مادامت هذه رغبتكما .

كان الناس الذين لا مأوى لهم مازالوا واقفين وهم نيام . شق الثلاثةطريقهم بصعوبة خلال الأجسام البشرية المتلاحمة . ركبوا الزورق ووصلوا إلى الطائرة التى كانت لاتزال فى انتظارهم على سطح الماء ، وطارت الطائرة عائدة إلى عصرنا هذا مخترقة الزمن فى عكس الاتجاه الأول . فى أثناء الطريق قال الرجل للشاب والفتاة :

ـ سأرجعكما إلى الزمان والمكان اللذين كنتما فيهما ، ولكن عندما نصل سنجد فى انتظارنا هناك سفينة فضاء عملاقة ، سأجمع فيها من كل ناحية من الدنيا عددا من البشر الممتازين الأذكياء ، والحيوانات النافعة ذكورا وإناثا ، وبذور النباتات التى لاغنى عنها .

قال الشاب :

ـ ولماذا كل هذا ؟

ـ ستنطلق بهم سفينة الفضاء العملاقة نحو كوكب جديد قبل أن يأتى الطوفان البشرى ، فى هذا الكوكب الجديد سيكون إنجاب الذرية محكوما بنظام دقيق وتخطيط محكم لايسمح بتكاثر البشر بلا قيد أو شرط حتى لايصبحوا فى النهاية طوفانا مدمرا . هناك سيتلافون الأخطاء التى دمرت الحياة البشرية فى الكرة الأرضية وأبادتها . هل تصحبانى فى هذه الرحلة لنُعَمِّرَ ذلك الكوكب الجديد ؟ .

قالت الفتاة :

ـ لامانع لدى .

وقال الشاب للفتاة :

ـ ويسرنى أن أصحبك إلى أى مكان تكونين فيه .

عام ١٩٧٦

سر الحيـاة

يشعر الإنسان أحيانا بنشوة لايدرى لها سببا ، قد يكون مبعثها عبير زهرة أو ذكرى جميلة تمر على الخاطر ، أو بارقة أمل تومض فى الذهن ، فيتفتح القلب للحياة وتنظر العين إلى الأشياء من خلال منظار وردى يلون كلَّ مافى الوجود بلون بهيج .

فى لحظة من تلك اللحظات ، فى عصر يوم من أيام شهر أغسطس منذ أعوام طويلة عندما كنت خليَّ البال ، كنت جالسا فى شرفة منزلنا وفى يدى مجلة أقلب صفحاتها . كدت أحسد نفسى عندما شعرت بأننى أتمتع بحرية لاتقل عن حرية ذلك العصفور الذى كان واقفا فى تلك اللحظة على حافة الشرفة .

كنت فى عطلتى الصيفية ، لايشغل بالى هم المذاكرة ولا يؤرقنى شبح الامتحان فلقد انتهيت بنجاح من الدراسة الإعدادية للطب ، وعلى الرغم من أننى لم أكن قد بدأت دراسة الطب الحقيقة ، الا أن كل من بالمنزل كانوا عندما يتحدثون عنى مع الغرباء يزينون اسمى بلقب «دكتور» فقد أطلقوا علىَّ هذا اللقب منذ رأونى لأول مرة مرتديا المعطف الأبيض ،

ممسكا المشرط والمقص أقطّع بهما جسدَ ضفدعة مسكينة ساقها سوء طالعها لتكون البرهان الساطع أمام أهل منزلى على استحقاقى لهذا اللقب .

كانت أصابعى وأنا جالس فس الشرفة تقلب صفحات المجلة التى فى يدى ، ولم أجد من الموضوعات مايثير رغبتى فى القراءة ، فطويت المجلة وألقيت بها فوق منضدة كانت أمامى ، فطار العصفور الذى كان ينقر بمنقاره واستقر على حافة شرفة البيت المواجه لمنزلنا ، ونظرت ، فإذا فى شرفة الجيران فتاة فى ربيع العمر ، كنت رأيتها فى المكان نفسه عدة مرات ، ولست أدرى لماذا شعرت فى تلك اللحظة وكأننى أراها لأول مرة ، أخذت أتأملها كما يتأمل الانسان لوحة رائعة ابدع فى صنعها فنان عظيم ، وشجعنى على الاستمرار فى عملية التأمل اعتقادى أنها لاتشعر بوجودى إذ لم تلتق عيوننا مطلقا على الرغم من قصر المسافة التى تفصلنا .

منذ تلك اللحظة لم أعد ذلك العصفور الطليق . لقد حُدِّدَتْ إقامتى فى شرفة المنزل ، أظل طوال اليوم جالسا هناك أنتظر حتى تخرج إلى شرفتها أو تطل من النافذة . فاذا أطلت ، وجدت نفسى مدفوعا إلى النظر إليها بقوة أقوى من ارادتى . صارت بالنسبة لى كأنها الشمس بالنسبة لنبات «عباد الشمس» أدور معها وأتجه إليها كلما تغيّر موضعها ، وكدت أنسى كل شىء عن العالم الخارجى .

أصبحت الشرفة هى دنياى التى أعيش فيها وأطل منها على الفردوس الذى يضم حوريتى . فى صباح أحد الأيام كنت كعادتى بالشرفة وفى يدى كتاب اتظاهر بقراءته ، ولكن عينى كانت متجهة نحو شرفتها كأبرة البوصلة ، كلما اهتزت عادت لتستقر فى الوضع نفسه . أقبلت مرتدية ثوبا أزرق وفى يدها كتاب وجلست تقرأ ، فطويت كتابى وظللت أطالع صفحة

وجهها الجميل . ثم رأيت شفتيها ترسمان ابتسامة رقيقة ، فشعرت بشفتى تقلدانها فى حركة لاشعورية ولكنها لم تر ابتسامتى لأن عينيها كانتا مثبتتين فى كتابها ، فأدركت أن ابتسامتها لم تكن موجهة لى ، ولابد أن شيئا تقرأه هو سبب تلك الابتسامة فتوارت ابتسامتى فى خجل وحمدت الله لأنها لم ترها وبدأت أدرك مدى تطفلى وقلة حيائى . لماذا أظل هكذا محملقا فى وجه فتاة لا أعرفها ولاتعرفنى ؟ ! .

خفت أن تتهمنى بالوقاحة وسوء الخلق ، ولكننى أقنعت نفسى فى الحال بأنه لا داعى لتلك المخاوف إذ ان معبودتى ، لحسن الحظ ، لاتشعر بوجودى ولم تلتفت نحوى ولم تعرنى أى اهتمام فلن يضيرها أن يسعد انسان برؤياها من بعيد وهذا أقصى مايتمناه شاب مثلى مصاب بداء الخجل ولكنه يعشق الجمال .

فى تلك اللحظة حدث شىء عجيب ، رأيتها تطوى الكتاب وتلتفت نحوى فتلتقى عيناى بعينيها لأول مرة . شعرت بتيار كهربائى يسرى فى جسدى ، وأخذ قلبى يدق بشدة فى سرعة ورعونة . حاولت أن أعتدل فى جلستى احتراما لهذه اللفتة الكريمة ولكننى لم أستطع ، أحسست كأن جميع مفاصلى مفككة . الشىء الوحيد الذى أمكنه أن يتحرك هو رأسى . لقد تحرك حركة لاشعورية ووجدتنى أحييها ، فازدادت سرعة دقات قلبى وأصبح كطائر حبيس يرفرف بجناحيه حتى خفت أن ينطلق من صدرى ويطير إليها كالعصفور . غمرنى شعور بالخجل بسبب تلك الحركة الحمقاء ، ولكن لدهشتى وسرورى وجدتها ترد تحيتى بابتسامة أجمل من ابتسامتها السابقة التى ابتسمتها لكتابها ، ثم أسرعت وتوارت داخل منزلها وظللت فترة قصيرة أحملق فى شرفتها الخالية مشدوها ، ثم انسحبت إلى

غرفتى وأخذت أدور فى أنحائها على غير هدى ، وضاقت بى الغرفة فخرجت إلى البهو كانت والدتى جالسة على أحد المقاعد وفى يدها مقص وقطعة من القماش . ظللت أتحرك فى أنحاء البهو حركات بلهاء بلا هدف ، ثم أسرعت بارتداء ملابسى وغادرت البيت .

شعرت بأننى حصلت على شحنة من السعادة تكفينى مدة طويلة ، فلقد صوّرت لى تخيلاتى أن الفتاة أحبتنى ، وكنت أخشى لو رأيتها مرة أخرى أن يحدث مايفسد لذة الأحلام التى أصبحت أعيش فيها ، فآثرت أن أظل متواريا عنها كما يتوارى العنكبوت فى ركن مظلم ، أنسج حول نفسى نسيجا من خيوط الأوهام اللذيذة .

أصبحت لا أنظر إليها إلا متلصصا من وراء مصراع النافذة ، مقاوما العاطفة الملحة التى كانت تدفعنى للخروج إلى الشرفة لتحيتها . انهارت آخر حصون مقاومتى بعد يومين ، فقررت الخروج إلى الشرفة ومواجهة الحقيقة مهما كانت النتائج . أخذت أرسم فى ذهنى طريقة التحية عندما أراها مقبلة فى شرفتها ، هل أحييها برأسى أو بيدى ؟ وهل أظل ناظرا اليها بعد ذلك أو اتظاهر بالاستمرار فى قراءة الكتاب الذى سآخذه معى ؟

استجمعت كل إرادتى وأخذت الكتاب وخرجت إلى الشرفة . تبعثرت جميع ترتيباتى عندما وجدتها جالسة فى شرفتها وبدأتنى هى بالتحية بانحناءة من رأسها تصحبها ابتسامة رقيقة ، فرددت تحيتها فى الحال بانحناءة أكبر وابتسامة أوضح وظللت واقفا أنظر اليها مبتسما كالأبله ، ثم تذكرت أن فى الشرفة كرسيا ينبغى أن أجلس عليه فجلست . ظللت أعبث بأوراق الكتاب الذى فى يدى ولا أجرؤ على النظر اليها من جديد ، ولم ينتزعنى من هذا الوضع المخجل سوى شىء وجدته يسقط أمامى فى الشرفة . إنه مظروف خطاب ، ورأيت الفتاة تهرول إلى غرفتها وتغلق باب الشرفة .

تناولت الخطاب بيدين مرتعشتين . إنها تطلب منى فى خطابها أن أنتظرها فى مساء الغد فى مكان حددته ، فتصبب العرق من جبينى . إن الأمور تسير بسرعة مذهلة قبل أن أهيىء نفسى لها . شعرت فى هذه اللحظة كأننى كنت أسير فى صحراء لازرع فيها ولاماء ، ثم ظهرت أمامى بغتة واحة بها قصر كبير وفتحت لى أبواب القصر ، وحملنى الخدم على هودج وأجلسونى فوق عرش من ذهب وقالوا لى : هذا القصر لك بكل مافيه ومن فيه .

فى مساء اليوم التالى تقابلنا فى المكان المحدد وأخذت أتأمل كيف أبدع الخالق فى صنع هذه التحفة الجالسة جنبى ويدى فى يدها . كنت أخشى أن أكون فى حلم ، فضغطت على يدها محاولا إقناع نفسى بأن ما أراه حقيقة لاخيال ، ورأيت عينيها بوضوح لأول مرة ، عينان زرقاوان تظللهما أهداب طويلة كأنها تصد عنها النظرات .

كان اسمها «ليلى» فأصبحت منذ ذلك اليوم «مجنون ليلى» وظللنا نتقابل كلما سنحت الفرصة . كنت أترقب لقاءها بفارغ الصبر ، حتى إذا تلاقينا نسيت الدنيا ونسيت الزمن ، وأصبحت هى بالنسبة لى الماضى والحاضر والمستقبل .

ومابين لقاء وانتظار لقاء ، مرت أيام الأجازة سراعا دون أن أشعر بمرورها وأفقت من نشوتى فإذا بى أمام العام الدراسى الجديد ، فكنت كجندى فى الميدان أخذته سنة من النوم فى لحظة هدوء رأى فيها حلما جميلا ، ثم استيقظ بغتة على صوت قذف القنابل .

كان علينا فى هذا العام الدراسى أن نبدأ تشريح الجسم الآدمى . وفى مشرحة الكلية كنت أمضى الساعات الطوال مع زملائى وزميلاتى نقلب فى

الجثث التى تفوح منها رائحة الفورمالين ، واعتدنا رؤيتها حتى أصبحنا ننظر اليها كما كنا ننظر إلى الضفادع والأرانب التى كنا نقوم بتشريحها فى السنة الإعدادية بكلية العلوم .

كنا نقطع الجثث ونتتبع شرايينها وأوردتها وأعصابها ، ونفتح الجماجم وندرس أجزاء المخ وتلافيفه . فى مرة من هذه المرات كان أمامى مخ آدمى ، وغلبت علىَّ طبيعتى الفلسفية ، فنظرت اليه ولم أجد فرقا بينه وبين أمخاخ الخراف التى رأيتها فى الصباح مرصوصة على منضدة الجزار ، وأخذت أفكر وعينى مثبتة على هذا الشىء الضئيل الذى لم يعد يشعر بوجوده . كان فى يوم من الأيام تدب فيه الحياة ، الحياة نفسها التى تدب الآن فى جسدى ، يفرح ويتألم ، يفكر ويدبر ، ينسى ويتذكر ، يخاف ويتشجع ، يحب ويكره ، يصحو وينام ! .

وكنت مستعدا للاسترسال فى مثل تلك التأملات حتى نهاية الدرس ، لولا أحد الزملاء الذى انتزعنى منها عندما اختطف المخ الذى أمامى وشطره شطرين كما نشطر قطعة الزبد ، وأخذ يتأمل أجزاءه ويدرس تفاصيله مستعينا بكتاب التشريح المفتوح أمامه ثم شرد ذهنى فى شىء جميل أخذ يطارد تلك الأفكار القاتمة تذكرت أن اليوم يوم الخميس وأننى على موعد فى المساء مع ليلى .

فى المساء جلست معها نتناول قدحا من الشاى فى الحديقة التى تقابلنا فيها أول مرة . شعرت بأن حياتى قد أصبح لها هدف أعيش من أجله ، وأن ليلى هى النور الذى كشف أمام عينى جمال الدنيا وبهجتها . وفى غمرة نشوة الحب التى فاض بها قلبى تعاهدنا على الزواج ، ووعدتنى بأنها سوف

تنتظرنى حتى أنتهى من دراستى ولن يهفو قلبها لرجل غيرى مهما طال الزمن .

فى الأسبوع التالى ، وجدت نفسى من جديد بين جدران المشرحة تحيط بى الجثث من كل جانب . عند ذلك حدث شىء زلزل كيانى وجعلنى أنتفض كالمحموم .

وجدت على المشرحة جثة فتاة فى مقتبل العمر . جثة عارية كباقى الجثث يمر عليها زملائى وزميلاتى وينظرون إليها ببلادة وعدم اكتراث . كانت مفتوحة العينين وعلى فمها شبه ابتسامة ، رائعة الحسن ، لم يستطع الموت أن ينال من جمالها ، ولولا وجودها فى هذا المكان البشع لظنها الرائى عذراء استلقت فى دلال على رمال الشاطىء !

كانت فى مثل سن ليلى ، وكان التشابه بينهما كبيرا حتى إننى اندفعت نحوها كالمجنون أتفرس فى وجهها حتى تأكدت أن الجثة لفتاة أخرى . ولكن الشىء الذى روعنى هو أن عينيها كانتا صورة طبق الأصل من عينى ليلى ، تلك العيون الزرق الصافية . كان أحد زملائى منهمكا فى عملية استخراج إحدى العينين من محجرها لدراستها .

لم تحتمل أعصابى رؤية ذلك المشهد ، فشعرت بدوار وغادرت المشرحة على الفور وذهبت إلى مقصف الكلية حيث تناولت قدحا من الشاى . بعد نحو ساعة رجعت إلى المشرحة ، وعلى الرغم من رغبتى فى تجنب منظر جثة الفتاة وجدت نفسى منجذبا نحوها .

كان زميلى مازال مستمرا فى عملية استخراج العين ، فوقفت بجواره أتأمله حتى انتهى من العملية ، رأيت تلك العين الجميلة الزرقاء وقد

تحولت فى يده إلى كرة صغيرة يعبث بها بمشرطه ، وحانت من زميلى نظرة خاطفة نحوى فهاله أن رآنى شاحب الوجه أتصبب عرقا . فاقترب منى وسألنى بسخرية :

ـ ماذا دهاك ؟ مابك ؟ ألم تعتد مثل هذه الأشياء حتى الآن ؟

ارتعشت شفتاى ولكننى لم أستطع النطق بكلمة واحدة . كان بصرى لايزال مثبتا فى العين التى فى يده ، تلك العين التى كانت ساحرة . تركنى زميلى متسمرا فى مكانى واستمر فى فحص العين فشطرها شطرين ، ثم أخرج عدستها ورأيت الحدقة الزرقاء وقد تحولت إلى شىء أشبه ببقعة الحبر ، شىء لا روعة فيه ولا جمال .

عند ذلك بدأت أشعر بدوار ، ورن فى أذنى صوت ضوضاء كأنها صدى لصوت بعيد ، وحاولت الاستناد على المنضدة المجاورة ، ثم غبت عن وعيى .

عندما أفقت وجدت نفسى ممداً على سرير فى إحدى غرف المستشفى وبجوارى طبيب وممرضة وبعض الزملاء .

بعد عودتى إلى البيت اعتكفت فى غرفتى وأغلقت نوافذها ، اذ لم أشعر برغبة فى رؤية أى انسان .

كانت والدتى أول من رأيت . اكتشفتُ أن شيئا فى كيانى قد إهتز هزة عنيفه عندما اقتربت منى ونظرت إلىّ بحنان فأشحت بوجهى عنها . لقد ارتجفت عندما التقت عيناى بعينيها ، أصبحت أخاف من النظر إلى العيون ، حتى عينى أمى ! استبدتْ بى رغبة شديدة فى رؤية خطيبتى ليلى ، فانتهزت فرصة خروج والدتى من غرفتى وانشغالها فى المطبخ ، وخرجت إلى الشرفة وانتظرت قدوم ليلى وحيتنى بابتسامتها الرقيقة ، وما أن التقت

عيوننا حتى أصابتنى الرجفةنفسها ، لقدأفزعتنى نظراتها ، تلك النظرات التى طالما تمنيتها . هاتان العينان اللتان طالما سحرنى جمالهما واستهوتنى زرقتهما الصافية لم أعد أجد فيهما أى سحر أو جمال . إنهما الآن فى نظرى مجرد كرتين تطلان علىّ من فجوتين فى الجمجمة تتكون كل منهما من عدة طبقات وتنتهى بالعصب البصرى ، ممتلئة بسائل لزج ، وعلى حافتها بقعة زرقاء كنقطة الحبر يتوسطها ثقب ينفذ الضوء من خلاله ليمر من العدسة ويسقط على الشبكية فى قاع الكرة حيث تتكون الصورة التى ينقلها العصب البصرى إلى المخ لتتحول إلى جسم مرئى .

حاولت السيطرة على نفسى ، ولكننى شعرت بقطرات العرق وقد بدأت تنحدر من جبهتى ، فانسحبت من الشرفة ودخلت غرفتى وأغلقت بابها وتركت ليلى ناظرة نحوى مشدوهة .

أصبحت حياتى خاوية لابهجة فيها ولاهدف لها . كنت أحيا لا لأننى أرغب فى الحياة ، ولكن لأننى أرهب الموت ! لقد فقد جسد الأنثى فى نظرى كل ما كنت أراه فيه من سحر وجمال . كنت كمن استهوته واستولت على لُبّه لعبة بارعة يقوم بها أحد السحرة ، ثم عرفت سر اللعبة ففقدت إعجابى بها !

صرت كلما نظرت إلى إنسان أشعر كأن عينى تخترق جسده كما تخترق الأشعة السينية الأجسام التى تسلط عليها . أصبح كل انسان فى نظرى لايزيد على مجموعة من العظام والعضلات والاعصاب والشحم والجلد ، تتحرك أعضاؤه تبعا لحركة العضلات المسيطرة عليها ، وينتشر فى جسده عدد من الأوعية الدموية التى يدور فيها الدم ، وعدد من الغدد التى توالى افرازها ، ومعدة تحتوى على غذاء وعصارة معدية ومتصلة بالأمعاء

وملحقاتها . هذا هو ما أصبحتُ أراه فى أى جسد بشرى حتى ولو كان جسد أجمل امرأة فى الوجود ! ظلت هذه التصورات تطاردنى كأنها أشباح مرعبة لا أستطيع الهروب منها ، وانقطعت صلتى بليلى إذ لم أعد أرى فيها مايستهوينى . كنت كلما رأيتها مصادفة يرتجف جسدى وأفر منها هاربا . أصبحت عيناها ترعبنى !

بدأت أهمل دراستى وأجلس فى قاعة المحاضرات مشتت الفكر لا أكاد أعى شيئا مما ينطق به الأستاذ ولا أقوى على تتبع مايقول ، ولم يكن يشغل ذهنى فى أثناء المحاضرة سوى متابعة حركات الأستاذ وتفسيرها من الوجهة التشريحية فإذا رفع يده أو تحرك خلف المنصة أحاول معرفة أسماء العضلات التى سببت هذه الحركات ، وأتصور حركات قلبه ورئتيه ، وأتخيله مرة عاريا ومرة كأنه هيكل عظمى !

فى مساء أحد الأيام بينما كنت سائرا فى أحد شوارع المدينة شارد الذهن إذا بى أجد نفسى أمام ليلى وجها لوجه ، أو عينا لعين ! حاولت الاختباء منها ولكننى لم أستطع ، إذ أقبلت نحوى مبتسمة ابتسامة حزينة ، فاضطررت للوقوف والتحدث معها . بدأت تعاتبنى على إهمالى إياها ذلك الإهمال المهين ، فدعوتها لتناول فنجان من الشاى فى الحديقة التى كنا نتلاقى فيها .

جلسنا فى ركن منعزل ، وظللت برهة صامتا لا أجد ما أقوله حتى أخرجتنى هى من صمتى عندما قالت بصوت متهدج :

ــ هل أسأت إليك دون أن أدرى ؟

ــ وهل هذا معقول ؟

ـ اذن لماذا أصبحت تتحاشى رؤيتى وتشيح بوجهك عنى كلما حاولت النظر اليك ؟ لماذا تهرب منى ؟

لم أستطع العثور على رد مقنع لسؤالها هذا ، فأطرقت إلى الأرض ولم أجب ولاحظت أنها تبذل جهدا كبيراً لتبدو محتفظة بهدوئها ، ثم وضعت يدها على المنضدة وأخذت تعبث بأصابعها فى حركة عصبية . اتجه فكرى على الرغم منى إلى حركات أصابعها ، إن سببها انقباض بعض العضلات وانبساط عضلات أخرى ثم امتدت يدها وتناولت فنجان الشاى وارتشفت منه رشفة ، فوجدت نفسى أتتبع سير هذه الجرعة فى المرىء ثم دخولها المعدة . ونظرت إلى أنفها الجميل فتسلل تفكيرى إلى جيوب الأنف والقصبة الهوائية وحركات الضلوع والحجاب الحاجز ، وكنت كلما نظرت إلى عينيها تصيبنى الرجفة نفسها ، واستولى علىّ شىء من الفزع ولكنه تلاشى عندما أقبل بعض الشبان والفتيات يتحدثون ويضحكون ويجلسون حول المنضدة المجاورة لنا .

نظرت إلى عينى ليلى ، فوجدت الحزن يطل منهما والدموع تترقرق فيهما لاحظت فى هذه المرة أن نظراتها لم تضايقنى . كانت عيناها مثبتتين فى عينى وكأنهما تتحدثان إلى ، وترامت إلى سمعنا فى هذه اللحظة نكتة بارعة كان يحكيها أحد الشبان حول المنضدة المجاورة ، ويبدو أن النكتة أعجبت ليلى فابتسمت ورأيت عينيها تبتسمان .

عند ذلك ، شعرت بشىء يسرى فى جسدى ، إحساس كنت قد فقدته . بدأت أدرك الفرق الكبير بين عينى الجثة التى رأيتها فى المشرحة وعينى ليلى . قد يكون الشكل والتركيب متشابهين ، ولكن هناك فرقا بين العيون الميتة والعيون التى تدب فيها الحياة . رأيت فى عينى ليلى أشياء

لاتوجد فى العيون التى فى المشرحة ، إنها الحياة : الحزن ، الفرح ، الدموع ، الألم ، أشياء لايمكن أن يراها الإنسان فى عيون الموتى ، فأدركت أننا لانعشق تركيب العين ولكننا نعشق الحياة التى تدب فيها . كما أننا لانحب الجسد وكأنه مجموعة من الآلات ولكننا نحب الروح التى تمنحه الأحاسيس والفكر والحركة والخيال والعاطفة ، وأدركت أن للحياة سرا يسحرنا ويستهوينا أودعه الله فى أعماقنا ووضعه على قمة غرائزنا منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض لكى تستمر الحياة جيلا بعد جيل .

أخذت يد ليلى فى يدى وضغطت عليها ، وشعرت كأن قلبى قد بدأ يخفق من جديد وقد تفجر فيه ينبوع الحب الذى كنت حسبته قد نضب ، وسرى فى جسدى تيار الحب مع دقات قلبى .

عام ١٩٥٩

الزنبقة المسكينة

لا أحد يدرى كيف حشرت بذرة الزنبق هذه بين بذور البرسيم ، لقد ظلت فترة من الزمن تائهة بين تل من بذور البرسيم تنتظر اليوم الموعود الذى سيفرج عنها فيه فتتفتح أكمام زهرتها فى روضة فيحاء كتلك التى عاشت فيها أمها ، حيث تتعهدها برعايتها وترويها بحنانها نفوس شاعرية رقيقة تعشق الحسن وينعشها الجمال .

فى صباح أحد الأيام حضر واحد من الفلاحين لشراء قدحين من بذور البرسيم بيذرها فى حقله فوضعت بذرة الزنبق فى الكيل ظلما .

ترى هل وضعوا معى كل بذور البرسيم هذه خطأ ؟ وهل سأظل طوال حياتى بغير صديق أو رفيق من أهلى وعشيرتى وبنى جنسى ؟ هل ستطيب لى عشرة جيرانى من شجيرات البرسيم ؟ ان البرسيم لا يألف الزنبق .

فى هذه الأثناء كان الفلاح يحمل تحت إبطه تلك البذور متجها نحو حقله ليبذرها . نثرت البذور فى الحقل ورويت الأرض فنمت وترعرعت وأصبح لها جذور تربطها بالأرض وسيقان تتمايل مع الرياح ، وفى أطراف السيقان أطلت البراعم وتفتحت فبدت الأزهار للعيون ،آلاف من أزهار البرسيم وزنبقة واحدة .

ذات صباح ، صحت الزنبقة من نومها على أثر حلم جميل ، فنفضت عنها الندى وانطلقت تغنى أغنية رائعة سمعتها من أمها عندما كانت جنيناً بين ثنايا الزهرة التى يحملها ساق أمها . عندما انتهت من غنائها نظرت حولها لترى الأثر الذى احدثته أنشودتها ، فرأت أزهار البرسيم تشيح بوجهها عنها وسمعت زهرة برسيم تقول لرفيقتها :

ـ ماهذا الصوت البغيض ؟ إننى لم أسمع أقبح منه .

فنكّست الزنبقة رأسها حزنا وخجلا وبكت وسألت نفسها :

ـ ترى هل صوتى قبيح إلى هذا الحد ؟ ألا تطيق سماعه أزهار البرسيم ؟

إنها تذكر صوت أمها عندما كانت تغنى مع الفجر فيحمل النسيم أغانيها إلى زميلاتها أزهار الزنبق فتهتز لها طرباً ويصفقن بوريقاتهن استحسانا . وهى تعلم أن صوتها أجمل من صوت أمها فلماذا تنفر منه أزهار البرسيم ؟ واستمرت تبكى .

داعبها النسيم وفاح أريجها المنعش ، فانكمشت أزهار البرسيم التى لم يعجبهاعبير الزنبق ، وتراقصت فوق وريقات الزنبق قطرات صغيرة يظنها الرائى قطر الندى وماهى إلا قطرات الدموع .

فى أحد الأيام شعرت الزنبقة بالماء يبلل ساقها ونظرت فوجدت الحقل غمرته المياه يعد جفاف وحانت منها التفاتة فرأت صورتها فى الماء تهتز مع النسيم وأخذت تقارن بين جمالها وقبح أزهار البرسيم .

وبينما هى شارده الذهن تندب حظها وتلوم الأيام السود التى أجبرتها على البقاء فى هذا الحقل ، سمعت حفيفا بجوارها التفتت خائفة نحو

مصدر الصوت فشاهدت فراشة بديعة الألوان لم تر أجمل منها . هبطت الفراشة فوق زهرة الزنبق فتعجبت وتساءلت لماذا ياترى اختارتها الفراشة وتركت كل أزهار البرسيم ؟ ثم سمعت الفراشة تهمس بين طيات وريقاتها ببضع كلمات لم تتبينها فى بادىء الأمر ، وأخيرا سمعتها تقول :

ــ أيتها الزنبقة ، جئت أنبهك إلى خطر جسيم يهدد حياتك . انظرى إلى ساقك ، ألم تلاحظى شيئا غريبا ملتفا حوله ؟

نظرت الزنبقة إلى ساقها وإذا بشجيرة قد التفت حول الساق . قالت الفراشة :

ــ احذرى هذه الشجيرة . ان البرسيم يتآمر على قتلك ، وقد أغروا شجيرة العليق هذه بالالتفاف على ساقك ، وستظل تنمو وتلتف وتمتص عصارة حياتك حتى تنضب وتموتى هنا وحيدة فى حقل من البرسيم .

ارتعدت الزنبقة وقالت للفراشة :

ــ وما العمل ؟ إننى لاحول لى ولاقوة ولاأملك لشجيرة العليق هذه دفعا وسوف أستسلم لقضاء الله حتى أستريح من تلك الحياة القاسية التى أحياها هنا بين قوم لايحبوننى ولايعرفون قدرى .

قالت الفراشة :

ــ مهلا أيتها الزنبقة الجميلة ، لاتيأسى سريعا هكذا ، سوف أتعاون مع صديقة لى ونفك وثاقك .

طارت الفراشة وعادت ومعها فراشة أخرى فى مثل جمالها وأمسكتا بطرف شجيرة العليق وظلتا تدوران حول ساق الزنبقة حتى خلصتاها من ذلك العدو الرهيب .

شعرت الزنبقة بالراحة ، ولكن عندما حل الظلام لم تنم كعادتها وظلت طوال الليل تبكى وتحدّث نفسها .

حقا أن الشقاء والسعادة أمران يحيران الألباب ، فهأنذا شقية مسكينة فى حقل من البرسيم ، وكم أكون سعيدة لو انتقلت إلى بستان من الزنبق ، فالجمال لايجلب السعادة فى أرض لاتدرك معنى الجمال ، فها هى ذى شجيرات البرسيم سعيدة على قبحها ولا شىء يهدد سعادتها سوى وجودى بينها . إن أشقى ما فى الوجود أن يجد الكائن الحى نفسه مجبرا على الحياة مع من لايعرف قدره .

وعادت تبكى من جديد . وعندما بللها الندى فى الصباح مسح دموعها فنسيت أحزانها وتفتحت للحياة وهمت بالغناء ولكن أغنيها احتبست فى حلقها ولم تخرج إذ تذكرت أن البرسيم لن يطرب لغنائها . وعندما هزها النسيم طوت أوراقها حتى لاينبعث عبيرها فيؤذى البرسيم . وعلى مر الأيام أخذت تنسى أغانيها ويجف عبيرها .

نشأت بين الزنبقة والفراشة صداقة ومحبة ، فكانت الفراشة تحرص على زيارتها كل صباح لتقول لها :

ـ صباح الخير .

فتجد الزنبقة شاردة النظرات . وفى أحد الأيام قالت الزنبقة للفراشة .

ـ أليس فى الإمكان أن انتقل من حقل البرسيم هذا إلى حديقة جميلة كتلك التى كانت تعيش فيها أمى ؟

ـ هذا مالا حيلة لنا فيه . لقد قضى الله أن تعيشى وتموتى فى هذا الحقل ولارد لقضائه . ولكننى سأبذل كل ما فى وسعى للترفيه عنك وتخفيف آلام وحدتك فى ذلك الوسط الكريه . سأجمع أصدقائى وصديقاتى الفراشات ونرقص حولك كل يوم حتى مغيب الشمس ، فعبيرك

ينعشنا واغانيك العذبة تبعث فينا الأمل ، فغنى لنا وانشرى أريجك الحلو ولاتلقى للبرسيم بالا فهو لايطرب الا لقبيح الأصوات ولاتنعشه سوى الروائح العفنة .

بدأ النشاط يدب فى الزنبقة وصارت تغنى كل صباح على إيقاع رقصات الفراشات التى تحوم حولها وانبعث عبيرها يعطر الجو .

قالت الزنبقة للفراشة :

ـ أجميلة أنا حقا أم قبيحة ؟ احترت فى أمر نفسى . من يثبت لى أننى أجمل من فى الحقل كما تقولين ؟ هل من المعقول أن أكون أنا وحدى الجميلة وتكون كل أزهار البرسيم هذه هى القبيحة ؟ حدثينى أيتها الفراشة ولاتخفى عنى شيئا .

ـ ستبدى لك الأيام كل شىء ، فلا شىء يخفى مع مرور الأيام .

فى عصر أحد الأيام هب النسيم المنعش يداعب ساق الزنبقة فاستخفها الطرب وأخذت ترقص مع النسيم ، وحانت منها التفاتة نحو الطريق الزراعى المجاور للحقل فرأت سيارة أنيقة تقف وتهبط منها ثلاث فتيات حسان ، تركن السيارة واتجهن نحو حقل البرسيم .

بغتة أبصرت الفتاة الصغرى زهرة الزنبق تطل فى خجل من بين أزهار البرسيم ، فانطلقت تعدو نحوها . شعرت الزنبقة بنشوة السعادة .

لماذا اتجهت الفتاة نحوى أنا بالذات واختارتنى من بين أزهار الحقل ولم تهتم بأزهار البرسيم ؟

أقبلت الفتاة نحو زهرة الزنبق وانحنت عليها وقطفتها وعلى الرغم من الألم الشديد الذى شعرت به الزهرة وهى تفصل عن عودها وتفارقه إلى الأبد ، فلقد انساب فى جميع خلاياها شعور جارف بالسعادة وبدأت تدرك

أنها لابد أن تكون أجمل مافى الحقل والالما اختارتها الفتاة الجميلة من بين جميع الأزهار .

عندما ضمتها الفتاة إلى صدرها نظرت الزنبقة إلى الساق الذى فصلت عنه وودعته بدمعة صافية امتزج فيها الالم بالفرح ، وأخذت الدنيا تغيم فى عينيها وهى تودع الحياة ، وكان آخر ما شهدته ذلك الحمار الذى انطلق نحو الحقل يلتهم البرسيم بشراهة .

عند ذلك ، اقتنعت اقتناعا تاماً بأنها أجمل مافى الحقل ، واعتقدت أنها خلقت لتزدان بها صدور الحسان ، وعرفت أن البرسبم ماخلق إلا لتأكله الحمير ، ثم اسلمت الروح على صدر الفتاة .

عام ١٩٥٧

هروب فى الفجـر

ـ أنا لا أدرى مايدعو لترك منزلنا والذهاب إلى القرية . جميع الناس هنا فى منازلهم لم يغادروها ، ومايجرى للناس يجرى لنا .

ولكن فتحى لم يعجبه رأى زوجته ، وطلب منها ومن ابنه حمدى وابنته هدى أن يستعدوا للسفر بعيدا عن الإسكندرية .

جلس ابنه متوتر الأعصاب وهو ينصت للحديث الدائر بين والده ووالدته وعندما نفد صبره التفت إلى والده وقال :

ـ الأعمار بيد الله ، وليس هناك ما يدعو لترك البيت ، لماذا لا نعيش هنا كما يعيش الناس ؟

نهره والده قائلا :

ـ اسكت ، أنت حمار لاتفهم شيئا ، إنك تنحاز دائما لرأى أمك ولكن لا أنت ولا والدتك تقدران عاقبة الأمور . هل نظل هنا ونعرض حياتنا للخطر ؟ الإسكندرية ستضرب بالقنابل . المعتدون علينا ثلاث دول لا دولة واحدة . ستصبح الاسكندرية أنقاضا ، فهل من الحكمة أن نظل هنا حتى نموت تحت الأنقاض ؟

ـ إن شاء الله يا بابا لن يكون هنا أى خطر .

قال والده بانفعال شديد :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟ هل اطلعت على الغيب ؟

قالت الزوجة :

ـ فى حالة سفرنا للقرية ، هل ستظل معنا هناك أم ستعود إلى الإسكندرية وتبقى بمفردك فى البيت ؟

ـ سأبقى معكم فى القرية حتى يزول الخطر .

وأعمالك وتجارتك ، هل ستغلق المحل ؟

ـ أجل ، سأغلقه إلى أن تنتهى الحرب . المال متوفر لدينا والحمد لله ، والحياة أغلى من كل شيء .

فى هذه اللحظة انطلقت صفارة الإنذار فانتفض الأب قائلا :

ـ لابد من السفر إلى القرية ، أطفئوا الأنوار ، ألم تسمعوا صفارة الإنذار .

أسرع حمدى وأطفأ الأنوار ، والتفت الأب فرأى ابنته هدى تنظر من النافذة فصاح قائلا :

ـ اقفلى النافذة وابتعدى عنها . أمجنونه أنت ؟

أقفلت هدى النافذة وجلست مكتئبة مطرقة إلى الأرض .

وهدى مازالت طفلة فهى فى نحو الرابعة عشرة ، تحب الموسيقى وتنظم الشعر ، ذات عينين خضراوين وشعر ناعم كالحرير تنحدر منه خصلة فوق جبين ناصع البياض ، أما حمدى ففى نحو الثامنة عشرة ، حصل فى الثانوية العامة على مجموع قدره ٨٦,٤ فى المائة . فى عينيه بريق الذكاء . كانت أمنيته دائما أن يصبح مهندسا معماريا ، فالتحق بكلية الهندسة .

انطلقت صفارة الأمان ، فأضيئت الأنوار فى المنازل بينما بقيت الشوارع فى ظلام حالك . قامت هدى تبحث عن قطتها ، أما حمدى فقد فتح النافذة وخرج إلى الشرفة يطل منها وقال :

ـ أنا لا أحب الظلام .

لم تعثر هدى على قطتها ، فظلت تبحث عنها بعصبية وارتباك ، وأخيرا وجدتها قابعة فى أحد الدواليب بين الملابس فى كسل ولا مبالاة وعيناها تلمعان وكأنهما بطاريتان دقيقتان . أخذت هدى القطة وأحضرت لها سمكة صغيرة من الثلاجة ، فقفزت القطة والتهمت السمكة .

ذهبت هدى إلى غرفتها وأمسكت الجيتار تداعب أوتاره واستأنفت الزوجة رسم المناظر الطبيعية الجميلة التى كانت تصنعها بخيوط الصوف فوق قطعه من القماش . قالت الزوجة وهى منهمكة فى رسم جذع شجرة :

ـ اذا سافرنا إلى الريف ، كم من الأيام سنقضيها هناك ياترى ؟

ـ نظل هناك حتى تنتهى الحرب .

ـ لانعلم متى تنتهى الحرب ، قد تطول .

ـ تطول أو لاتطول سنبقى فى الريف حتى تنتهى . الدراسة معطلة فى المدارس والجامعات ولا داعى لوجودنا هنا .

ـ وهل أنت متأكد من أن الإسكندرية ستضرب بالقنابل ؟

ـ لاشك فى ذلك ، يجب أن نغادرها بأسرع مايمكن . أنا مسئول عن أرواحكم ومن واجبى إبعادكم عن مواطن الخطر .

ـ ومتى نسافر ؟

ـ غدا فى الفجر .

ـ ولكننا لم نستعد للسفر ، وفترة إقامتنا فى الريف قد تطول .

ـ أمامنا فسحه من الوقت من الآن حتى الصباح . اتركى هذا الذى فى يدك وقومى لتعدى كل مايلزمنا . لن نحتاج إلا لبعض الملابس .

قامت الزوجة وأحضرت ثلاث حقائب ، وبعد نحو ساعة كانت الحقائب قد امتلأت بالملابس وبعض الأشياء الضرورية الأخرى . قالت هدى :

سآخذ الجيتار معى .

قال الأب بانفعال :

لا داعى للجيتار ، أهذا وقت العزف على الجيتار ؟

جلست هدى وأطرقت إلى الأرض حزينة ، فقالت الأم :

ـ ولماذا لاتأخذ الجيتار معها ؟ سيكون تسليتها الوحيدة فى تلك القرية الموحشة .

قال الأب ومازال منفعلا :

ـ لامانع ، فلتأخذه .

فرحت هدى وتذكرت القطة ، فقالت بعد تردد .

ـ والقطة ، ألن نأخذها معنا ؟

انتفض الأب وقال بغضب :

ـ السيارة صغيرة ولاتتسع لكل هذه الأشياء ، أتظنينها سفينة نوح ؟

قالت هدى وهى على وشك البكاء ؟

ـ ستموت القطة لو تركناها .

قال الأب منفعلا :

ـ تموت فى ستين داهية .

تدخلت الأم قائلة :

ـ القطة لن تشغل حيزا كبيرا فى العربة ، فهى ليست جاموسة ولابقرة .

ـ صاح الأب قائلا :

ـ خذوا ماتريدون ولاتشغلونى بمثل هذه التوافه ، دعونى أفكر فيما هو أهم .

كان حمدى لايزال واقفا فى الشرفة يتأمل العربات وهى تتحسس طريقها فى الشارع المظلم ، وبغتة سمع صوت تصادم وضوضاء غير واضحة الكلمات .

صاح الأب من الداخل قائلا :

ـ ماذا حدث ؟

قال حمدى بهدوء :

ـ يبدو أن سيارتين تصادمتا .

هُرع الأب إلى الشرفة وأسرعت خلفه الأم وهدى ووقف الجميع يحاولون رؤية العربتين المتصادمتين . قال الأب :

ـ ناس مجانين ، ينطلقون بعرباتهم فى الظلام بسرعة متهورة . معظم الحوادث بسبب السرعة التى لا داعىَ لها .

ترك الأب والأم الشرفة ودخلا ، أما حمدى وهدى فظلا ناظرين نحو مكان التصادم . صاح الأب من الداخل قائلا :

ـ ادخل ياحمدى . ادخلى ياهدى . ادخلا واقفلا باب الشرفة .

أسرعا بالدخول وأقفل حمدى باب الشرفة ، ونام الجميع .

استيقظ الأب من نومه على صوت صفارة الإنذار ، فأيقظ زوجته بعنف قائلا :

ـ قومى بسرعة ، غارة جوية .
قفزت الزوجة من فراشها مرعوبة . قال الزوج :
ـ سأذهب لأوقظ الأولاد .
ـ ولماذا توقظهما ؟ لاتفزعهما ، دعهما نائمين .
صاح غاضبا :
ـ أنسيتِ أننا سنسافر هذا الصباح ؟
ـ كم الساعة ؟

ـ أربعة وربع . هيا استعدوا جميعا للسفر ، سنغادر الاسكندرية عقب انتهاء الغارة الجوية فورا . سآخذ معى هذه الحقيبة الكبيرة وأذهب إلى الجراج لاعداد العربة .

عندما انتهت الغارة الجوية كان الأب منتظرا بسيارته أمام البيت . نزلت الزوجة وبصحبتها حمدى وهدى . كانت الأم تحمل فى يدها حقيبة صغيرة ويحمل حمدى حقيبة أكبر ، أما هدى فكانت تحمل فى إحدى يديها سلة وضعت فيها القطة وباليد الأخرى تحمل الجيتار .

وبينما هم يهبطون السلم قفزت القطة من السلة وانطلقت تعدو أمامهم ، فوضع حمدى الحقيبة التى فى يده على السلم وجرى خلف القطة فأمسكها ووضعها فى السلة واتجهوا جميعا نحو العربة .

فى ضوء الصباح الباكر ، جلس الأب خلف عجلة القيادة وبجواره زوجته وفى المقعد الخلفى جلس حمدى وجنبه هدى وقد وضعت السلة التى فيها القطة تحت قدميها وأمسكت الجيتار بقوة ، وانطلقت العربة .

كانت المدينة هادئة والشوارع تكاد تكون خالية من العربات والمارة

ووقفت العربة أمام إحدى محطات البنزين فتزودت بالوقود ونفخت إطارات العجلات واستأنفت العربة انطلاقها .

قال الأب :

ـ بدأت أعصابى تهدأ . لقد تركنا المدينة بصفارات إنذارها وغاراتها الجوية .

فى هذه اللحظة كانت العربة تنطلق فى الطريق الزراعى الممتد بجوار احدى الترع ، وكان الطريق خاليا إلا من بعض سيارات النقل التى كانت تمر من آن لآخر .

كانت إحدى عربات النقل الضخمة تسير خلف السيارة ، ووجد الأب نفسه بغتة جنب تلك العربة التى انحرفت لتصبح أمامه ، أراد أن يتفاداها فاختلت فى يده عجلة القيادة وفى مثل لمح البصر كانت السيارة التى تحمل هذه العائلة تغوص فى مياه الترعة بكل من فيها ومافيها .

عندما اكتشف الفلاحون تلك العربة الغارقة تجمعوا على شاطىء الترعة بالقرب منها ، ثم أسرعوا يحاولون إنقاذ أفراد العائلة .

صاح أحد الفلاحين وهو يسبح حول العربة قائلا :

ـ لافائدة . لاحول ولاقوة الا بالله . لقد ماتوا جميعا .

كان الأب منكفئا فوق عجلة القيادة وبجواره زوجته وقد استندت برأسها على كتفه . أما حمدى فقد كان ملقى فى أرض العربة وبجواره الجيتار ، وكات هدى مائلة بجسدها فوق جسد أخيها محتضنه القطة .

أخرجت الجثث الأربع ، وكان رجال الشرطة قد هرعوا إلى مكان الحادث .

نظر أحد رجال الشرطة إلى البطاقة التى وجدها فى جيب الأب وقال : وقد لمعت الدموع فى عينيه .

مساكين ، رحمة الله عليهم ، إنهم من مدينة الإسكندرية .

عام ١٩٧٣

بندقيـــة

أصوات المدافع تدوى من بعيد ، وطلقات الرصاص تطغى على صيحات الطيور المذعورة ، ورائحة البارود تملأ المكان . كان منهوك القوى يحمل فى يده بندقية سريعة الطلقات وخلف ظهره مخلاة ، وعلى كتفة وصدره شريط ملىء بالرصاص ، يجر ساقيه بصعوبة لجرح فى قدمه .

اندفعت الكتيبة تجرى متسلقة تلا مرتفعا ووجد نفسه فى المؤخرة . وصلت الكتيبة إلى قمة التل ثم بدأت تنحدر على الجانب الآخر حتى غاب عن بصره آخر جندى فيها . تلفت فى كل اتجاه . لقد تركه الجميع ولم يعد يرى أحدا أو يراه أحد . أصبح صوت اطلاق الرصاص يصل إلى أذنيه خافتا ثم تلاشى الصوت تدريجيا ولم تعد تلتقط أذناه سوى أصوات الطيور التى تنبعث من الغابة القريبة منه . جلس على الأرض وأخرج من مخلاته علبة من الصفيح فتحها وابتلع محتوياتها .

كانت السماء صافية إلا من بعض السحب المتفرقة التى تسير الهوينى وتتشكل بأشكال غريبة غير عابئة بما يحدث تحتها من جنون البشر . نظر الجندى إلى إحدى هذه السحب فوجدها تشبه فتاة مضطجعة . تذكر خطيبته التى لم يرها منذ استدعوه للحرب . وجد منظر السماء لايختلف عن

منظرها فى أيام السلم عندما كان يسير مع خطيبته فى نزهة يتمتعان فيها بجمال الطبيعة التى أبدع الله صنعها وأفسد جمالها الإنسان .

شعر بشىء من الراحة والقوة ، فوقف وأخذ يعدو بصعوبة متسلقا التل ليلحق بالكتيبة . لم يجد للكتيبة أثرا . لعلها اختفت داخل الغابة . اتجه نحو الغابة وأطلق رصاصة فى الهواء لعل أحدا يسمعه . لم يسمعه أحد . أطبق على المكان صمت رهيب . أخذ يجرى فى أنحاء الغابة وكأنه يبحث عن شىء لايعرفه .

اجتاز الغابة ووصل إلى ساحل المحيط . وجد ثلاثة قوارب مربوطة للشاطىء بالحبال ، اثنان منها بلا مجاديف وفى قاع الثالث مجدافان . خطرت له فكرة أقلقته . إنه لن يستطيع مواجهة الأعداء بمفرده ، فماذا يفعل لو هاجمته الآن كتيبة من الأعداء ؟ لماذا لايهرب حتى لايقع أسيرا فى قبضة العدو ؟

ركب القارب ذا المجدافين وقطع الحبل وأخذ يجدف فى اتجاه جزيرة صغيرة منعزلة بعيدة عن ميدان القتال تغطيها الغابات . وصل إلى الجزيرة بعد مجهود عنيف . أخرج القارب من الماء ووضعه تحت إحدى الأشجار فقد يحتاج اليه . لم يجد مخلوقا آدميا واحدا فى هذا الجزء من الساحل . اتجه نحو الغابة . ازدادت سرعة دقات قلبه . ابتلعته الغابة . أخذ يجول فى أنحائها ويده على زناد البندقية . جلس تحت احدى الأشجار العملاقة مستندا بظهره على جذعها الضخم . أخرج من مخلاته علبة أخرى وأخذ يلتهم مافيها .

خيل إليه أن وراء إحدى الأشجار شبحا يرنو إليه فوقف الطعام فى حلقه . اختطف بندقيته وصوبها نحو هذا الشبح . سمع صرخة ثم

اختفى الوجه خلف الشجرة . قام واتجه نحو تلك الشجرة مستعدا لإطلاق الرصاص . وجد خلف الشجرة فتاة فى نحو العشرين من عمرها ترتعد رعبا وتنظر إليه بعينين متوسلتين يبللهما الدمع . رفع يده عن الزناد وظل محملقا فى وجهها . شعرها شَعِث ووجهها قذر ولكنه جميل . سألها :

ـ ما الذى قذف بك إلى هذا المكان المنعزل ؟

ظلت ناظرة إليه وقد عقد الرعب لسانها فلزمت الصمت .

أعاد السؤال :

ـ لماذا أتيت إلى هذا المكان ؟

قالت بصوت مرتجف :

ـ أنا أعيش هنا .

ـ أتعيشين فى الغابة كالوحوش ؟

ـ أعيش فى بيتى

ـ أين بيتك ؟

ـ قريب من هنا . إنه كوخ صغير أعيش فيه بمفردى .

ـ ولماذا تعيشين بمفردك ؟

ـ أبى وأخى ذهبا إلى ميدان القتال ولم يرجعا حتى الآن .

ـ وأمك ؟

ـ ماتت .

أجهشت بالبكاء وارتمت على قدميه تقبلهما قائلة :

ـ لاتقتلنى . أنا يابانية مثلك .

رفعها من يدها برفق واحتضنها وقبلها قبلة طويلة ، فأغمضت عينيها مستسلمة . سحبته من يده واتجها نحو الكوخ .

رأى أرنبا منطلقا بين الأشجار ، صوَّب بندقيته نحوه وقتله . أسرعت الفتاة والتقطت الأرنب وعادت إلى الجندى الذى رآها مبتسمة لأول مرة . قالت :

ـ سنأكله معا .

ـ هذا كل ما استطعت إصابته ببندقيتى منذ استلمتها !

جلس على حصيرة فى الكوخ وجلست أمامه كالقطة السيامية ، ثم انتفضت واقفة واختفت بضع لحظات وعادت وفى إحدى يديها فنجان شاى قدمته له فى صمت وفى اليد الأخرى شمعة أشعلتها وثبتتها فى شمعدان على منضدة منخفضة وجلست فى المكان الذى كانت جالسة فيه ناظرة إلى الجندى مبتسمة . شعر بلذة ونشوة وهويحتسى الشاى . سألها :

ـ هل توجد منازل كثيرة بالقرب من منزلكم فى هذه الغابة ؟

ـ توجد قرى صغيرة وبعض المنازل المبعثرة ، ولكنها بعيدة عنا . أبى يمتلك هذه الغابة .

ـ هل يأتى أحد لزيارتك هنا ؟

ـ أنت أول زائر أراه منذ رحيل أبى وأخى .

أطرقت لحظة إلى الأرض ثم قالت :

ـ لماذا لاتحارب ؟

ـ تخلفتُ عن الكتيبة لجرح فى قدمى وضللت الطريق .

أسرعت بخلع فردتى حذائه فرأت الجرح . كانت الدماء تملأ فردة الحذاء . أحضرت وعاء به ماء ومادة مطهرة . غسلت قدميه وضمدت جرحه . ضمها اليه وقبلها .

قالت :

لماذا أتيتَ إلى هذه الجزيرة ؟
ـ خفت أن أقع أسيرا فى يد الأعداء .
ـ لاتتركنى وحدى ، أنا فى حاجة اليك . يوجد كثيرون غيرك يحاربون الأعداء .
ـ لن أتركك ، سأعيش معك .

أطفأت الشمعة ونامت بجواره . ظل يعيش مع هذه الفتاة ويعاشرها معاشرة الأزواج وقد ضاعت معالم الأيام والشهور والسنوات ، إلى أن فوجىء ذات يوم وقد ظهرت عليها أعراض الحمل . لم تكتب الحياة للجنين ، فلقد أجهضت على أثر قفزة قفزتها من فوق إحدى الأشجار عندما كانت تجمع بعض الفاكهة . لم يدر الجندى إذا كان الاجهاض حدث بدون رغبتها أم تعمدت القفز لتتخلص من الجنين .

مرت الأيام والجندى يعيش فى خوف مستديم . إنه يخشى أن يكتشف أمره فيحكم عليه بالإعدام لتغيبه عن ميدان القتال ، كما أنه يتوقع عودة الأب أو الابن فى أية لحظة فلا يجد تفسيرا مقنعا لبقائه مع هذه الفتاة والحياة معها تحت سقف واحد . وعلاوة على ذلك ، فهو غير آمن من الأعداء ، إذ من يدرى ؟ ربما فكر الأعداء فى غزو هذه الجزيرة لأى سبب من الأسباب .

سيطر عليه الرعب . أصبح يخاف من بنى وطنه ومن الأعداء على السواء . فى أعماقه شعور بالذنب لم يستطع التغلب عليه . أصبح فى نومه مستيقظا ، يفزعه أى صوت حتى حفيف الأشجار وتغريد الطيور ، وفى يقظته نائما تطارده الكوابيس وتتراءى له أشباح لا وجود لها .

لم يكن من عادة الفتاة أن تخرج قبل أن يصحو من نومه لتُعدَّ له طعام الإفطار ولكن ذات صباح استيقظ فلم يجدها بالمنزل . انتظرها مدة طويلة فلم ترجع . أخذ بندقيته وخرج يبحث عنها فلم يعثر عليها . إستبد به القلق ، فظل يناديها وهو يجرى كالمجنون . سمع صراخا . دارت فى ذهنه أفكار سود وهو يسرع إلى مصدر الصوت . هل وصل الأعداء إلى تلك الجزيرة واعتدى عليها أحدهم ؟ وجدها ملقاة تحت إحدى الأشجار والدم ينزف منها . حاول احتضانها ورفعها بين يديه ولكنها صرخت . سألها :

ـ ماذا حدث ؟

قالت بصوت ضعيف وهى تبكى :

ـ قفزت من فوق الشجرة لأتخلص من الجنين للمرة الثانية .

حملها إلى الكوخ وهى تصرخ بأعلى صوتها . اتضح له أنها تعانى من نزيف حاد وكسر فى العمود الفقرى . لم يستطع أن يفعل شيئا . ظل بجوارها حتى أسلمت الروح . بكى كثيرا ودفنها بالقرب من جذع شجرة .

مرة أخرى يجد نفسه وحيدا . ازداد شعوره بالذنب . لم يعد يطيق الحياة فى هذا المكان . فكر فى تسليم نفسه للسلطات . دفع القارب نحو الماء وأخذ يجدف متجها نحو المكان الذى أتى منه . عندما وصل إلى الشاطىء سمع طلقات رصاص داخل الغابة . أمسك بندقيته متحفزا وأخذ يخترق الغابة فى حرص شديد . رأى أحد ضباط الأعداء وفى يده بندقية . صوّب بندقيته نحو الضابط وأرداه قتيلا برصاصة واحدة . شعر لأول مرة بشىء من راحة الضمير وتحرك فى أعماقه إحساس بأنه استرد شرفه .

ظل مختبئا خلف احدى الأشجار مستعدا لقتل مزيد من الأعداء . سمع أصواتا ووقع أقدام . رأى ثلاثة من رجال الشرطة يصوبون مسدساتهم نحوه ، همَّ باطلاق الرصاص عليهم ولكنه تراجع عندما أدرك أنهم من بنى وطنه . صاح أحدهم قائلا :

ــ ماذا فعلتَ يامجنون ؟

إرتسمت على فمه ابتسامة عريضة وقال :

ــ قتلت أحد ضباط الأعداء .

ــ ولماذا قتلته ؟ !

بدهشة شديدة قال :

ــ لماذا قتلته ؟ ! قتلته لأنه من الأعداء .

ــ كان هذا فى زمن الحرب يامعتوه .

انهارت قوى الجندى فاستند على جذع شجرة وقال فى ذهول :

ــ هل انتهت الحرب ؟

انتهت منذ أكثر من عام ، ألا تعلم ذلك ؟ لقد قتلت ضابطا امريكيا من جنود الاحتلال جاء إلى هذه الغابة ليمارس هوايته وهى صيد الطيور . لقد اقترفت جريمة قتل عقوبتها الإعدام . الظروف تغيرت يا أحمق . الق السلاح وارفع يديك .

أسرع الجندى بالتحصّن خلف جذع شجرة . أخذ يهذى وكأنه يحدّث نفسه قائلا :

ــ حرب ؟ احتلال ! سلام ؟ ! صيد الطيور ؟ ! جريمة قتل ؟ ! الظروف تغيرت ؟ ! .

ثم صاح قائلا بأعلى صوته وكأنه فقد عقله :

ـ ولكن البندقية كما هى لم تتغير .

وفى مثل لمح البصر صوّب بندقيته نحو رأسه وضغط على الزناد فانطلقت منها رصاصة .

عام ١٩٧٧

لماذا لم يأت الشتاء

فى كوخ صغير منعزل عند طرف المدينة كانت تعيش منذ سنوات عديدة امرأة مسكينة . لم يكن لها فى الدنيا بعد وفاة زوجها سوى ابن صغير لايزيد سنه على سبعة أعوام ، هو رجلها الوحيد وكل أملها فى الحياة . كانت تتعجل الأيام لكى ينمو ويصبح فتى مفتولا قويا . كلما أوشك الخريف على الانتهاء كانت تفكر فى برد الشتاء . إن ابنها يحتاج لكساء يقيه من البرد ، ولم يعد قلبها يحتمل سماع صوت سعاله ، ذلك السعال الذى يجعل جسده يهتز ويترنح . سيكون الشتاء قاسيا عليه وهو بلا كساء ، اذ لايستر جسده سوى غلالة رقيقة مهترئة .

بالقرب من نهاية الخريف بدأت تتسلل بعض رياح الشتاء . نظر الطفل إلى أمه وقال :

ـ أنا ارتعد من البرد .

لم يكن فى حاجة لأن يخبرها بذلك فهى تراه وهو يرتعد . احتضنته وقالت :

ـ إننا مازلنا فى الخريف ، واذا كنت ترتعد من البرد الآن فماذا أنت صانع عندما يأتى الشتاء ؟

ـ البرد شديد .
ـ سأخرج لأجمع بعض الحطب والأخشاب وستدفأ عندما أشعلها .
ـ سآتى معك أجمع الحطب .
ـ كلا ، لاتغادر البيت ، ابق هنا حتى أعود . قد يشتد سعالك لوخرجت .

بعد خروج الأم ، خرج الطفل يسعى فى الحقول القريبة من المدينة ليساعد أمه فى الحصول على كمية أكبر من الحطب ، ودارت فى رأسه أفكار حزينة .

بعد أيام قلائل سيأتى العيد فهل ستظل الرياح تعوى وأظل بلا كساء ؟ أمى يعذبها البرد هى أيضا ولكنها لاتشكو . لقد رأيتها وهى ترتعش . كل هذا والشتاء لم يأت بعد كما تقول . لابد أن أجمع خشبا وحطبا كثيرا . لن احتمل برد الشتاء .

واستمر بجمع الحطب .

لقد جمعت حطبا كثيرا . لن أقوى على حمله إلى البيت دفعه واحدة ، سأحمله على دفعات . ستجمع أمى هى أيضا قدرا كبيرا من الحطب . سنشعلها فى الكوخ فى ليالى الشتاء الباردة . إن نوافذ الكوخ لاتقفل فمصاريعها مكسورة . الرياح الباردة تتسلل الينا من خلال هذه النوافذ .

هذا هو سبب السعال الذى يضايقنى ، أمى أيضا تسعل . أنا أكره الشتاء وأخاف منه . ليته لايأتى هذا العام . ولكنه لابد سيأتى . كل عام لابد أن يأتى . بدأ يرسل رياحه الباردة استعدادا لمجيئه . إنه قادم .

بدأ الطفل يبكى فى صمت ، وفجأة انهمر المطر فانزوى الطفل تحت شجرة واستمر يبكى .

ابتل الخشب الذى تعبْتُ فى جمعه . لقد بدأ الشتاء . يبدو أنه سيكون شتاء شديد البرودة هذا العام . سنموت من البرد أنا وأمى ونرتاح من العذاب نحن الاثنين . أنا أكره الشتاء .

واستمر يبكى .

فى تلك اللحظة كانت الفصول الأربعة جالسة فوق أحد التلال . ترامى إلى أسماعها بكاء الطفل وسمعت بعض الأفكار التى كانت تدور فى رأسه ، ونظرت فوجدت الطفل منزويا يبكى تحت احدى الأشجار قال الربيع :

ــ ياشتاء .

ــ ماذا تريد ؟

ــ اتسمع صوت هذا الطفل الذى يبكى ؟

ــ نعم ، أسمعه .

ــ لقد تسللت بعض أمطارك ورياحك فى غفلة من الخريف . أرأيت ماذا فعلت بالبشر ؟ كل هذا قبل موعد قدومك ، ترى ماذا سيحدث عندما يحين موعدك وتجىء بعواصفك وأمطارك وزمهريرك ؟

أطرق الشتاء إلى الأرض لحظة ثم قال :

ــ الذنب ليس ذنبى ، انه فلك يدور ولابد أن آتى كل عام .

ــ انك تحمل الشقاء للمساكين من البشر ، أما أنا فأحمل اليهم البهجة والحب والسعادة .

تنهد الشتاء وقال :

ــ هذا من قلة بختى . أنت سعيد الحظ ياربيع .

ــ أنا أجلب عند قدومى الأزهار بديعة الألوان وغناء الطيور وأملأ

قلوب العشاق فرحة ونشوة ، ولكنك تجلب معك البرد والمطر والبرق والرعد والصواعق والسعال والرعشة والمرض . حرام عليك . اسمع ياشتاء ، لى عندك رجاء .

قال الشتاء بلهفة :

ـ ماهو هذا الرجاء ؟

ـ رجاء بسيط أرجو أن تحققه لى ولاتردنى خائبا . ترى هل تحققه لى ؟ إنه أول رجاء أطلبه منك .

قال الشتاء وقد نفد صبره :

ـ ماهو هذا الرجاء ؟ تكلم .

ـ أرجو أن تبطل المطر الذى أرسلته قبل الأوان حتى يتمكن هذا الطفل من الوصول إلى منزله دون أن يتلف الحطب الذى تعب فى جمعه ، فلقد قاسى فى الحياة كثيرا .

قال الشتاء بدهشة :

ـ أُبطل المطر ؟ !

وهنا تحمس الخريف والتفت إلى الشتاء غاضبا وقال منفعلا :

ـ من حقى أنا أيضا أن أطلب منك إيقاف هذا المطر . إنك تعتدى على حقوقى وتريد أن تتسلل قبل موعدك .

قال الشتاء :

ـ لاتغضب ياخريف ، كل مافى الأمر أننى لا أحب أن يكون قدومى مفاجئا ، أود تنبيه الناس قبيل قدومى ليستعدوا .

قال الربيع :

ـ أنا لا أريد أن يكون حديثى سببا لغضب أحد ، ولكننى أكرر رجائى

ياشتاء هلا أوقفت هذا المطر من أجل الطفل المسكين ؟
قال الشتاء وقد بدأ يعطف على الطفل :
ـ لامانع لدى من الاستجابة لرجائك ياربيع .

وصاح قائلا :
ـ يامطر ، يارياح ، ياعواصف ، توقفوا .
وفى الحال هدأت العاصفة .

عندما عادت الأم وجدت الكوخ قد امتلأ بالأخشاب والحطب الذى جمعه طفلها ، فسألته :
ـ من الذى أحضر كل هذا الحطب وهذه الأخشاب ؟
ـ أنا الذى جمعتها .
ـ ألم امنعك من الخروج فى هذا البرد ؟ لماذا حمّلت نفسك كل هذا العناء ؟

ـ لنشعر بالدفء عندما يأتى الشتاء .
ـ لاتفعل ذلك مرة أخرى .
ـ لولا الشتاء لما تعبنا .
ـ لقد طلب الفرّان شراءه .
ـ لماذا لم تبيعى جزءا منه ؟
ـ نحن فى حاجة لأكثر منه .

فى اليوم التالى خرجت الأم ، وعلى الرغم من تحذيرها لطفلها من الخروج إلا أنه أراد مساعدتها فخرج يجمع الحطب كما فعل بالأمس وأخذ يجول فى الحقول بحثا عن الحطب . ودارت الأفكار فى رأسه .

هل من الضرورى أن يجىء الشتاء كل عام ؟ ! ليته لا يأتى فى هذا العام ونستريح من زمهريره ورياحه وأمطاره . لن أحتمل برد هذا الشتاء ولكنه سيأتى كما يأتى كل عام .

كانت الفصول الأربعة تستمع لأفكار الطفل ، وبغتة وجد الشتاء نفسه يبكى فهطلت الأمطار لبكائه . فزع الربيع وقال بلهفة :

ــ أستحلفك بالله ياشتاء أن تكف عن البكاء دموعك ستغرق هذا الطفل المسكين ، لماذا تبكى ؟

ــ لقد رق له قلبى .

ــ لى عندك رجاء آخر ياشتاء .

ــ ماهو هذا الرجاء الآخر ؟

ــ لاتأتِ هذا العام !

قال الشتاء بدهشة :

ــ كيف تطلب أن أتخلف عن المجىء ؟ ! هذا شىء لم يحدث له مثيل .

قال الربيع مستعطفا :

ــ لو أتيت هذا العام سيموت الطفل .

ــ ومن منكم على استعداد للمجىء بدلا منى ؟ من الذى سيحمل هذا العبء ؟

قال الربيع :

ــ أنا على أتم استعداد للعمل بدلا منك . استرح أنت ياشتاء وانعم بنوم لذيذ طَوال هذا العام . على الرغم من الإرهاق الذى أشعر به بعد المجهود الذى بذلته ، يسرنى ويسعدنى أن أحل محلك لأنقذ حياة هذا الطفل وحياة أمه التى لن تحتمل الحياة بعده .

فتأثر الشتاء وأوشكت الدموع أن تنهمر من عينيه فصاح الربيع قائلا بفزع :

ـ أرجوك لاتبك . المطر يهطل على رأس الطفل عندما تبكى .

حبس الشتاء دموعه ونظر إلى الربيع وقال :

ـ سأستجيب لرجائك ياربيع ، لن آتى هذا العام ولتأت أنت بدلا منى مادامتْ هذه رغبتك . سأنام وأرجو أن توقظنى فى العام القادم .

فرح الربيع وصاح قائلا :

ـ ياأوراق انبتى ، ويازهور تفتحى ، وياطيور غردى ، وياعواصف توقفى ويابرد اختف .

ظل الطفل وأمه ينتظران الشتاء فى هلع ، لكن الشتاء لم يأت فى ذلك العام وحل محله الربيع ونجا الطفل من الموت ، ولم يعرف الناس لماذا تفتّحت الأزهار وتوقفت الأمطار وساد الدفء طوال الشتاء فى ذلك العام .

عام ١٩٥٤

شجرة الياسمين

كانت أحب الأزهار عندى أزهار الياسمين ، ولكننى كلما تنسمت الآن عبيرها غمرتنى موجة من الحزن والألم ورجعت بى الذكريات إلى عدة سنوات خلت عندما كنا نسكن حدائق القبة بالقاهرة .

كان منزلنا ومنزل جيراننا تضمهما حديقة واحدة متسعة ، وكنت أقضى سحابة يومى فى عملى وأعود فى المساء متعبا . فأستلقى على الفراش أقرأ بعض الصحف ثم أنهض فأتناول عشاء خفيفا وأعكف على القراءة والكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل .

كنت أحيانا عندما أمل القراءة أفتح نافذة غرفتى المطلة على منزل الجيران فأستقبل عبيرا منعشا منبعثا من شجرة ياسمين صغيرة تحبو على حائط منزلهم . كنت لا أعلم عن هؤلاء الجيران أكثر من أنهم عائلة صغيرة ، رجل وزوجة وطفل فى نحو الخامسة من عمره ولا أذكر أننى رأيت الزوجة أكثر من مرة أو مرتين ، وأذكر جيدا أنها كانت فى مقتبل العمر ، نحيلة ، ذات وجه ترتاح العين لرؤياه .

كان من عادة الزوج أن يرجع إلى منزله متأخرا ، فكانت الزوجة تظل مع طفلها فى البيت حتى اذا نام بقيت هى ساهرة إلى أن يعود الزوج .

ذات مساء ، عندما كنت مستغرقا فى الكتابة سمعت الطفل يبكى بكاء شديدا وينادى أمه .لم أعره اهتماما فى بادىء الأمر ، ولكن البكاء لم ينقطع ولم اسمع فى حياتى بكاء يفتت الأكباد كبكاء الطفل فى ذلك اليوم .

فتحت النافذة وناديت الطفل وسألته ما الذى يبكيه ، فأجابنى وهو يجهش بالبكاء :

ــ أمى .

ــ مابها ؟ هل ضربتك ؟

ــ لا ، لقد ماتت !

أسرعت أنا وأخى وأختى التى كانت تقيم معى فى ذلك الحين وذهبنا إلى منزلهم ، وهناك رأيت منظرا لن أنساه . امرأة جميلة فارقتها الحياة ملقاة على أرض الغرفة وعلى فمها شبه ابتسامة . ما كاد الطفل يرانى حتى ألقى بنفسه علىّ وهو يبكى . لقد توفيت هذه المرأة بسكتة قلبية عاجلتها بينما كانت تداعب طفلها ولم يكن بالمنزل أحد سواهما .

ذهبت لاستدعاء الزوج من المقهى الذى اعتاد الجلوس فيه ، وتعجبت عندما وجدته يستقبل الخبر برباطة جأش عجيبة . أسرع إلى المنزل وقام بالاجراءات اللازمة فى مثل هذه الأحوال .

بعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير فى أحد شوارع القاهرة المزدحمة صدمتنى سيارة مندفعة بسرعة جنونية ، فلم أشعر إلا وأنا بالمستشفى بين يدى الطبيب واتضح أن العمود الفقرى أصيب واستغرق علاجى نحو

أربعة شهور نسيت فى اثنائها كل أمور الدنيا ، وألهانى ما أصابنى عن التفكير فى أى أمر آخر . مرت الشهور الأربعة وكأنها أربع سنوات وخرجت من المستشفى فى نهايتها ضعيفا معتلا من أثر تلك الصدمة التى كادت تودى بحياتى .

عندما عدت إلى منزلى كان أول مافعلته أن أسرعت إلى نافذة غرفتى افتحها لأستقبل عبير الياسمين ، وحانت منى التفاتة نحو نافذة منزل الجيران ، فوجدت امرأة لم أرها من قبل تطل من نافذة غرفة الطفل . سألت اختى عن هذه المرأة وهل هى ساكنة جديدة حلت محل العائلة التى كنت أعرفها ، فأخبرتنى أن العائلة باقية وأن هذه زوجة جديدة لذلك الرجل الذى فقد زوجته منذ شهور قلائل ، فتألمت عندما علمت ذلك ، وظللت مدة طويلة أتحاشى فتح النافذة المطلة على منزلهم حتى لا أثير فى ذاكرتى حادث وفاة الزوجة الأولى .

علمت فيما بعد أن تلك الزوجة تقسو على الطفل وترهقه لأتفه الأسباب بعقوبات فوق طاقة سنه ، فكثيرا ما كانت تحبسه فى الغرفة وتترك المنزل هى وزوجها لنزهة طويلة أو لمشاهدة فيلم سينمائى . وأحيانا كانت تهمل إغلاق نافذة حجرته وهو نائم فى أقسى ليالى الشتاء ، فتظل النافذة طوال الليل تقذفه بسهام قتالة من البرد القارص .

رجعت من عملى مبكرا فى أحد الأيام وفتحت النافذة فرأيت نافذة حجرة الطفل مفتوحة ورأيت شجرة الياسمين قد امتدت حتى وصلت بالقرب من النافذة . وبعد قليل شاهدت الطفل مقبلا نحو النافذة فتواريت حتى لايرانى وظللت أراقبه خفية . رأيت على وجهه أثرا واضحا

للبكاء ، ثم وجدته يصعد على كرسى ويطل من النافذة ثم يضع رأسه بين يديه ويبكى بكاء عنيفا جعل الدموع تتساقط من عينيه قطرات .

عند ذلك رأيت منظرا عجيبا سأظل طوال حياتى لاأدرى له تفسيرا . رأيت قطرة من دموعه تسقط فوق شجرة الياسمين ، فشاهدت الشجرة تنتفض كأنها تجهش بالبكاء ، ورأيت الياسمين يتساقط منها كما تتساقط الدموع !

هل اهتزت الشجرة من تلقاء نفسها ؟ أو هزها ريح قوى فى تلك اللحظة ؟ لست أدرى .

ويبدو أن المشهد قد استرعى انتباه الطفل كما جذب اهتمامى لأننى رأيته يكف عن البكاء ويثبت بصره نحو الشجرة مشدوها .

منذ تلك اللحظة نشأت بين الطفل وشجرة الياسمين أُلفة وشبه اتصال روحى ، فكان كلما تألم فزع إلى شجرة الياسمين وكأنه يبثها شكواه ، فذات مرة عند عودتى للمنزل وجدت الطفل جالسا على أرض الحديقة عند جذع شجرة الياسمين وقد لف يده حول الجذع وأسند رأسه عليه مستسلما لنوم عميق . ذهبت نحوه وأيقظته فرأيت فى عينيه آثار الدمع . حاولت إقناعه بالذهاب إلى منزله فالشمس قوية والحر لايطاق ، فلم يقتنع وظل جالسا جنب جذع الشجرة . كان منظر الشجرة فى ذلك اليوم يحمل معنى غريبا من معانى العطف على ذلك الطفل ، ولكن كيف ظهر لى ذلك ؟ لست أدرى ، ولكننى شعرت بذلك شعورا قويا .

مرت أيام وشهور وذلك الاتصال العجيب متمكن بين الطفل وشجرة الياسمين ، فكان كلما مرض ذبلت أزهار الياسمين وتساقطت وأصبح منظر الشجرة يحمل معنى الحزن العميق الذى يشعر به كل من ينظر اليها

دون أن يعرف السبب . وإذا تحسنت صحة الطفل انتعشت الشجرة وإزدهرت ، حتى إننى دون أن أشعر أصبحت أعرف حالة الطفل بالضبط بمجرد النظر إلى شجرة الياسمين ، فإذا كانت منتعشة مزدهرة ، فهو فى حالة طيبة ، وإن كانت ذابلة ، فهو فى حالة سيئة .

فى صباح أحد الأيام نظرت فإذا الشجرة ذابلة وأزهارها منطوية على نفسها ومنكمشة ، فقلقت على صحة الطفل . سألت عنه فعلمت أنه مريض . ذهبت إلى منزله وكان ملازما فراشه ودرجة حرارته مرتفعة وأخذ يهذى ، وعندما رآنى نظر الىّ باكيا وقال :

ـ شجرة الياسمين .

ثم أغمض عينيه ونام . وفى اليوم التالى نظرت إلى الشجرة فرأيتها مازالت ذابلة ، بل أكثر ذبولا منها بالأمس . وهكذا ، ظلت الشجرة تذبل يوما بعد يوم وكذلك كانت صحة الطفل تزداد سوءا .

أصبحت عادةً عندى أن أبكر فى القيام من النوم وأسرع بفتح النافذة لأرى شجرة الياسمين ، ولكن فى ذلك اليوم صحوت من نومى مبكرا كالعادة وفتحت النافذة فلم أر أثرا لأزهار الياسمين ، بل كدت لا أجد أثرا لشجرة الياسمين نفسها ، فلقد تركت الحائط الذى كانت قد تسلقته والتوت وأصبحت كومة ذابلة ملتفه حول نفسها وملقاة فوق جذع جاف ! .

شعرت بالحزن يغمرنى عندما شاهدت هذا المنظر وأرسلت من يطمئننى على صحة الطفل ، فعاد يخبرنى أنه فارق الحياة فى منتصف الساعة الثالثة صباحا ، فأحسست كأن يداً لطمت قلبى .

منذ ذلك الحين لم أفتح نافذة حجرتى المطلة على منزلهم اذ خيل إلى أن رائحة الحزن تفوح من حطام شجرة الياسمين ، وتراءى هذا الحطام لعينى وكأنه مقبرة موحشة .

عام ١٩٤٧

ستار الغد

تدرج رشدى عبد الباقى فى وظائف الحكومة حتى بلغ الدرجة الثالثة وأحيل إلى المعاش وهو فى هذه الدرجة عندما بلغ من العمر ستين عاما ، وأوهمته تلك الاحالة أنه قد أصبح إنسانا عاجزا عن العمل ، فاختار ركنا هادئا من أركان «مقهى السعادة» يجتمع فيه مع بعض معارفه يتبادلون الأحاديث تاركين سفينة الحياة تسير بهم فى رفق نحو الشاطىء المنتظر .

فى إحدى تلك الليالى ، كان رشدى جالسا فى ركنه المعتاد بذلك المقهى بصحبة ثلاثة من أصدقائه «أرباب المعاشات» ، واسترسلت الأحاديث كالعادة إلى أن قال أحد الثلاثة :

ـ كلما تخيلت الغيب المجهول ، أتصور انسانا يسير فى طريق مظلم وفى يده مصباح يضىء خلفه ولايضىء أمامه ، فيظل سائرا يتخبط فى ظلام كثيف لاتخترق العين ماوراءه .

فانبرى الثانى قائلا :

ـ حقا ، لقد هبط الانسان إلى أعماق المحيطات وصعد إلى أجواز الفضاء ورصد الكواكب فى مساراتها ، ولكنه أمام الغيب قزم ضئيل عاجز

مسكين ، لم يتمكن من اختراع المصباح الذى يخترق ضوؤه ظلام الغد المجهول .

كان رشدى فى أثناء الحديث مطرقا إلى الأرض فى تفكير عميق .

رفع رأسه وقال :

ـ ذكرنى حديثكم هذا بموضوع كان له أعمق الأثر فى نفسى .

اتجهت أنظار الثلاثة نحوه . قال رشدى :

ـ كان المنزل يضم خمسة ، أبا وأما وبنتا وولدين ، ولنسم الولدين «حسن» و «على» والفتاة «عزيزة» ولو أن هذه ليست الأسماء الحقيقية . فى أحد الأيام قبيل المساء أصيب حسن باغماء مفاجىء فأسرع عَلىّ باستدعاء الطبيب الذى حضر على عجل وقام باسعاف حسن حتى أفاقَ وفحصه فحصا دقيقا ، ولما انتهى من الفحص جذب الأبَ من ذراعه برفق واختلى به بعيدا عن أهل البيت وأسرَّ فى أذنه شيئا ظهرت على أثره أمارات الحزن واضحة على وجه الأب .

التزم رشدى الصمت فترة وظل مطرقا إلى الأرض فقال أحد الأصدقاء الثلاثة :

وماذا قال ياترى ؟

رفع رشدى رأسه واستمر فى حديثه قائلا :

ـ كان الطبيب قاسيا فى صراحته عندما همس فى أذن والد المريض قائلا : إن «حسن» لن تمتد به الحياة طويلا ، فهو مصاب بعيب خلقى فى القلب .

فى اليوم التالى اصطحب الأب ابنه المريض حسن وذهب به إلى أشهر أطباء القلب فى القاهرة فى ذلك الوقت . فحصه الطبيب فحصا دقيقا ثم

انفرد بالأب ، كما فعل الطبيب السابق ، وأخبره أن حالة القلب خطيرة ، ونصح الأب بمعاملة ابنه برفق ، انه لن يعيش طويلا . فسأل الأب الطبيب وأخذ يلح فى السؤال مستوضحا كم من العمر يحتمل أن يعيش ابنه . فأطرق الطبيب إلى الأرض طويلا ثم رفع رأسه وقال :

ــ أقل من عام .

فرجع الأب مع ابنه إلى المنزل شاعرا بالدموع وكأنها تتساقط من قلبه . وسرى الخبر المفزع بين أفراد الأسرة . إن حسنا العزيز ذلك الصبى الوديع المرح الطيب لن يعيش أكثر من عام . عرف الجميع ذلك ، ماعدا حسن ، فلقد أخفوا عنه هذه الحقيقة المرة .

وظل حسن كما عهدوه ، يضحك ويلهو ، يجد ويهزل ، وهو لايعلم أنه لن يرى ربيعا آخر بعد هذا الربيع ، ولم يكن فى مظهره مايدل على مرضه ، اذا استثنينا حالات الاغماء التى كانت تنتابه بين حين وآخر .

واستمر رشدى فى حديثه قائلا :

ــ وبدأ حسن يلاحظ أشياء عجيبة لايمكنه تفسيرها . أصبح جميع أفراد العائلة يتبارون فى إرضائه والترفيه عنه .

فها هو والده يمنحه بدون مناسبة مبلغ خمسة جنيهات تاركا له حرية التصرف فيها كما يشاء ، وأخته اعطته جنيها هو كل ما ادخرته ، وتنازل له اخوه عن قلم الحبر الأنيق الذى كان قد اشتراه منذ أسبوع .

وقف حسن حائرا أما هذا التغيير المفاجىء فى معاملة أفراد الأسرة له وأخذ يستعرض فى مخيلته شتى أنواع التفسيرات ولكنه لم يهتد إلى تفسير مقنع ، وظل لايعلم شيئا عما همس به الأطباء ، وكل مايعلمه هو أن

الجميع يحاولون الترفيه عنه بشتى الوسائل وبحركات مضحكة أحيانا جعلته يكاد يعتقد أن أهل المنزل قد أصابتهم لوثة جنون مفاجئة !

أخذ يفكر كيف يتصرف فى الجنيهات الستة التى أخذها من والده ومن أخته . هل يسافر إلى الإسكندرية لقضاء اسبوعين فى ضيافة عمه ؟ وهنا خطرت له فكرة ، إن والدته تحب عطر البنفسج ، فليشتر لها قبل كل شيء قارورة من هذا العطر فلا شك أن ذلك سيسعدها .

فى اليوم التالى ، تسلل نحو والدته وكانت جالسة تحيك ثوبا أسود . وضع يديه على عينيها ثم رفعهما وقبلها وقدم إليها الهدية فنظرت اليه وأمسكت بالقنينة الثمينة وأجهشت بالبكاء . تعجب حسن ، ماذا دهى والدته هى الأخرى ؟ ! لم يكن يتوقع أن تبكى عندما يقدم لها هدية بل كان ينتظر منها أن تسر وتبتسم . سألها عن سبب بكائها فلم تجب ، فأعاد السؤال . قالت إنها لاتدرى لماذا بكت وسألته عن مصدر النقود التى اشترى بها القارورة فقال إنها جزء من الجنيهات الخمسة التى أعطاها له والده ، فقالت إنها كانت تحب أن يمتع نفسه بهذه النقود ، وأجلسته جنبها ونظرت إليه طويلا ثم قبلته ودموعها تنساب على خديها .

مرت الأيام وأوشك العام على الانتهاء ولم يبق لحسن سوى أيام قلائل يودع بعدها هذه الدنيا ، وبدأت تظلل البيت سحابة كثيفة من الكآبة انعكس ظلها على وجوه جميع من بالمنزل ، فيما عدا حسن ، ولم يعد فى إمكانهم اخفاء الحزن العميق الذى يعتمل فى أعماق نفوسهم ، وحسن فى حيرة من أمره لايدرى لذلك سببا .

مضت أسابيع أخرى وحدث لحسن اغماء ، ولما أفاق وجد الدموع تبلل عيون كل من فى البيت ، فلقد ظنوا أنه مفارقهم هذه المرة .

كانت هذه ليلة نصف شعبان . فاجتمع افراد العائلة وجلسوا يقرأون معا دعاء نصف شعبان كعادتهم كل عام ، الأب يقرأ وهم يرددون مايقول . كانت فى مواجهتهم صورة لحسن معلقة على الحائط ، فكانوا يرددون الدعاء وهم ناظرون إليها وكأنهم يصلّون من أجله .

عندما انتهوا من الدعاء وهمّوا بالوقوف اصطدم عَلِى بصورة حسن فى أثناء قيامه فسقطت الصورة على أرض الغرفة . انزعج الجميع وتشاءموا من هذه الحركة وفى ثورة غضب هوى الأب بكفه على وجه على بصفعه قوية جعلته يترنح ، فانسحب فى صمت ووضع رأسه بين كفيه وانخرط فى بكاء عنيف مكتوم .

بعد أيام أربعة فرغ الدواء الذى كان يتناوله حسن ، فطلب الأب من عَلِىٍّ أن يسرع إلى الصيدلية لاحضار الدواء لأخيه ، فاندفع على يعدو نحو الصيدلية وظلت العائلة تنتظر عودته ، وطال الانتظار ، ولكنه لم يرجع ، بل حضر من أخبرهم أن سيارة اندفعت مسرعة نحوه وهو يجتاز الطريق ومرت عجلاتها فوقه فنقل إلى المستشفى بين الموت والحياة .

بعد يومين توفى متأثرا بجراحه ، ومرت الأيام وتحسنت حالة القلب ولكنها لم تستطع أن تمحو ذلك الجرح العميق الذى حفره فى قلبى موت أخى . لقد كان يرفه عنى ويحاول اسعادى وهو لايعلم ، ولا أحد فى البيت يعلم أنه هو الذى سيموت قبل نهاية العام .

عام ١٩٧٢

خطـاب إلى اللــه

لاتعرف من الذى سماها «زينب» لأنها لاتذكر لها أبا ولا أما ولا أقارب ولاصحاب . ولاتعلم كم مر عليها من الأعوام فى هذا الوجود ، ولو تذكرت لأدركت أنها بعد أيام ستتم سبع سنوات .

وكلما خلت إلى نفسها أو سارت فى الطريق ، تذكرت أياما وأحداثا وعند ذلك لايسعها ألا أن تبكى ، عن غير فهم ، وعن غير وعى .

إنها تذكر مثلا ، أنها كانت فى احدى ليالى الشتاء عند باب ضريح السيدة زينب ، كعادتها ، شبه عارية إلاّ من غلالة رقيقة محت الأيام لونها ، لاتذكر كيف حصلت عليها لأن ذلك كان منذ زمن لاتعيه ذاكرتها وكبرت ولم تكبر معها الغلالة فبرزت منها ساقان نحيلتان كساقى غزالة تحملان جسدا ضامرا ووجها مصفرا .

وأقبل رجل بدين يشق الطريق فأسرعت اليه تطلب مليما تضيفه إلى المليمات الثلاثة التى جمعتها لتشترى شيئا تأكله ، فنهرها الرجل . حاولت محاولة ثانية مع سيدة فلم تعرها السيدة التفاتا ومضت فى سبيلها .

ولما أضناها التعب فكرت فى الجلوس فى مكانها الذى اعتادت الجلوس

فيه جنب الضريح ، ولن يضيرها أن تبيت ليلتها على الطوى ، فهى لم تعتد تناول الطعام فى فترات منتظمة ، بل يتوقف ذلك دائما على مدى توفيقها فى الحصول على ثمن الغذاء .

وفى طريقها إلى مكانها المعتاد أبصرت سيدة أخرى فمدت إليها يدها تطلب إحسانا ، فألقت عليها تلك السيدة نظرة فاحصة وسألتها :

- ألك أهل تعيشين معهم ؟
- لا ، لا أعرف لى أبا ولا أما .
- ولماذا تتسولين ؟
- لأجمع ما أقتات به .
- ولماذا لاتعملين فى أحد البيوت ؟
- لا أعرف طريقا إلى بيت أعمل فيه ، ولم يطلب منى أحد أن أفعل ذلك .

- وإذا طلبت منك أن تصحبينى إلى بيتى لتعملى به مقابل إطعامك هل تقبلين ؟

أشرق وجه زينب وأطل السرور من عينيها وقالت :

- نعم ، أقبل .

سارت زينب مع السيدة من شارع إلى شارع حتى وصلت إلى ذلك المنزل . إنه شقة فى عمارة فاخرة كبيرة . صعدا بالمصعد ودخلا تلك الشقة . قالت السيدة :

- ها هو ذا منزلنا ، وعليك أن تبكرى فى الاستيقاظ صباحا لتنظيفه قبل أن نصحو من نومنا .

عند العشاء أعطتها سيدتها كسرة من الخبز فالتقطتها وجلست بمفردها فى المطبخ تأكلها . سألت زينب سيدتها :

ــ أين أنام ؟

ــ هنا فى المطبخ .

وهى تذكر أيضا أنها عندما حان موعد النوم ، تكورت فى أحد أركان المطبخ ونامت بلا غطاء ، وفى الصباح الباكر استيقظت وأتمت تنظيف الأرض والزجاج قبل أن يستيقظ أهل المنزل كما أمرتها سيدتها . عندما صحت سيدتها من نومها أجرت عملية تفتيش وعنفت زينب لأنها أهملت تنظيف ماتحت الكراسى ، ولم تحسن تنظيف الزجاج ، فاستأنفت زينب العمل حتى تم للسيدة ما أرادت .

ذات يوم ، أرسلتها لشراء بعض الجبن والزيتون من عبد القادر البقال ولما عادت فحصت سيدتها الأشياء ، ثم نظرت إلى زينب نظرة قاسية وقالت :

ــ الزيتون أقل مما اعتدنا شراءه بهذا الثمن . هل أكلتِ منه شيئا فى الطريق ؟

نفت زينب نفيا باتا أنها أكلت منه شيئا ، ولكن سيدتها لم تصدقها ، فجذبتها من يدها وجردتها من غلالتها وهوت على جسدها بعصا غليظة ثم ألقت بها فى ركن الغرفة .

لماذا تضربنى ؟ إن يدى لم تمتد إلى هذا الزيتون ولا إلى أى شىء آخر فذلك لم يخطر لى على بال . حياتى هنا ليست أسعد حالا منها عندما كنت أستجدى الأكف عند ضريح السيدة زينب .

فكرت فى العودة إلى مكانها جنب الضريح ، ولكن شيئا واحدا منعها ، أصبحت تحب ذلك الطفل الصغير ابن سيدتها ولاتطيق البعد عنه ! .

وتذكر أن بضعة أيام مرت على ذلك الحادث ، ثم حدث أن خرجت سيدتها مع زوجها لمشاهدة أحد الأفلام السينمائية وأوصت زينب أن تراعى الطفل ، فظلت تداعبه حتى نام . حملته إلى فراشه وجلست بجواره . ولما طال بها الانتظار استندت برأسها على حافة الفراش وغلبها النوم فنامت .

عادت السيدة مع زوجها . فتح الزوج الباب بالمفتاح واتجهت السيدة إلى غرفة النوم فوجدت زينب نائمة . ركلتها بحذائها فاستيقظت مذعورة وانتصبت واقفة ثم انسحبت إلى مكانها بركن المطبخ وجلست منكمشة ولم تعطها سيدتها تلك الليلة كسرة الخبز التى اعتادت إلقاءها لها كل مساء عقابا لها على نومها قبل حضور سيدتها .

توالت الأيام ، وزينب تقاسى من سيدتها متحملة مالا يمكن أن يحتمله غيرها من ضرب وصفع وإيذاء ، إلى أن جاء ذلك اليوم الذى جذبتها فيه السيدة من ذراعها وانقضت عليها تحرق جسدها بحديدة محماة فى النار ، فأفلتت من يد سيدتها وانطلقت تعدو مبتعدة عن ذلك البيت .

فى الطريق التقت بمبروكة إحدى خدم العمارة . كانت زينب تبكى فسألتها مبروكة عما بها . قصت عليها قصتها فقالت لها مبروكة :

ـ لماذا لاترسلين خطابا إلى أبيك لينقذك من هؤلاء الناس ؟

لم تجب زينب عن هذا السؤال واستمرت تبكى . قالت مبروكة :

ـ أنا أيضا سئمت الحياة مع الذين أخدمهم فأرسلت خطابا إلى أبى ليحضر ويأخذنى من هنا .

ـ من الذى كتب لك الخطاب ؟
ـ كتبه لى عبد القادر البقال . إنه رجل طيب .
أطرقت زينب إلى الأرض برهة ولاذت بالصمت ، ثم افترقتا وسارت كل واحدة فى طريقها .

لمن أكتب الخطاب ؟ انني لا أب لى ولا أم ولا أقارب ، وأنا أخدم هؤلاء الناس ولا أطالبهم بأكثر من كسرة الخبز التى يعطونها لى . لمن أكتب الخطاب ؟

شعرت بأنها لابد أن تكتب خطابا لأى شخص لينقذها من هذا الشقاء .

جميع الخدم الذين عرفْتهم كلما شعروا بظلم مخدوميهم يسرعون إلى عبد القادر البقال ليكتب لهم خطابا إلى ذويهم ، وأنا لا أعرف أحدا .
فى خضم حيرتها وعذابها خطرت لها فكرة .

لماذا لا أكتب خطابا إلى الله ؟ ! إننى اسمع اسمه كثيرا من الناس الذين يأتون للصلاة فى جامع السيدة زينب ، وأسمعه فى الأذان ينادى به الرجل بأعلى صوته من فوق المئذنة ، وأفهم أنه هو الذى يعطف على المساكين ولايظلم الناس ولايحب الظلم . اذا كتبت الخطاب إليه وألقيته فى ذلك الصندوق الذى أرى الناس يلقون بخطاباتهم فيه ، فلا بد أن يصله الخطاب .

وسارت نحو دكان عبد القادر البقال ، وعلى باب الدكان وقفت . نظر اليها البقال مستفهما عما تود شراءه ، فنظرتْ إليه ثم أطرقت إلى الأرض وأخذت تعبث بأصابعها فى الأرز الموضوع فى مدخل الدكان فنهرها البقال قائلا :

ـ ابعدى أصابعك القذرة عن الأرز ، ماذا تريدين ؟

جلست القرفصاء ووضعت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء ، نظر اليها البقال متعجبا وأقبل عليها يسألها :

ـ مابك يا ابنتى ؟ لماذا تبكين ؟ هل ضربتك سيدتك ؟

ـ ضربتنى وحرقت جسمى بالنار .

كشفت عن بعض أجزاء جسدها المحترق فاقشعر بدن البقال وقال :

ـ ماذا تريدين يا ابنتى أن أصنع لك ؟

ـ أريد أن أكتب خطابا .

ـ لمن ؟ لأبيك ؟

ـ ليس لى أب .

ـ هل أكتب لأمك ؟

ـ ليس لى أم .

ـ الأحد أقاربك ؟

لاذت بالصمت . قال البقال :

ـ لمن أكتب الخطاب اذن ؟

نظرت إليه نظرة حزينة وترددت فى الكلام . فأعاد الرجل سؤاله ، فأجابت :

ـ إلى ربنا .

فى هذه اللحظة دخل رجل إلى الدكان يريد شراء بعض الأشياء فانشغل معه عبد القادر . لما انتهت عملية البيع عاد عبد القادر يسأل زينب :

ـ ماذا قلت ؟ لمن أكتب الخطاب ؟

ـ إلى ربنا .

أخفى عبد القادر ابتسامة كانت تود أن ترتسم على فمه وقال :
ـ وأين ستلقين الخطاب بعد كتابته ؟
ـ فى صندوق البريد .

وفى مثل لمح البصر ارتمت على قدم البقال تقبلها وترجوه أن يكتب لها خطابا إلى الله تشكو اليه ما أصابها فى الدنيا وترجوه أن يأخذها إلى جواره واندفعت تقول باكية .

ـ لا اعرف سوى ربنا ، وهو الذى خلقنى . اكتب لى خطابا إلى ربنا .

بدا التأثر واضحا على وجه عبد القادر وكادت تطفر الدموع من عينيه ، واعتقد أنه لو رفض طلب هذه البائسة فسيحجب عنها شعاع الأمل الوحيد الذى ومض أمامها فى ظلمة الحياة التى تحياها .فتح درجا وأخرج منه ورقا وقلما وقال :

ـ ساكتب لك خطابا إلى ربنا . فماذا تريدين أن تقولى له ؟
ـ اكتب له أن يأخذنى عنده ، فأنا مسكينة ، أليس هو الذى خلقنى ؟

تظاهر عبد القادر بالكتابة ، ثم أخرج مظروفا ووضع الخطاب فيه وأقفل المظروف وسلمه إلى زينب . أطبقت يدها على الخطاب بشدة ولم تفكر فى وضع طابع البريد ، فهذا شىء لاتعرفه . وفى خطوات حائرة مضطربة ذهبت نحو صندوق البريد ، وحاولت القاء الخطاب فلم تسطع يدها الوصول إلى فتحة الصندوق . انتظرت مرور أحد المارة وأعطته الخطاب ليلقيه ، فأخذه منها وألقاه دون أن ينظر إليه .

شعرت لأول مرة فى حياتها بسعادة لم تعرفها من قبل ، لقد وجدت من

ترسل اليه خطابا كما يفعل غيرها من الخدم عندما يرسلون الخطابات إلى ذويهم .

متى يصل الخطاب إلى ربنا ؟ ترى هل سيصله اليوم ؟ وإلى أين أذهب الآن ؟ هل أذهب إلى مكانى جنب جامع السيدة زينب ؟ سأجلس هنا تحت صندوق البريد انتظر الرد .

جلست القرفصاء وأسندت رأسها على ركبتيها ، وبعد فترة رفعت رأسها فإذا بها وجها لوجه أمام سيدها . سرت فى جسدها رعشة وانتصبت واقفة وكأنها رأت عفريتا . جذبها الرجل من ذراعها جذبة قوية وأمرها بالرجوع إلى المنزل ، وظل قابضا على ذراعها حتى دخلت من باب الشقة .

استقبلتها سيدتها بصفعة قوية على وجهها أذهلتها وانهالت عليها ضربا ولكما وسبا . وأقبل المساء ، فنام أهل المنزل ونامت زينب فى مكانها بالمطبخ .

فى الصباح صحا أهل المنزل ، ونادتها سيدتها فلم تسمع إجابة وظنتها غافلتهم وهربت مرة أخرى . فهرعت إلى المطبخ تبحث عنها . وجدتها متكورة فى ركن المطبخ . ركلتها بقدمها ركلة قوية لتوقظها فلم تسيقظ زينب ، ولن تستيقظ .

«روز اليوسف» ٢٤ مارس ١٩٥٢

جماعة من المساكين

المساء . فى منزل الشيخ درويش ضجة غير عادية سببها ذلك المخلوق الآدمى الصغير الذى هبط إلى الوجود فى تلك الليلة .

الغرفة خافتة الضوء ، فلقد تآكلت ذبالة المصباح ونضب بتروله فخرج المخلوق الجديد من ظلمة إلى ظلمة . وبعد مداولة قصيرة أرغموه بدون علمه وبدون أخذ رأيه أن يحمل طَوال حياته اسم «متولى» .

ولقد وُجد متولى هذا فى هذه الدنيا نتيجة خطأ غير مقصود دون أن يكون له ذنب فى ذلك ، إذ كانت رغبة أبيه «درويش» أن يتزوج من فاطمة شقيقة زوجته الحالية والتى تقاربها فى السن ، ولكن المرأة التى كُلفت بالخطبة أخطأت وظنت أنه يود خطبة خديجة فخطبتها له ، وعندما علم درويش بذلك لم يعارض ، أليست أنثى كأختها لها فم كفم البشر وأنف كأنوفهم وعينان كعيونهم ؟ أما كون هذا الأنف كبيراً أو العينين ضيقتين أو أن الفم قبيح فهذه كماليات فى نظره لاتستحق اهتماما كبيرا .

ودرويش رجل صالح يعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، وهو على حق فى ذلك ، فمن دفعه سوء الطالع إلى الحياة فى قرية كقريته يجب عليه أن يتوقع

الموت فى أية لحظة ، فهو إن لم يمت من البلهارسيا فسيقضى عليه بعوض الملاريا ، وإن لم يكن من هذا ولاذاك فمن سوء التغذية أو التيفويد .

والقرية مجموعة من الأكواخ القذرة المبنية بالطين ، تحصر بينها أزقة ضيقة ملتوية ، وترتفع أرض تلك الأزقة فجأة ثم تنخفض تبعا لوجود أو عدم وجود تل من القاذورات أمام المنزل .

إذا سرت فى إحدى تلك الأزقة ونظرت إلى أبواب الاكواخ ، أطلت منها رؤوس كائنات نصف حية شاحبة اللون ثم توارت فى الظلام المنتشر داخل هذه الكهوف . تلك الوجوه الشاحبة وجوه مخلوقات آدمية ، هم جماعة من المساكين تتكون من مجموعهم سكان تلك القرية ، أما حمرة وجوههم فلقد ذابت فى بولهم الممتلىء دما وبلهارسيا ، طعامهم المكون من خبز الذرة و«المش» يشاركهم فيه الدود الذى استوطن أمعاءهم .

والقرية تحد شمالا بالمقابر الجاثمة فى تلك الناحية فاغرة فاها تبتلع من آن لآخر عددا من سكانها الذين تلفظهم الحياة بعد كفاح مرير ، وتُحد جنوبا وشرقا وغربا بمستنقع كبير وجد فى هذا المكان ليُضمن به عدم انقراض البعوض من العالم ، ويوّرد إلى جيرانه المقابر اكبر عدد من الضحايا .

أما منزل درويش فهو كوخ منعزل غرست أمامه شجرة توت تحتها مصطبة تقوم مقام غرفة الاستقبال ، اعتاد درويش أن يجلس عليها يتسامر مع بعض أهل القرية وينام فوقها أحيانا وقت الظهيرة .

نشأ متولى بين أحضان تلك القرية واعتادت عيناه مناظر البؤس والفاقة ، وهى الشيء الوحيد الذى وزع بالعدل على أهل القرية جميعا .

فلا ماء يصلح للشرب ولا نور ولا مدارس ولا شوارع نظيفة . وعندما بلغ السابعة من عمره أرسله والده إلى كتاب الشيخ عبد الله حيث تعلم أن أبناء النبى سبعة ، ثلاثة ذكور وأربع أناث الذكور سيدنا عبد الله وسيدنا ابراهيم وسيدنا القاسم أما الإناث فكان دائما ينساهن ، وكان هذا كل ماتعلمه فى الشهور الثلاثة الأولى .

أتم متولى عامه الأول فى كتاب الشيخ عبد الله ، ترى هل يستمر فى هذا الكتاب ؟ إن والده درويش يملك من مساحة الكرة الأرضية نصف فدان ، فهو فى نظر معظم أهل القرية من الأثرياء . ولما كان الشيخ درويش يمتلك نصف فدان فلقد فكر فى أمر ابنه متولى ، لماذا لايرسله إلى مدرسة المدينة فيصبح أفنديا يضع الطربوش على رأسه ، كما يضعه المحضر الذى حضر منذ أسبوعين للحجز على جاموسة اسماعيل عبد الدايم لعجزه عن دفع الإيجار ؟

لم ينم متولى فى تلك الليلة ، غدا سيذهب إلى المدرسة الابتدائية الأميرية التى بالمدينة المجاورة والتى تبعد عن القرية بمقدار ساعة سيرا على قدمى متولى ، وسيضع على رأسه الطربوش وتصرف له كتب وأدوات جديدة . كانت تلك الليلة أطول وأسعد ليلة مرت على متولى .

قبل أن ينادى المؤذن . «الصلاة خير من النوم» وقبل أن يُهرع درويش إلى الجامع كان متولى يتحسس طريقه نحو المضخة ليغسل وجهه ويلبس بدلته الجديدة التى اشتراها له أبوه بعد أن باع كل القمح الذى جادت به مزرعته . ماكادت أم متولى تسمع صوت المضخة حتى هبت من نومها لتساعد ابنها . كانت قد أعدت لفطوره قطعة من الجبن المخزون فى الجرة

وتقفز منه بين حين وآخر كائنات حية دقيقة هى يرقات أحد أنواع الذباب التى يعتقد أهل القرية أنها من مركبات المش فأصبحوا لايشمئزون منها .

مازال الجو باردا فى هذا الصباح الباكر ، ولكن يتحتم على متولى أن يغادر البيت قبل أى تلميذ من زملائه سكان المدينة بمقدار ساعة على الأقل ليضمن الوصول إلى المدرسة فى الموعد المطلوب .

وهكذا أصبح متولى تلميذا ، والتلميذ ينبغى أن يذاكر دروسه ، أين سيذاكر ؟ إن البيت يتكون من غرفتين ، الأولى تستعمل نهارا للجلوس والأكل ، حتى إذا جاء الليل انقلبت إلى حجرة للنوم حيث تفرش فى أحد أركانها مرتبة قذرة ينام عليها درويش وزوجته ، وفى ركن آخر من الغرفة توجد دكة اكتفت بالوقوف على ثلاث أرجل واستعيض عن الرجل الرابعة بقطعة حجر ، وهذه تستعمل لنوم متولى ولمذاكرته أيضا ، حيث يجلس ويفتح الكتاب أمامه ويضع مصباح البترول على الجزء المنبسط من النافذة الذى يمثل سمك جدار الغرفة . أما الغرفة الثانية التى يطلقون عليها اسم «القاعة» فتستعمل للنوم شتاء حيث يشتد البرد وهى مزودة بفرن متسع يحمّى بإشعال قدر من الحطب فيه قبيل النوم وتنام العائلة فوقه .

أقبل الشتاء ، وبدأ متولى يبغض هذا الفصل من العام بغضا شديدا فالرحلة من البيت إلى المدرسة شاقة عندما لاتكون هناك أمطار ، فما بالك والمطر منهمر والأرض طين موحلة .

أخذ متولى يشق طريقه نحو المدرسة رافعا قدميه بصعوبة وهو يخوض فى الأوحال المتراكمة . فى ذلك اليوم لم يتمكن من الوصول إلى المدرسة فى الموعد المحدد .

توجه نحو الفصل فاستقبله المعلم بوجه عابس قائلا :

ـ لماذا تأخرت ؟
ـ الأوحال التى فى الطريق عاقتنى عن السير السريع .
ـ من أية داهية تأتى ؟
ـ من قرية صغيرة بعيدة عن المدينة .

هوى المدرس بكفه على وجه متولى فأشبعه صفعا وصار جسده يهتز هزا عنيفا ثم صاح المدرس قائلا :

ـ لن أسمح لك بدخول الفصل إذا تأخرت مرة أخرى ، فليست المدرسة زريبة بدون بواب تحضر إليها متى تشاء .

ـ خرجت من بيتى منذ ساعات ولكن الأرض موحلة والمسافة طويلة .

صفعه المدرس صفعة قوية أخرى هوت فوق أذنه وكان متعبا مما قاساه طوال الطريق فترنح وسقط على الأرض فاقد الوعى . بكى بعض التلاميذ من أجله فى صمت وتقدم تلميذان حملاه على أكفهم وأوصلاه إلى غرفة طبيب المدرسة ثم عادوا إلى الفصل قال أحدهما لزميله :

ـ إنه خفيف كالريشة .

لما حاول الطبيب إسعافه هاله منظر الفانلة المهترئة التى تحولت إلى مايشبه نسيج العنكبوت . بذل الطبيب مجهودا كبيرا حتى بدأ متولى يفيق من اغمائه رأى الدنيا من خلال عينيه غائمة وهو نصف مستيقظ فظن الطبيب والده فاحتضنه وبكى وهو يقول :

ـ أنا تعبت يا أبى ، لا أريد الذهاب إلى المدرسة .

أفاق متولى وعاد إلى فصله مطأطىء الرأس شاحب الوجه . كانت جرثومة الضمير قد بدأت تصحو فى صدر ذلك المدرس فأخذ يلاطفه

فانفجر متولى باكيا من جديد . أخرج المدرس من جيبه قلما رصاصا وأعطاه لمتولى ترضية له فأخذه وجلس فى مكانه منطويا على نفسه .

عندما عاد إلى بيته فى المساء كانت آثار الاعياء الشديد بادية على وجهه فانزوى فى ركن الغرفة ، وحانت منه التفاته فوجد أباه يبكى ، وعندما دخلت أمه لاحظ متولى آثار الدموع فى عينيها ، ولما استوضحهم الأمر أخبره أبوه أن الجاموسة ماتت ، زلت قدمها فسقطت فى المستنقع .

ذُبحت الجاموسة وبيع لحمها لأهل القرية الذين أسهموا فى شرائه لا حبا فى أكل اللحم ، هذا شيء روضوا أنفسهم على الحياة بدونه ولكن رغبة فى مساعدة ذلك الرجل المنكوب الذى فقد أعز صديق . شاركهم متولى البكاء ، ثم حانت ساعة النوم ، ولم يذاكر متولى دروسه فى تلك الليلة ، وبعد برهة كان جميع أهل المنزل فى سبات لايدرى أحد ما اذا كان عميقا أم غير عميق .

انهمر المطر غزيرا فى تلك الليلة ، وبعد فترة هب متولى من نومه ، فلقد بدأ المطر ينفذ من خلال السقف فى مواضع الضعف فيه ، وهى كثيرة ، وتساقطت قطرات من المطر فوق درويش وزوجته أيضا فاستيقظا .

أسرعت الأم وأحضرت بعض الأوانى ووضعتها على أرض القاعة فوق الفرن الذى ينامون على سطحه . كان فى ركن الغرفة طشت كبير وفى منتصف سطح الفرن اناء من نحاس ، وتناثرت الأطباق فى مناطق متفرقة تستقبل المطر المتساقط من السقف . لم يكن هذا المنظر غريبا على متولى فلقد اعتاد ذلك فى الليالى الممطرة ، وكم من ليلة تعذر عليه النوم وسط تلك الأوانى المتناثرة والأصوات المتنافرة . توقف المطر بعد أن أرق العائلة

فترة غير قصيرة فجمعت الأم الأوانى بما فيها من ماء وأخرجتها من القاعة التى اتخذت طابعها الأول واستأنف الجميع النوم .

بينما كان متولى عائدا من المدرسة ظهر أحد أيام الخميس ، أقبل على القرية فوجد حركة غير عادية ، سأل عن السبب فأخبروه أن هذه مواكب الانتخابات ، وهم الآن فى موسم انتخابات مجلس النواب .

سار متولى بين جموع أهل القرية المحتشدين فوجد قافلة من السيارات تتقدمها سيارة فاخرة اتكأ على مقاعدها بعض علية القوم . أخذت السيارات تشق طريقها بين الأزقة القذرة وتتأرجح فوق أكوام تنبعث منها روائح كريهة ، وتوجهت فى النهاية نحو دوار العمدة ، فنزل من بالسيارات يتقدمهم راكبو السيارة الأمامية حيث استقبلهم العمدة مرحبا بمقدمهم ، كما رحب بباقى الضيوف وجلس الجميع فى الدوار وهتافات أهل القرية تتوالى .

وقف رجل تبدو عليه مظاهر النعمة وأخذ يتدفق فى خطاب طويل فهم منه متولى أن ذلك الرجل مرشح لعضوية مجلس النواب وهو يحاول اقناع أهل القرية بأن يمنحوه أصواتهم ، ولاتشعر القرية بأنها جزء من الدولة إلا فى ذلك الموسم ، موسم الانتخابات ، حيث تنهال عليها مواكب المرشحين .

استرسل الخطيب فى خطابه فأدرك متولى أن القرية بفضل هذا الخطيب سوف تُرصف طرقُها كما هى الحال فى البندر ، وتُبنى المساكن الصحية بالطوب الأحمر الجميل ، وتضيؤها الكهرباء وتفتح فيها المدارس ويردم ذلك المستنقع الآسن الذى يهدد أهلها بالملاريا ، فشعر بالسعادة تغمره فالقرية ستصبح مثل المدينة المجاورة ، ولن يسير فى الأوحال ولن يستعمل

مصباح البترول خافت الضوء ، ولن يتجشم عناء الذهاب إلى المدرسة البعيدة سيرا على قدميه ، وانطلق يعدو ليزف إلى أبيه البشرى .

نظر اليه الأب بعينين حزينتين وقال :

ـ يا إبني ، لقد عشتُ فى هذه القرية أعواما طوالا وسمعت هذه الكلمات نفسها فى كل موسم من مواسم الانتخابات ، ولكن على الرغم من ذلك فها هى ذى القرية كما هى ، الطين نفسه والفقر نفسه .

ثم ابتسم درويش ووضع يده على كتف ابنه قائلا :

ـ هذا الرجل الذى سمعته اليوم هو نفسه الذى انتخبناه من قبل مرات عديدة ، وفى كل مرة كنا نصدقه .

ثم أطرق إلى الأرض وتمتم قائلا :

ـ لن تتقدم القرية الا بك يامتولى لا بأمثال هؤلاء الوافدين ، لقد وضع جميع أهل القرية أملهم فيك .

نظر متولى إلى أبيه مدهوشا قال :

ـ أنا ؟ !

ـ نعم ، أنت . ستكون نائب القرية فى يوم من الأيام ، وعند ذلك نرجو الخير الكثير .

منذ ذلك اليوم تمنى متولى أن يصبح نائبا فى البرلمان فيحقق لقريته ماسمعه الليلة من الخطيب الفصيح . ومع مرور الأيام أخذ أهل القرية يرون فى متولى أملهم المنشود ويتعجلون نموه ليصبح نائبهم الذى يأخذ بأيديهم وينتشلهم من هذه الهوة السحيقة .

ولكن فى صيف أحد الأيام صحا متولى من نومه وهو يرتعش من شدة وطأة الحمى وشعر ببرد شديد يسرى فى جسده . أخذ البرد يعاوده كل

يومين ، إنها الملاريا ، حملتها إليه بعوضة توالدت فى المستنقع الذى ابتلع جاموستهم من قبل ، وأخذ وجهه يزداد شحوبا يوما بعد يوم ، وكثر هذيانه عن إصلاح القرية والبرلمان .

ولكن القرية لم تُصلح ، ولم يهتم باصلاحها أحد ، بل ظلت كما هى تحد جنوبا وشرقا وغربا بمستنقع كبير يتوالد فيه البعوض ، وتحد شمالا بالمقابر التى ضمت مقبرة جديدة من الطين تحتضن جسد متولى .

مجلة «روز اليوسف» أول سبتمبر ١٩٥٢

المحتوى

القصة	الصفحة
البيت	٣
جراحة عاجلة	٢١
البحث عن حُلم	٣١
القنبــلة	٤٧
سيكوسيتا	٨٣
سيمفونية	١٠٩
غرفة الانتظار	١٢١
الكرسى رقم ١٥	١٣٥
خارج الكهف	١٤٣
الطريق الآخر	١٦٩
عزف منفرد	١٨١
الجـــائزة	١٩٧
الطوفان	٢١٩
سر الحياة	٢٣٩

الزنبقة المسكينة ٢٥١
هروب فى الفجر ٢٥٧
بندقـــية ٢٦٥
لماذا لم يأتِ الشتاء ٢٧٣
شجرة الياسمين ٢٨١
ستار الغـــد ٢٨٧
خطاب إلى الله ٢٩٣
جماعة من المساكين ٣٠١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ٧٥٦٦ / ١٩٩٣

I.S.B.N. 977-01 - 3452- x

تكشف هذه المجموعة القصصية للكاتب الكبير الدكتور يوسف عز الدين عيسى ابعاداً جديدة من الرؤى التى تشغل فكر الكاتب ويستشرف بها آفاقاً جديدة يقيم بناءها على أنقاض عالم اكتنفه الخواء . ولم يكن غريباً أن تنثال مشاعر الحنان إلى جمال الطبيعة ونبل المشاعر الإنسانية وسط رؤى فكرية تشى بغرائبيسية فى التصور والتناول الفنى . واهتدى الكاتب إلى نغمة صحيحة وسط عالم يتسم بالكابوس والقهر والتفتت (وعلى الرغم من عدم وجود أى أثر لضوء الفنار ، فقد ظل ناظراً إليه متوقعاً استئناف اشعاعه فى اية لحظة) .

وجاءت تصف المجموعة فى لغة سهلة وتركيب لغوى يتسم بجمال الأنتقاء وبجمال دلالته العامة والمجازية . ولم يغفل الكاتب مفردات المجال الخارجى فتناوله عبر سَرْد تتراكم أحداثه ، وحوار له طابع الجدل الوجدانى والفكرى فكشف بذلك عن أبعاد جديدة فى الرؤى والفكر معاً .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٧٤٠ قرشا